

تجليد صالح الدقر
تلفون ٢٢٩٧٧

~~792.9~~
~~Sh 53H~~

~~JUN 14 1960~~

~~FEB 25 1962~~

~~- 1 MAR 69~~

~~1 - MAY 1970~~

~~JUN 1970~~

~~JUN 1970~~

JAFET LIB.

~~26 NOV 1979~~

~~JUN 1974~~

J. P.

JAFET LIB.

~~1 OCT 1987~~

~~3 JUN 1978~~

JAFET LIB.

~~- 1 MAR 1983~~

سياسة الإسلام تجاه المسح والقبلم

بقلم

محمد هبة الشربيني

درجة العالمية مع إجازة الدعوة والإرشاد
من كلية أصول الدين

الطبعة الأولى

١٣٧٤ هـ - ١٩٥٤ م

مطبعة الفجالة الجديدة

بشارع كامل صدق (الفجالة سابقاً)

صلاة الافتتاح

كان لابد من أن أستعيز بالله تعالى ربى ومولاى .
وكان لابد أن أبتدىء بإسمه تعالى مع حمده وشكره .
وكان لابد أن أضيف إلى كل أولئك صلاة وسلاماً على محمد رسول
الله وعلى آله عامة .

نعم كان لابد من أن أفعل هذا الذى فعلت ، فإنى الآن مقدم على
أمر خطير ذى بال وهو الكتابة فى هذا الأمر الجلل ، سياسة الإسلام
تجاه المسرح والفيلم ، وهو أمر صعب وشاق على النفس ، ولقد جاءت
صعوبته ومشقته من أنه لم يطرقه أحد من قبل ، ولم يهد فيه لإنسان
التهميد المطلوب الذى يسهل كثيراً على الباحث بعد .

وإذن فما كان لى أن أدخل فيه دون أن أستعيز بالله تعالى ليحفظنى
من شر الناس ، ويزيل العقبات التى يضعها أولئك الحساد الحملة
والجرمون أمامى .

وما كان لى إذن أن أدخل فيه دون أن أبدأ بيسم الله الرحمن الرحيم
ليباركه هذا الإسم الأعظم ويبعد عنه سمات النقص وهنات العجز
والإضطراب .

وما كان لى إذن أن أدخل فيه دون أن أوجه الحمد والشكر لمن
يستحقهما وهو الله تعالى إذ وجهنى هذه الوجهة النافعة ووفقنى إلى الكتابة
فى هذا المعنى العظيم الذى سينمو ويتوسع بهذين ، بهذا الحمد وبذلك
الشكر المرفوعين إلى مقامه العظيم .

وما كان لى بعد أن أنسى الصلاة والسلام على محمد رسول الله وآله
الابرار . وهما عماد من أعمدة النجاح فى المقاصد بل زينة الأعمال
الصالحات التى تعطيها حسناً وجمالاً وبهاء على ما لها من حسن وجمال
وبهاء طبيعى .

أو ليس رسول الله قد استعاذ بالله تعالى المعين من شر ما خلق
ومن شر الجاهلين الذين كانوا يحاربونه ويحاربون دعوته إلى الخير
والهدى والرشد ؟

أو ليس هو قد بلغ الناس أن كل عمل لا يبدأ فيه بسم الله فهو أجزم ؟
أو ليس قد أنبأنا كذلك أن كل عمل لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجزم ؟
أو ليس قد حدثنا أن كل عمل لا تصحبه الصلاة والسلام عليه تعظيماً
وإجلالاً وتحمية فهو ناقص الخير غير تام البركة ؟
طبعاً هذه أسئلة تحتاج وتتطلب إجابة صريحة .

ولا شك أن الإجابة عليها المطابقة للواقع التاريخى هى كلمة بلى ،
لا كلمة نعم . ولا كلمة كلا . فإن الإجابة بإحدى هاتين الكلمتين
الآخرتين . إجابة الجاهلين الذين لا يعرفون الماضى ولا يهمهم أن
يكون لنا أسوة بمحمد بن عبد الله العظيم ، وفى الأسوة به المجد والرفعة
والسؤدد والنصر المبين .

والحق أنه إن فاتت هذه المعانى على أحد من البسطاء بساطة تامة
أو غير تامة ، فلا ينبغى أن تفوت على من تشقف ثقافة إسلامية عليا
أو عالية . وصدق وآمن بما لها من ثمار طيبة وآثار محققة عن علم ومعرفة
وتجربة لا تقبل الشك ولا النقض .

إننى أصدق وأؤمن بفائدة الإستعاذة بالبسملة وفائدة الحمد لله

وفائدة تعظيم محمد رسول الله عن طريق الصلاة عليه والسلام عليه .
فإن هذه الأنواع من الذكر العالی لا ريب فی أنها وسيلة يتوسل
بها المرء فی قضاء أموره وإنجاز حاجاته عند الله تعالى .
فبك اللهم أستعین من شر هذه النفوس التي وضعها الجمل فی
أسفل سافلین .

وباسمك اللهم أبتدی .
وبحمدك وشكرك أكتب هذه الرسالة المجيدة .
وعلى عبدك ورسولك محمد نبی الإنسانية ورسول العالم أجمع وعلى
آله أصلى وأسلم .
وأنت حسبي يامولای ، ونعم الوکیل .

الافتتاح

لنذكر هذه الآية الكريمة (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله
والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبؤكم بما كنتم تعملون) .
ولنتجه إذن إلى بعث أدبي إسلامي صحيح ، وإلى خلق جيل
جديد وحركة عليية عربية وإسلامية كبرى خالدة على مر الزمن .
وليكن مانطلبه ، ثورة على الأفكار البالية الاولية ، وتحولا
وانقلاباً إلى ثقافة إسلامية حق .

وأن علينا أن نعلم جميعاً . أننا جسد واحد ، يكمل أحداً أخاه ،
وبعضنا يكمل بعضاً .

وأن شيوخ الأمة هم حكاؤها الذين لا يستغنى عنهم
وأنه لا يهمننا شيء بقدر ما يهمننا الإسلام .

إنني أقول ولا أزال أقول ، إنني كلما نظرت إلى حال هذه الشعوب
الإسلامية خاصة وباقي الشعوب الأخرى ، أحسست بالحاجة الشديدة
إلى إخراج هذا الكتاب الذي يقدم لنا الفكرة الصائبة عن مسرح وفيلم
إسلاميين يأ تلفان وطبيعتهما ومزاجنا وعاداتنا ، ويتفقان مع الرغبة
العامة في النهضة بهذه البلاد التي طال الأمد عليها وهي راسفة في قيود
التقليد والاحتلال ، عسى أن يسد ذلك الكتاب تلك الثغرة التي لاتزال
باقية في نهضة هذه الشعوب العريقة .

وها أنذا أسير على أثر ذلك الإحساس إلى إخراج ذلك الكتاب
الكريم باسم الله الرحمن الرحيم بصبر واحتمال لا يعرفه إلا أبطال العلم

وجبايرة الفقه الصحيح . مجاهداً في سبيل تلك الشعوب الإسلامية خاصة
وبقية الشعوب الأخرى عامة .

مؤمناً بأن الزمن الذي كان يحارب فيه أعداء هذه الأمة وأعداء
هذا الوطن نهضتها قد ولى إلى غير رجعة .

ومقدراً أنه سوف يلاقى أجمل ترحاب وأكرم استقبال لتقدم
الوعى وترقى الإدراك في الأمم عامة .

هذا ، والله أسأل للعالم التوفيق والرشد والسداد والهداية .

أنه سميع مجيب رحمن رحيم

إهداء الكتاب

(١) مولاي صاحب الجلال والإكرام ، مولاي رب العالمين .
سيدى العظيم الله ، سيد الكون وسيد الوجود على الإطلاق .
سيدى الله تقديست ذاته وصفاته وأفعاله ، وتبارك في علاه ،
وجل لدى العالمين بقدره والعارفين بمقامه .

ها أنت يا مولاي خلقت هذا الكون وذاك الوجود ، ثم جلست
واستويت على عرشك العظيم ، منفرداً بالملك والامر ، بعد أن كنت
متوحداً في الوجود ، فكان لك الهيمنة والقهر فوق هذا العالم الذى
على رأسه هذان الثقلان من الإنس والجن .

وبمقتضى هذه الهيمنة وذلك القهر ، دان لك العالم ، ودان لك الثقلان
بالعبودية . لا يستطيعان تحولا ولا يستطيعان توجهاً إلا بك ،
وبسلطان منك .

ثم كان من كمالك إن أردت لهذين الثقلين كمالاً مقارباً ببعض القرب
من كمالك القدسى الأعلى ، وإن كان كمالك فى الحقيقة لا يدانى . فبعد أن
تعهدتهم بتربية أجسادهم بأنعمك الطيبات التى تخرجها لهم من الأرض ،
تعهدتهم بتربية عقولهم بتعاليمك المباركة التى أنزلتها من السماء على
رسلك الذين اصطفيتهم لهذا الغرض والمقصد الاسمى كى يقوموا
بواجب العبودية لربهم خير قيام ، إذ أن العبودية وظيفة كبرى . فهى
خدمة الرب الأعلى ، وخدمة الرب الأعلى تحتاج إلى علم ومعرفة . بل
تربية دقيقة عميقة واسعة لاضرورة إلى توفرها فى خدمة غير الله تعالى .

ومن الضلال والإلحاد طلبها في خدمة غير الله تعالى إذ العبودية لغير الله تعالى لا تكمل نظير كمال العبودية لله تعالى .

ثم اقتضت إرادتك العلية أن يكون لهؤلاء الرسل الذين كلفوا بامر التربية ، خلفاء يرثون أمر تلك الوظيفة الكبرى السامية ، يحملون تلك الأمانة التي لا يتحملها إلا الأقوياء الأشداء ، ويبلغون رسالاتك العظيمة لئلا يكون للناس حجة عليك بعد ذلك البسلاع الذي هو في حقيقة الأمر جهاد أكبر ، لما يتطلبه من جهد شاق .

لأنه جهاد يتعلق بك يامولاي وما يتعلق بك ، يستدعي انتباهاً وحذراً عظيمين ويستلزم اهتماماً بالغاً : ودقة متناهية ، تجعل الباحث كله وعى ويقظة ، فتفتتح حواسه وتصحو مشاعره ، وتدور عقليته الدقيقة الحساسة هذه كما يدور المصنع يدار بالآلات الكمبرباتية ، فلا تراه ، إلا وقد أصبح كله حركات متناسقة ، ودقات منتظمة ، وأصوات موزونة ودوامات تاخذ في الثقلب في أفلاك لا تتعدها ، « كل في فلك يسبحون » ، هذا يدفع هذا ، وذلك يدفع الآخر ، لا تجد جهازاً عاطلاً ولا تبصر جزءاً متوقفاً ، فإذا حانت ساعة الفراغ توقف كل شيء وسكنت الحركات وبطلت الدقات وخفت الأصوات .

وربما كان تصوير الباحث وهو يفكر ويجول ويجوب بعقليته الشاعرة المدركة بهذا التصوير ، يوفقنا على ما يعاني من جهد مضني ، وتعب شديد الوطأة على قدر جهاده وعقليته المجاهدة ، لأنه في الحق يعاني أكثر من ذلك أضعافاً مضاعفة ، لأنه يقوم بعملية أخرى من أشق ما يكون بجانب البحث العميق ، وهي عملية الدراسة والتحليل

والاختبار والوزن ، كالكيماوى الذى يدرس ويحلل ويختبر ويزن ،
وإن كان هناك فرق بين الكيماوى المشرع ، والكيماوى الطبيعى .
ثم ها أنت يامولاي قد أعددتى لأن أكون فى أعداد أولئك الخلفاء
وهيأتى لهذا الجهاد بل لذلك البلاغ عن رسولك الذى بلغ عنك إلى
الناس ، بهذه المراحل الدراسية التى قطعتها فى مستقبل الحياة ، فوق
أعدادك وتهيتتك الفطريتين .

وحقاً يامولاي ، أن ذلك الإعداد ، وهذه التهيئة كانا لازمين
أو ضروريين لأنه لا بد فيمن يحمل الأمانة ويبلغ الرسالة من النضج
والرشد ، ومن أين لنا بالنضج والرشد بدون إعداد وتهيئة ، وكيف
يربى الشعوب والأمم من لم يكن قد تربى تربية ناضجة راشدة ؟
أفليس الغرض من حمل الأمانة وتبليغ الرسالة المنزلتين من لدن الله
تعالى إنما هو القيام بالحفظ والحراسة إلى أجل كائن لا نستطيع أن نسميه
ولا ندرى أن نحدده ، وإن كان له علامات وآيات تعلمنا أنه قريب
وتذكرنا بدنوه ؟

هذا فوق القيام بتربية الشعوب والأمم ورعايتها حتى تنضج وترشد
هى الأخرى من بعد .

والواقع أنه لا يصلح للقيام بهذه التربية والرعاية ذات الأثر الفعال
الواسع الامتداد فى تكوين الشعوب والأمم إلا كل مصلح ناضج
راشد ، وأعنى بالنضج والرشد ، أن يكون حظ صاحبهما من الإدراك
أكثر ، وأعمق

وهل ذلك الناضج الراشد إلا من يصرخ فى قومه منذراً ومهدداً ،

داعياً لهم إلى الحق والصالح العام ؟ وهو نادى فى الناس بل قليل ، وأقل من القليل . وخلق به أن يكون كذلك .

* * *

(٢) والآن يا مولاي بعد الذى قد كان ، ماذا أفعل ؟
ها أنذا أشعر يا مولاي أنتى أحمل أمانة كبرى هى ذلك العلم الموروث
عن خاتم النبیین محمد .

ثم ها أنذا ألمس أنه قد صار لزماً على ، أن أعمل على أن يبلغ
هذا الجيل والاجيال التى تليه ما يحويه ذلك العلم من معنى جليل ، وما
يتضمنه من فحوى كريم يدفع إلى المجد والعلا ويسلم من عز إلى عز أكبر .
وهذا ما يدعونى إلى البحث عن السبيل والوسيلة إلى تحقيق هذا
الغرض الشريف .

فهل إلقاءه شفويّاً هو السبيل والوسيلة التى فيها الخير كله ؟
لا شك أن الطبع والنشر هو الطريق الأفضل ، لأنه سيسجل الكلام
ويحفظ المعنى المراد ، وهذا التسجيل وهذا الحفظ يقاومان عوادي
الدهر أطول مقاومة عرفها تاريخ العلم على هذه البسيطة والمعصورة .
ولكن من أين الطبع والنشر ؟ ومن هو الذى ييسر هذا الأمر على
القادرين على الكتابة من الكتاب الراسخين ؟

أن هذا أمر جدير بالنظر والتدبر والامعان والتفكير للوصول
إلى نتيجة إيجابية فى هذا الشأن والحال .

ولكن ما هى تلك النتيجة الإيجابية ؟ وهل هى أن نستعين

بإنسان ما ؟

إن هذه الاستعانة لو طلبت طريقها إلى أى أحد لعانيت العناء الطويل بدون جدوى، ذلك لأننا لازلنا قريبي عهد بعصر كانت الوشاية والتحاسد وسوء الظن طابعه ، وقد بدأنا نغير ما بأنفسنا منذ قامت الثورة البيضاء في مصر .

وإذن فما هى تلك النتيجة الإيجابية ؟ هى العمل على الطبع والنشر بدون استعانة إلا بالله تعالى .

هى أنى آثرت وطنى وابناء دينى على نفسى بل آثرت الله تعالى فى الحقيقة مع ما بى من خصاصة وقلة . وقلت « ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون » ، فإن فى هذه العبارة الجميلة الغاية التى نلشدّها من الإيثار ، وما أجمل الإيثار ! بل ما أجمل تقديم الله تعالى وإيثار الجماعة على الفرد ، فهما طريق الفلاح ولا شك . فإن هذا التقديم وهذا الإيثار ليسا إلا أثرًا من آثار هذه المحبة الكبرى محبة الله تعالى ومحبة الجماعة لأن الله تعالى أكبر من كل شيء ، والجماعة أكبر من الفرد ، ومن هذا الوجه كانت محبتهم محبة كبرى ، والمحبة الكبرى جوهر الإيمان ، وروح الإيمان . بل هى الإيمان كله ، ولا فلاح إلا بهذا الإيمان .

وإذن أصبح لزماً على أن نهج هذا المنهج الخاص وهو الطبع والنشر فى تبليغ هذا الجيل والذى يليه من أجيال ما يحمل هذا الدين من نفائس وذخائر .

وعلى إذن أن أبذل ما فى طاقتى ووسعى فى سبيل هذه التربية العامة التى طالما أخفق فيها فحول المربين وجهابذة الإصلاح بالرغم من نجاحهم بعض النجاح فى بعض الأمور وفى بعض الفترات .

وأنه لعزیز علی أن أبذل ما فی طاقتی ووسعی وأتعب ذلك التعب العظيم فی عالم لا یقدر بذل الجهود ویؤولها التاویل الباطل السخیف والخاطیء الضال من أجل الغيرة والتقاتل علی متاع الحیاة الدنیا ، ولكن ثم لکن ما كنت لأترك دیناً فی عنقی من أجل حماقة أحد وجهله علی فقد قرأت کثیراً من تاریخ العلماء المصلحین . وعرفت کیف کان یجمل الجاهلون ؟ وکیف کان یعرض عنهم أولئك المربون ولا یعبأون بشرهم ، والتاریخ له فترات ، وفی کل فترة یعید نفسه من جدید ، السفهاء یقومون بسفاهتهم یمثلون دررهم ، وهؤلاء الجهابذة الاعلام یتحلون بالحلم ، ویقابلونهم بمتتهی مکارم الأخلاق ، فینتصرون علیهم النصر المبین .

وتتقدم الجماعة بعد هزيمة هؤلاء الأشرار وكسر شوكتهم خطوات سريعة وعظيمة نحو النور والمجد ، ونحو الله رب كل شيء وهو غاية الغایات .

وفی الحقيقة إننی أجدنی مسوقاً ومقهوراً ومغلوباً علی أمری إلی ذلك الامر وهو أن أطلع الناس علی ما فی هذا الإسلام الذی أنزله الله تعالی علی عبده محمد من دلالات بینات ونور هو الفرقان الفاصل بین الحق والباطل وتشریع هو زينة التشريعات طرأ مقروناً بذلك بالنص الکریم نعم أن الإنسان مخیر لا مسیر فی نواحي الأعمال المحددة الصالحة التي له الحق فی اختیار واحد منها لیعمل بها ، أداء للواجب الذی وجب علیه فی هذه الحیاة ، ولكن ذلك إنما هو فی الابتداء ، أما بعد الاختیار والفراغ من الأعداد والهيئة فاصبح مسیراً لا مخیراً ، فلا یجوز له

التخلي عما اختار لأن ذلك الاختيار التزام ، والالتزام الوفاء به من الضروري .

ولنقرأ مرة وأخرى وأخرى تلك النصوص الإسلامية الكبرى لتكشف لنا ما نريد اكتشافه من معنى يدل على أن هذه الأمة والجماعة ، على الرغم منها مسوقة مكرهة بل مكلفة مجبرة على تربية أبنائها هم ومن أراد أن يدخل في دينهم أو أراد أن يتربى في مدارسهم وجامعاتهم تربية علمية عمومية ، أليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي جاء في ذلك النص الكبير (كنتم حير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) تربية علمية وثقافة للأذهان .

وألست النصيحة التي في ذلك النص الكبير « الدين النصيحة » إنما هي التربية العلمية ، والتربية العلمية رياضة النفوس على أشرف العادات وأكرم الأخلاق ، وإن هذه التربية تربية أخلاقية بأكمل معانيها ، فهي لا تخرج عن أنها توجيه نحو المثل العليا وتعويد وتخليق بالأخلاق المثل ، وهل العلم نظرياً وعملياً إلا خلق من الأخلاق الفاضلة نظرية وعملية من غير فارق ما ؟

إذن فخير للإنسان أن يكون باراً مؤدباً إلى أقصى الحدود مع الله تعالى ، وخير له أن يسير مع مولاه وسيده وربّه ولو كان في طريقه القصر والويل ، ولو اعترضته الأهوال ووضعته أمامه الأشواك في كل خطوة يخطوها في ذلك الطريق ، فلا يتراجع ولا يتقهقر ، وهكذا نرى طبيعة الأمانة ذلك الخلق العظيم ، يقتضينا أن نسير على الصراط المستقيم ، وإن كان فيه من المسكارة ما فيه .

(٣) قلت وأقول :- لقد فكرت ملياً ، ونظرت كثيراً فيما أكتب فيه ، وفيما هو جدير بان نخرجه من بحث يفيض بالخير على الناس بعد أن انقطعت عن الكتابة والإخراج مدة من الزمن على بغض منى كل البغض لهذا الانقطاع البغيض المؤلم ، الذى فيه حرمان للناس من التبكير فى الوصول إلى الهداية والمعرفة وهو حق من حقوقهم ، والذى فيه قضاء عليهم بالتأخير فالتأخر وهما جناية أى جنسية تؤدى إلى الخسار وتلحق من الضرر ما تلحق ، فرأيت أن أكتب فى هذه الناحية الاجتماعية الهامة ، ألا وهى ناحية المسرح والفيلم ، وحظهما فى التشريع والتقنين فى هذا الدين الحنيف ، فهى الجديرة الآن بالإخراج ، بعد أن قامت تلك الثورة المصرية العسكرية ، وأقامت هذا الحكم الجمهورى لتخرج بمصر من الظلمات والفساد إلى النور والصلاح ، لأنه مما لا شك فيه ، أن المسرح والفيلم يساعد الثورة والحكم الجمهورى القائم فى مصر العزيزة فى الخروج من تلك الظلمات ومن هذا الفساد ، إلى ذلك النور المرتجى ، وهذا الصلاح المأمول ، لاسيما إذا ارتقى المسرح ، وصلىح الفيلم ، مستمدين ذلك الرقى وذلك الصلاح من هذا الدين الطاهر النقى من شوائب الخرافات والبدع التى ما أنزل الله بها من سلطان .

(٤) على أنى وقد رأيت أن هذه الكتابة فى هذه الناحية بالذات سيكون لها شأنها العظيم وآثارها الطيبة ، فى جميع الأوساط والطوائف ، لأننى أحس فى قرارة نفسى إحساساً هو عين اليقين ، إننى ساوفق فى إصابتي الهدف فى إبراز جمال الإسلام ، بل فى إبراز ناحية حساسة من جمال

شريعة هذا الدين التي لا زالت مطمورة وفي طي الخفاء إلى حد جعل أكثر الناس ينظرون إلى هذا الدين نظرة فاترة ليس فيها شيء من الإعجاب والحماس والفخر والخيلاء ، فكرت فيمن أهدي إليه هذا الكتاب « سياسة الاسلام تجاه المسرح والفيلم » الذي لازلت أسطره وأعدده ولم أنته من صناعته بعد ، ثم تذكرت الله تعالى في الحال ، تذكرته وأنه صاحب الفضل والانعام على العالمين ، فوجدت أن هذا الكتاب القيم لا يصح أن يهدى إلا إليه تعالى ذى الطول والاحسان على العموم والخصوص ، أداء لهذا الشكران المقرر لهذا الإله العظيم ، وزلفى وقرباناً ، إلى جنابه الكريم ، رجاء رحمته الواسعة وطمعاً في المزيد من عفوه ورضوانه .

* * *

(٥) مولاي يا صاحب الجلال والإكرام .

سيدي صاحب العظمة والكبرياء .

رباه يا رب الارباب .

أننى أتجه إليكم بمشاعري وأحاسيسي في خشوع واستحياء متقدماً بهذه الهدية البديعة الممتازة ، وهى من خير ما أملكه ، وأعز ما لى ، مؤمناً بأنه لا ينبغي أن يقدم إلى رحابكم العالى إلا ما يتفق وجلالة قدركم وعظم مقامكم فإن العظائم كفوها العظماء ، وأنتم يا مولاي طيب رفيع قدوس وعظيم ، فليس من المشروع إن نجعل لك شيئاً مما نكره كما كانت تفعل الجاهلية ، وليس من المشروع أن نقصد الحديث بنفق منه في سبيل مولانا العظيم وهو ما كان يفعله أولئك الأميون الضالون .

رباه ، يارباه

لئن كانت مراعاة الذوق السليم وحسن اختيار الهدية إلى الله تعالى أمراً ضرورياً أدبياً وحسن خلق مع السيد الأعلى وهو الله سبحانه وتعالى والآداب وحسن الخلق معه تعالى أحق وأولى بالرعاية فإن أمر تقديم هذه الهدية إلى هذا السيد المولى العظيم أكبر ضرورة من باب التوقير والتعظيم والقيام بمراسيم وطقوس العبادة والتذلل والخضوع لهذا المولى العزيز .

وإذن ما كان لنا أن ننسى أن نتقرب إليك يا مولاي بهذه الهدية الجليلة ، وأن نحسن في اختيارها كل الاحسان ، فإن هذا النسيان ترك لواجب عظيم ، وغفلة عن حقوق أعظم مقام ، وضلال يعرض فاعله للخسران والبوار ، أو لسنا نقرأ ونسمع : « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » . ونقرأ ونسمع : « ونسوا الله فأنسيهم » ، وهذا الذي نقرأ ونسمع من الكلمات التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم ، وما أعظم القرآن ، وما أجمله !

(٦) والآن وقد تقدمت يا إلهي بهذه الهدية ، مستوفاة الأركان ، جامعة للأوصاف والنعوت اللازمة ، تامة الأغراض الشريفة . تحمل في طياتها الخير العميم للناس ، وتدر بالفوائد الكبيرة على كل من ينظر في صفحاتها المطهرة أو تسمع إلى كلماتها العذبة ، فإني أضعها في هذه الأرض بين يدي المصريين أولاً ، ثم المسلمين ثانياً ، ثم بقية الأمم ثالثاً ، أمانة من الأمانات المباركة التي تحمل اسم الله تعالى في هذه الأرض من كتب ورسائل وآثار أو لئلك العاملين العلماء ومن مساجد باسمه الكريم .

منبهاً ومرشداً إلى أنه ينبغي أن يحافظ عليها المحافظة الدقيقة مادامت ضمن تلك الأمانات المقدسة التي لها ارتباط وثيق بالله تعالى وبالسما .
ثم راجياً وآملاً ، أن يشرفني مولاي سبحانه وتعالى بقبولها
القبول الحسن التام ، فيكتب لي أجر العاملين المخلصين .

وما أظن ، ثم ما أظن به جل شأنه إلا أنه سوف يجيب ذلك
الرجاء ويحقق ذلك الأمل فإنني سوف أعاني كثيراً في إبراز محاسن
هذه الناحية الإسلامية الخاصة بالمرح والفيلم ، وسوف أقاسي
ما أقاسي في سبيل إظهار هذا الاسلام بهذا المظهر الناهض المشرف على
الدين كله في هذا الزمن الذي تعطش فيه أكثر الشباب والشابات
إلى الدين ، في حين أنهم لا يجدون من يعاونهم على الرى وورود
الماء العذب الفرات ، وهو جل شأنه خير الشاكرين .

بل إنى لمؤمن أنه تعالى سوف يتقبلها بترحاب جميل ، لأنها كلام
طيب طاهر شريف ، وعمل صالح يصلح العقول والقلوب والنفوس ،
وقد قال تعالى ، وقوله الحق : « إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل
الصالح يرفعه » ، وكلام الله تعالى هو القول الحق الذى لا يتخلف
ولا يخلف .

* * *

(٧) وإذن ، فلا يسعنى والحال هذه أمامى مبتسمة ، مبشرة بالرضا
والقبول عند الله ، إلا أن أسجد لله رب العالمين ، شكراً وحمداً ،
معتذراً اذا أنا قصرت فى حقه تعالى ، فإن يكن هذا التقصير ، فإنه
يرجع الى هذا العالم المتسفل المتناحر الذى لا يكف بعضه عن الشر .

وانزال السوء ببعضه الآخر . وسبحانك ربى لك الفضل ، والنعمة لك ،
ولو شئت لهديت الناس جميعاً ، ولكن جعلتهم أحراراً ، لتبليوهم
أيهم أحسن عملاً .

القاهرة أول ذى الحجة سنة ١٣٧٣ هـ

المؤلف . محمد وهب الشربيني

إلى قادة الثورة وزعماء التحرير

إن هذه الحياة عقيدة وجهاد .

وإن هذه الحياة مبادئ وعمل بتلك المبادئ .

ولكن هل يكون إيجاد العقيدة والمبادئ داخلا في الجهاد وفي

العمل بالمبادئ ؟

إنه داخل بلا أدنى شك وأدنى ظن ، فإن الجهاد يشمل الجهاد في إيجاد العقيدة الناهضة السليمة والعمل بالمبادئ إذا كانت مبادئ صالحة تقدمية تبارك البحث عن المبادئ الصحيحة أو عن مبادئ أنفع وأفضل . وفي معنى ذلك تعهد كل المبادئ القديمة بإدخال كل جديد مفيد عليها وإخراج كل قديم ضار منها حتى تدخل إذن في عداد المبادئ الكريمة الحياة الفتية من غير أن تكون قد مست في نفس جوهرها وذات هيكلها .

وهذا كتاب عني عناية خاصة في إيجاد عقيدة كربمه ومبادئ صحيحة كان لا بد أن توجد من قبل . نعم من قبل لتكون عاملا قويا من عوامل النهوض والتربية الصحيحة في الناس ولكن حال دونها ذلك الزمن القديم .

وهل أحدثكم عما سأبحثكم في كتابته هذه من بلاء وتعب . وأنتم تعلمون أن الكتابة في مثل هذا الموضوع العظيم أمر وعمر صعب وعلى جانبيه الاشواك وما هو أكره من الاشواك . ويحتاج إلى الكاتب الماهر الخبير بالمحاسن الذاتية والعيوب الطارئة والعلم بمواضع الخير

ومواضع الشر في صميم الموضوع المعروض .

بل هل أحدكم عن تلكم الأسباب والعلل التي تجعل من مثل هذا الموضوع أمراً صعباً وعراً على جانبيه الاشواك وما هو أكره من الاشواك ؟ وأنتم أدرى الناس بأن تكوين الفكرة أو حل الفكرة حلاً صحيحاً إذا وجدت ، أمر عسير كل العسر بالاضافة إلى العلم بالفكرة الواضحة ثم السير بها في دور العمل والتنفيذ ، لأنه من الجلي إنه ليس تجهيز المائدة بأنواع الطعام كالجلوس إليها لتناول ذلك الطعام .

والامر الالهم الذي أحب أن أحدثكم عنه ، هو أن هذا الاثر الفكري الجديد الذي نعمل على إنتاجه بعون الله تعالى ، سوف ينظر إليه على أنه أثر إسلامي خالد ، فاض ونبع عن عين هذا الدين الحنيف كما سبقين ذلك الشواهد التي ستدعمه بها ، متضمنة لحقائق عالمية كبرى من شأنها أن تزيل غفلة الناس عما جاء به هذا الدين الكريم فيجعلهم في دهشة أى دهشة متعجبين .

وهل يكون ذلك الاثر الذي هذا شأنه إلا أثراً بارزاً وخطيراً وأثراً خارقاً للعادة الجارية بل أثراً ممتازاً موصلاً إلى ما نبتغي من عالم جديد أسمى مستوى وأهدى سبيلاً من هذا العالم الخائر المتداعى ؟ على أنه إذا كان ذلك حقاً ، فيكون أمراً طبعياً أن نجعل يوم ميلاده وخروجه مولوداً سوياً ، عيداً نفرح فيه الفرح العظيم ، نعق فيه ونولم شكرآ وحمدآ ، ونعيذه ونرقيه من شر الخلق وكيد أولئك الذين ختم الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم من أولئك الغافلين عن الحق

الذين أضلهم ذلك الزيف الذى يسمعون ويقرأونه باسم العلم زوراً
وبهتاناً غروراً وهم لا يشعرون .

على أنى وقد حدثتكم عن هذا الحديث أجدى مضطراً . كلا . بل
أجدى فى سعة وحل من أن اتبعه بحديث آخر متمم له ، ذلكم أنكم وقد
قمت بهذه الحركة المباركة وكأختم هذا السكفاح النبيل من أجل قوميتكم
وطنتكم ، بل من أجل مصر العزيزة التى تحوات على أيديكم الميمونة المباركة
إلى مصر الجديدة ، وبالأحرى إلى مصر الصناعية بله الزراعة ، وإذا
أردنا الدقة النامة قلنا إلى مصر الجمهورية المتطلعة إلى العزة الكاملة والسيادة
المطلقة ، أدفع إليكم يا رجالات الثورة ويا بناءة الجمهورية ، بهذا الاثر
الفكرى الجديد الذى أنعم الله تعالى به على ، بعد هذه الحركة الموفقة
والوثبة الناجحة التى قمت بها ، كهديه من باب التكريم والتقدير والتعجيد ،
وأنتم جديرون بكل أولئك ، بعد أن وهبتم حياتكم لله ، وبعتم أنفسكم
وهى غالية وعزيزة عليكم وعلى أهليكم للوطن وجلتم هذه الجولة ،
واكتسبتم ما اكتسبتم لله والوطن .

نعم أننا قدمنا هذا الاثر الخالد هدية لله تعالى من قبل ، ولكن
هذا التقديم لله تعالى أولاً ، لا يمنع أن ندفع به ثانياً كهدية تحمل معنى
التأييد والتعضيد والشعور بحميل خطواتكم السديدة .

وأى مانع يمنع من تقديم الهدية إلى الله العظيم إلى أى كائن بعد الله
تعالى . ونحن مؤمنون بأن الهدية التى لله وحده لا ترفع بذاتها أو بأوراقها
وصفحاتها إن كانت أوراقاً وصفحات منسوخة ، كما نقرأ ذلك المعنى

الحق في القرآن الجليل نردده في ذلك القول الجميل { لن ينال الله لحومها
ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم } ؟

أى مانع إذن يمنع من تقديم هذه الهدية التى باسم الله تعالى مرة أخرى ؟
بل لأنتم بها أحق في هذه المرة وقد توليتم أمر مصر وملكتم زمام
هذه البلدة هذه الأيام الناضرة ، وتلك الفترة العزيزة بل الصافية التى
تجلى فيها الله تعالى على مصر بالنعم العظيمة .

أحق بأن تصل إلى أيديكم هذه الهدية بكل حال للحاجة الشديدة
والرغبة الملحة . وضرورة الاطلاع على المكتوب فيها المبين لتكوين
دعامة من دعائم الإصلاح ، وأصلا من أصول النهضة . هذين الأمرين
الذين لا غنى عنهما لمصر الخالدة في قيامها جمهورية كبرى ترعى العلوم
وتعمل على اطراد تقدمها . وتحافظ على المدنية والحضارة وتقدم
الفنون والعمران . ذلك أن التقدم المادى والاقتصادى فى مصر لا يكفى
لأنه لا بد أن يكون إلى جانبه التقدم الفكرى الحر الذى هو فى حقيقة
الأمر روح التقدم المادى والاقتصادى .

وناهيككم بتقدم مادى واقتصادى . لم يفقد عنصر فيه وهو التقدم
الفكرى ، فكلم لهذا التقدم العظيم المزدوج من آثار جبارة ذات قدرة
عجيبة فى تشكيل الحياة ورقياها وعلوها . وكلم له من مفعول كريم
فى تلطيف شدة الحياة . وتخفيف ما بها من حدة .

هذا ما أردت أن أحدثكم به أنتم الذين أنفذتم مصر ، وكانت على
شفا الهاوية .

وأنتم الذين قفزتم بها قفزة بلغت بها أجماد التاريخ فى لحظات قصيرة .
وأنتم الذين فتحت لها صفحة مجد وغار جديدة فى سجل الامم .

الأمم التي رفعها أبناءها إلى أعلى مكان .
وعسى أن يكون حديثاً هيناً ليناً يذكرنا جميعاً . بما لنا وبما علينا
من مسؤولية ، تلك التي قد تضخمتم وتضاعفت . فقد أصبحت عامة
بعد أن كانت خاصة . وكانت صغرى ثم صارت أكبر مسؤولية الآن
والسلام على من اتبع الهدى ؟

المؤلف

محمد وهيب السرييني

مقدمة وإرشاد

(١) أن هذه الامة من الناس لا تزال في بؤس وشقاء ، وشقاء وبؤس ، أمر دينها أكثر منها في أمر دنياها لما كنا نجري عليه في الزمن السالف بعينه وقريبه ، من حكم مطلق تابع للهوى ودكتاتورية دينية تناهض المفكرين والمصلحين باسم الحق زوراً وبهتاناً إذ يستحيل أن يرضى عنها الحق بأى اسم كان .

بل أن هذه الامة لا تزال خاضعة لهذه الدكتاتورية التي تمتسب إلى الدين ولا تمثل إلا الظلم والطغيان ، حتى تهتدى إلى الحل الذي يرضيها ويصل بها إلى الدرجة التي تريد أن تصل إليها في أمر هذا الدين الكريم وفي أمر هذه الدنيا العزيزة .

أما وأنها قد وجدت بحمد الله تعالى من رجال الجيش من هبأه الله تعالى لها بمن يهديها سواء السبيل ويصل بها إلى ما تبتغي من عز وسؤدد وعيش رغيد ، فعساها أن تجد بإذن الله تعالى في أمر دينها من يسلك بها سبيل الرشد ويصل بها إلى الأمر الحق الذي فيه تقدمها ورفعها على العالمين رفعة بينة لا إلتباس فيها ولا شك .

(٢) على أن العالم الباحث في أمور هذا الدين الحنيف إذا ما أراد أن يطلع على هذا الأزهر الحديث — وهو معقد الرجاء ومناطق الأمل في تخريج هذه الشخصية التي تسلك بهذه الامة سبيل الرشد وتصل بها إلى الأمر الحق الذي فيه تقدمها ورفعها على العالمين — عساه أن يجدها فيه ومن بينه ، لها له ما يرى ، بل لوقف مهوياً الوقت كله من تلك الأحوال العجيبة التي لا زال يجري عليها ذلك الأزهر الحديث ، إذ يرى أنه لا زال يسير على أوضاع القرون الوسطى خلف جماعة من الفقهاء الذين كانوا

خر من خلف الأئمة المجتهدين من يوم أن وجد أولئك الأئمة إلى اليوم ،
يتبع أقوالهم ويقدم فتاويهم مهما ذهب وشطت .

ألم يقل هؤلاء الفقهاء كفى هؤلاء الأئمة المجتهدين من باحثين ثم
في نفس الوقت حرموا الاجتهاد على أنفسهم وحرموه على أبناء هذه
الأمة وقالوا يجب تقليد حبر من هؤلاء الاحبار واتباع إمام منهم
بحيث يحث تارك هذا التقليد وتارك هذا الاتباع إلى البحث وراء هؤلاء
الأئمة المتقدمين ؟

وفي الواقع إن من يرى هذا القول ، بل هذه الاحوال ، يهوله الأمر
ويظل مبهوراً مأخوذاً من هذا الأمر المحزن الأليم . أليس غلقاً في أبواب
الفهم ووضعاً للسلاسل والأغلال في أيدي وأرجل هذه الأمة المخدوعة
باسم الحق وهي لا حول لها ولا قوة ولا اطلاع لها ولا تفكير اللهم
في بعض أبنائها العاملين المجدين ؟

بل أليس ذلك ضللاً وتضييلاً قعد بهذه الأمة البائسة دهرًا طويلاً
عن التقدم ومواصلة البحث وطلب العلوم والحكمة حتى تزداد من العلم
والخير ، والعلم والخير لانهاية لهما فمهما أوتينا منها فأننا نطلب منهما المزيد .
لقد وقفت هذه الأمة بعد أن نكبت بهذه الأقوال والفتاوى تعمل في
حدودها المرسومة على أنها كل شيء ، مقتنعة بأنه إن يفتح الله تعالى بشيء
على أحد من المشتغلين بالعلم والفقہ بعد هؤلاء الأئمة القدامى ، ولكن
هذه الأمة كانت واهمة بل غافلة عن نتيجة ذلك الوقوف فلقد جاء من جاء
من أولياء الأمور الحكام وحدث إنقلاباً في أوضاع القضاء في هذه
الديار بعد أن رأى نقصاً فيها واستقر الأمر على ذلك إلى اليوم .

ثم جاء الاحتلال وجاء الاستعمار وسيطرت هذه الأمم الأوربية
على هذه الأمة وكان ما كان مما سطره التاريخ والتاريخ ويسطره في هذا
الشان العام والخطير والا كبر .

ولكن سيكون أعظم مأسطره ويسطره هذا التاريخ هو بقضة هذه الامة
وانتباها ووعيا الجديد وانحلالها من هذه القيود والاصفاد التي وضعها
هؤلاء الفقهاء في أيديها وأرجلها ، على أثر هذا السقوط في أيدي الاحتلال
والاستعمار الذي جاء بعد أحداث الانقلاب في أوضاع القضاء في هذه
الديار ، كأن هذا الأحداث وهذا الاحتلال والاستعمار كان نعمة
لأنعمة ، ودرسا عظيما أفادنا كثيرا وربانا تربية عميقة لن نساها ،
وإن كان الله تعالى المربي على الحقيقة .

نعم كأن هذا الأحداث وهذا الاحتلال والاستعمار كان نعمة
ودرسا . فما نحن نسعى جهدنا طامعين في أن يعود لنا مجدنا القديم ،
فترى أن ذاك الاحتلال والاستعمار يستجيب لنا ويعود الى بلاده
والى ما هو تابع لتلك البلاد .

وها نحن نغضب ونثور على تلك المناهج والتشريعات التي وضعها
هؤلاء الفقهاء توقف من تقدم من الامة من حيث لا يشعرون ،
وتوجه تفكيرها الى ناحية الشر والفساد ، حيث لا عمل لهؤلاء المتعلمين
ولا تفكير لهم ، مادام قد حيل بينهم وبين البحث ، وحجر على
عقولهم حجرا ، وما دامت قد أصبحت عقلياتهم محدودة بحدود لن
تتعداها أبدا ، إذا ما يكاد هؤلاء المتعلمون يخرجون من معهدهم ودار
تعليمهم بعد أن يكونوا قد أحاطوا بهذه الثقافة المحدودة التي تخصصوا
فيها ، حتى ينطلقوا يفكرون في غيرها من أسباب الفساد ، والفساد
نفسه ، ومن أسباب الشر ، والشر ذاته .

والواقع الذى لا يمكن انكار أنه واقع ، ان ذلك الذى قد وقع لأجدادنا وآبائنا ، انما كان بمجمودهم ووقوفهم هذا الوقوف الذى أنزل الضرر بهم داخلياً ، عقلياً وثقافياً وخلقياً واجتماعياً واقتصادياً ، فإنه لا يستطيع أن يضر بهم أحد ، بل لا يستطيع أن يدخل عليهم الضرر الخارجى . الا أن يكون قد تمكن منهم الضرر الداخلى من أنفسهم ؛ وتسلب بعضهم على بعض ، وظلم بعضهم الآخرين .

فلما جئنا ونظرنا الى أسباب ما نحن فيه من بلاء وعناء ، الى علل ما نقاسى من شدائد وأمراض ، أدركنا تلك الاسباب وأنها راجعة الى ما كان عليه أجدادنا الأولون ، وعرفنا أن تلك العلل عائدة الى عقم التفكير والزهد فيما يجب التنافس فيه ، فجاهدنا ولا نزال نجاهد للخروج من تلك الورطات والمآزق ، فظفرنا بالجهة السياسية حقاً ، والآن فى طريق الظفر بالجهة العلمية والأدبية والأخلاقية عن قريب .

ولنعد إلى أولئك الفقهاء المخلصين إلى هذه المذهبية التى تربوا عليها ونشأوا فى جحرها ، معجبين سكارى بها وبحبها العظيم .

لنعد إلى أولئك الفقهاء . لننعم بالحديث عنهم ان كان فى الحديث عنهم نعيم . بل لنعرف كيف تأثروا وأثروا ؟ وهل . ظلموا أو نحن الظالمون لأنفسنا ؟

والواقع أن المدقق المحقق ، إذا نظر فى أحوال وأقوال وأئمة الفقهاء الذين كانوا الواسطة بين هؤلاء الأئمة المجتهدين الأعلام وبيننا أبناء هذا الأزهر الحديث : يجد أن ظروف هؤلاء القوم هى التى أوجت

إليهم بما قالو وبما فعلوا . ذلك أنهم خلفوا أوائلك الأئمة الأعلام عقب
مما تم وابتدأت هذه الخلافة جملة في العصر الثاني للدولة العباسية وهو
عصر أفول وتقهقر وتأخر وضعف وهرج وانحلال فلم تستطع
عقلياتهم أن تجول وتسبح في عالم الفكر والملوكوت وفي روضات المعرفة
في هذا الوقت الذي انحطت فيه الدولة وساء فيه الحكم واختلت فيه
السياسة ، ورضوا مسرورين أن يصلوا إلى ما يريدون من علم وأحكام
عن طريق هؤلاء الأئمة السابقين أصحاب الرأي والاجتهاد ،

وانه من غير أدنى لبس أن هؤلاء الفقهاء التابعين كانوا على شيء
من الحق إذ قرروا إنه لا رأى ولا اجتهاد بعد هذه المذهبية الرباعية ،
لأنهم رأوا ما أصحاب بعض أئمتهم الكبار من عدوان مجرم واضطهاد
رهيب على أيدي بعض الخلفاء العباسيين . وأين هي الحرية الشخصية إذا
اعتدى على إمام من الأئمة الأعلام ؟ وأين هي حرية الرأي إذا اضطهد
إمام حين أبدى رأيه الحر الطليق ؟

انه يجدر اذن قفل باب الاجتهاد مع الاخلاص لهؤلاء الأئمة
الذين عذب منهم من عذب في سبيل الله تعالى والعلم والوطنية على أن
يكون برهان ذلك الاخلاص لهؤلاء العلماء الأحرار الذين استشهد
بعضهم بكل أنواع الاستشهاد . واستشهد بعضهم الآخر في طريق البحث
والاستنباط والاستخراج والرواية والنقل ، هو اتباع مذهبهم ونشرها
وتناقلها بجميع طرق النقل . حتى يحفظ ذلك التراث الفكري الخالد .
ولا تضيع تلك الثروة الفقهية العظيمة - لكي يهتدى ويسير على نظمها

من يخلفهم من أشبال هذه الأمة وفتيانها من أهل العزم والإرادة ،
وينسج على منوالها من وجد في نفسه المقدرة على الفقه والعمل الصالح .
ولكن هذا الشيء من الحق الذي كان عليه الفقهاء ، لا يكفي أن يكون
مستنداً لهم في العمل على وقف انتاج هذا الفكر الاسلامي إذ أنه
كان يمكن لهم أن يحققوا أغراضهم ويخدموا من يخدمون مع قيام ذلك
الفكر الاسلامي بواجبه من النظر والتقدم في عالم الأبحاث ،

ومن العدل أن يقال ، حتى بالنسبة إلى عصورهم الماضية التي انحط
فيها الفكر والتفكير ، انه لا يصح أن يمنعوا أي عقل من طلب العلم
واكتساب المعرفة واكتشاف ما يقدر عليه من نقط هامة وأمور دقيقة
ونظريات سامية في جميع شتى النواحي الفكرية بأسلوبه وفنه الخاص ، فلقد
كان هذا المنع جناية أي جناية على المسلمين وعلى مستقبلهم في كل شيء
فإننا نرى آثار تلك الجناية بينه للعيان في شتى نواحي المسلمين في جميع البلدان
التي بسط عليها ذلك الفقهاء سلطانهم الديني والشرعي ، إذ قد انخفضنا
بينما ارتفع الآخرون ، بما حملنا حملاً على أن نعمل على أن نرتفع حتى
نتساوى والآخرين أو نرتفع حتى القمة كما كان السابقون من أجدادنا
وآبائنا ، قبل أن نرزق بهذه العهود السيئة عهود الفساد والغرور .

على أن الباسا والمنتقب ، إذا ما عرض أحوال وأقوال أولئك
الطبقات الوسطى من الفقهاء ، على هذا الدين أي على أصله وهو الكتاب
العزیز ، وجد أن هؤلاء الفقهاء بتلك الفتوى وهي منع الاجتهاد وتحريم
البحث على من عرف أصول الدين ووصل إلى درجة تؤهله للحكم الصحيح
في الامور الشرعية ، على طرفي نقيض مع العلم الحديث ، وما إدراك ما هو ؟

نعم على طرفي نقيض مع ذلك العلم ، إذ من الثابت أن الأبحاث القديمة ناقصة لم تبلغ درجة الكمال ، لأنه في كل يوم جديد يزداد العلم فيزداد الفهم . ويزداد الفهم فيزداد العلم ، وهكذا دواليك لأنه كلما زاد العلم زاد الفهم . وكلما زاد الفهم زاد العلم إلى أن نصل إلى الكمال في الإثنين العلم والفهم ونكون أمة لها قيمتها العظيمة عند الله تعالى وفي المجتمعات الراقية التي تقدر وتعرف .

هذا علاوة على أن تلك الأبحاث العتيقة لا تخلو من الخطأ الذي يلتبس بها ويختلط الحد الذي أنه يصبح كأنه جزء لا يتجزأ منها فلا يلتفت إليه أحد اللهم إلا بعد مرور زمن طويل .

تلك هي الحقيقة التي لا يتطرق إليها الشك . أن الأبحاث الفقهية القديمة فيها ما فيها من العورات والسيئات ، لأنها شرح بدائي أو كالشرح البدائي قريبة منه ، ودائماً هذه الصفة وهي البدائية أو ما هي كالبداية يلزمها من العيوب والانحراف ما يلزمها . مما يخرج الدين عن حقيقته وجوهره ، والشرح عن مقصده وغايته ، إن لم يكن في كل شيء ، ففي بعض الشيء . مما يفقد الدين والشرح سحر البيان ويسلب عنهما فعل الجاذبية التي تلزم الدين وشرح الدين ، وهي جاذبية الحق والهدى التي تأخذ بمجامع القلوب وتأسر العقول أسراً قوياً شديداً فتسوق الناس إلى ما تريد من أمور فيها الخير لهم وعندئذ ينفذ قضاء الله تعالى ويكون قدره في الأرض كأنناً في العبيد .

ونحن إذا أردنا الإستزادة من الأسباب التي جعلت الأبحاث الفقهية القديمة مشوبة بالعورات وممزجة بالسيئات ، فهل يخفى على أحد

إن هذه الأبحاث قد دخلتها الأهواء والانتصارات الحزبية دخولا جعلها بعيدة عن صفة الحق التي تتسم بها الأبحاث الصحيحة الخالصة؟ إنه لا يغيب عنا التفرق والتشيع في التاريخ الإسلامي وتاريخ الفرق الإسلامية؟ وإذا كان الحق هو ذلك، فكيف يرضى إنسان أن يقدم اقداماً ليأخذ أبحاثاً نقلت إليه على علاتها؟ بل كيف يستطيع لهذه الأبحاث هضماً من تربي تربية عالية وشب على الفحص والتدقيق والفرز وإطالة البحث وإعادة غير مرة.

هذا هو الواجب المقرر، يدعو إلى أن نعطي موضوعات تلك الأبحاث عناية خاصة تنحصر في أن نتناول تلك الموضوعات تناولاً حراً طليقاً فنستقرأ النصوص ونحيط بالظروف، ثم نبتدىء نحكم عليها الحكم الصحيح الدقيق الصائب.

بل إن ارتقاء الوعي والفكر في هذا العصر الراهن يحتم علينا البحث من جديد كي نستخلص أبحاثاً توافق عقلية هذا القرن التقدمية وتسائر النهضة العامة في جميع أنحاء البلاد لاسيما أنه لا يوجد عندنا ما يكون عقبة في هذا السبيل، فإن طبيعة هذا الدين الرقي، ولا بد إذن من أنه سيتجاوب مع ارتقاء الوعي والفكر، إذ أن الرقي يجاوب بعضه بعضاً، وهذا شأن عام للأشياء المتماثلة، وليس في السكون ما يقدر على تجاهل أو انكار هذا الشأن الحق،

(٣) نعم أنه إذا كان ذلك هو حال جماعة الفقهاء الذين يسير من ورائهم هذا الأزهر الجامع، شبراً بشبر وذراعاً بذراع، فإن حال هذا الأزهر هو تلك الحال عينها. فإن ذلك الشبل من ذاك الأسد. الطبع هو الطبع

والعقلية هي العقلية ، والفكرة عندهم هي الفكرة عندهم . صورة طبق الأصل بل صورة قد ورثت وأصبحت منهجاً متبوعاً ، وإلا فن ذا الذي يستطيع أن يفرق بينهما ويزعم أن هؤلاء الفقهاء المتمسكين بمبدأ التقليد شخصية ، وإن هذا الأزهري شخصية أخرى ؟

نعم إننا نستطيع أن نقول إن هؤلاء الفقهاء شخصية وبعض الذين خرجوا من الدراسة في الأزهر وهم الصفوة المختارة والنخبة الممتازة من أبناء هذا المعهد العتيق شخصية أخرى ، ولكن لا أقصدهم في الحديث ، لأنهم قليلون ، ولا ينظر إلا إلى الكثيرين .

ذلك أن الإصلاح يهدف إلى الكثرة المتخلفة لا إلى القلة السابقة . ويتجه إلى الأغلبية التي بقيت على القديم الفاسد إلى الأقلية التي مضت في سبيل الرقي وقطعت شوطاً بعيداً في التقدم ،

يريد الإصلاح أن يجعل من المتأخر إنساناً يسعى ليلحق بالمتقدم ، حتى تصبح البيئة كلها ، في الطليعة وفي الإمام ، وفي مقدمة الناس لا في مؤخرتهم أو في مؤخرة فرقة من الناس فليست المؤخرة إلا نقصاً على أي الحالين يضر بشرف تلك البيئة الضرر البالغ ، ولا شيء أغلى في الحياة من الشرف .

واذن فلا جاهد هؤلاء . فلا جاهدكم في الله تعالى فانهم سيجاهدوني ولكن سيكون جهادهم طيشاً ونزقاً ، لا حكمة ولا روية . أي سيكون ذلك الجهاد باطلاً . ليس فيه شيء من الحق

وسيكون سبيلي في جهادهم أن أسلط عليهم العقل والحكمة ، وإن أسلك سبيل المنطق القويم
وشتان ما بين الجهادين .

سيقولون كما قال إخوانهم السابقون « إن كلام هذا الاستاذ ورأيه إنما هو من باب خائف تعرف ، وليس كلاماً ورأياً صواباً ، ولكن ما أعجب مقالة هؤلاء الناس ! إنها مقالة خالي الذهن من العلم القاصر البحث القليل الفطنة الذى ظل فى غفلة وظلمات وفى أسر التقليد أبداً ، أو كلما جاء أستاذ ليظهر وينظف العقول والافكار ، قلتم ذلك ، وظننتم ظن السوء وبخستم ذلك العالم حقه ، وظننتم أنفسكم ؟

إن مقالكم هذه جائرة ، فإن الباعث الحقيقى على هذا الكلام وهذا الرأى ، ليس خائف تعرف ، وليس حب الظهور وليس حب التناهى والعلو ولكنه خدمة الناس المندرجة فى خدمة الله تعالى أى عبادته تعالى وطاعته ، فلقد خلق الناس للخدمة العامة التى فيها تعمير الكون ، فخصص هذا للعلم والتعليم . وهذا للسياسة والحكم ، وهذا للجندية والحرب ، وهلم جراً ، فلم يكن تخصيص فى الناس بلا تخصص ، إنما تخصص كل أحد بمخصص هو حكمة الله تعالى وإرادة الله العلى ، وكل إنسان ميسر لما خلق من أجله .

على أنه إذا كانت هذه المخالفة إنما هى للمعرفة . فأى إنسان يقبل أن يعرف معرفة لا تشرفه ولا تجعله صاحب كرامة ، وذلك إذا كانت معرفته قائمة على المخالفة من أجل الهوى والشهرة وكان ظنكم بمن خالفكم وخالف ما أنتم عليه من مبادئ هو الظن الحق ؟ بل أى قيمة لتلك المعرفة إذا كان صاحبها على ضلال وكان رأيكم هو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين ولا من خلفه ؟

جدير بى وبكم ألا يكون للتهريج بيننا محل ، شأن العلماء الذين رفعهم

الله تعالى بالعلم وفضلهم على الناس ؛ فإن الأمر أمر بحث وتقرير أحكام هامة نحن في أشد الحاجة إليها في هذه الايام ، وفي إصابة أى عالم فيها شرف الآخرين ، لاننا أسرة واحدة ، وقيام واحد منا بواجبه إنما هو قيام بواجب عام ، ونجاح أى فرد منا نجاح للجميع ولا شك ، وهل ينكر أحد ذلك الترابط بين أبناء أسرة واحدة وتأثر كل أحد بالآخرين ؟

على أننا لو سكت كل فرد منا ، لتعرضت جماعتنا للطعن ، واتهمنا من شاء بالغباء والتقصير ، وذلك طبعاً يحط من قدر الجماعة ويزعزع الثقة فيما لها من كفاية ومقدرة علمية ، كما هو حاصل بالفعل ، وها هو بعض الناس يجهر بذلك فى الجرائد والمجلات ، ولكن هيهات أن يردوا عليه ، وإذا ردوا جاء الرد ضعيفاً أى ضعيف .

ومن هنا يظهر ظهوراً بيناً أن ترديد كلمة (خالف تعرف) تهريجاً ، إنما يكون عند الإفلاس والعجز عن الردود على الخصم بطريق المنطق والحجة العقلية والنقلية . أى أنه إنما يلجأ إلى التهريج والسب فى الدفاع عن المذهب والرأى إذا لم يوجد ما يدفع به من برهان معقول ولكن ذلك من عمل السفهاء وحدهم وهو لا يليق أن يحدث بين عالم وعالم . على أن حدة ذلك التهريج وتلك السفاهة قد خفت شيئاً فشيئاً بعد أن غزا السيد جمال الدين الافغانى مصر ، وبعد أن انتصر تلميذه محمد عبده على خصمه من الازهريين السابقين ، وبعد أن جاء الإمام المراغى وخطا خطوات جريئة فى الإصلاح ، فجزاهم الله تعالى عن هذه الامة خير الجزاء .

ومهما يكن من شيء فعقلية رجال الدين هي في كل زمان ومكان
وملة ونحلة، ثابتة مكانها جامدة إلا من رحم الله تعالى، فلا يزال يرى
جلهم يكرهون العقلية الباحثة ذات الملسكة وذات الحاسة القادرة على
الخلق والابتكار والتجديد والاستنباط. ويكادون يسكونون متفقين
على مبدأ مشترك، هو الخضوع والتسليم بدون حساب لهؤلاء الأئمة
المتفرقين في الدين، معتقدين أن الشريعة تمت شرحاً بكلماتهم وأن الدين
كامل بأبحاثهم، وليس لأحد إلا اتباعهم وطاعتهم.

ولكن هذه الحال إنما تكون، وهذا التشريع إنما يحدث متى وجد
الضعف في الشخصية وصار البحث الفقهي لا يقوى على الجدل والحلول،
فمتى وجد ذلك الضعف في الشخصية وفي البحث في الدين كانت تلك الحال
هي النتيجة المحتوية وكان ذلك التشريع هي النتيجة الثانية لحماية وحفظ
ذلك البحث من الأعراض عنه أو البطلان. ثم كانت عاقبة ذلك هو
تأخر الأمم والشعوب ومرور العمر في وهم وأحلام، وآخرة النتائج
هي خسران مبين.

ولكن الحقيقة أقولها مخلصاً لوجه الله تعالى أن هذه المراكز
اللاهوتية لا يصلح لها إلا الشخصية المتقدمة الناهضة وإلا العاصر ذات
الذكاء والفطنة والنبل والجرأة.

وأن هذا البلد لن يدفع إلى الأمام إلا إذا تغيرت عقليته وأقبل
على حياة جديدة عمادها البحث الحر الطاق فإن البحث يرقى كلما ارتقى
الزمن، ولا شك أن هذا الزمن أرقى من ذلك الزمن السابق إذ للرقى
العام أثر في الرقى الخاص، فإذا ما شرعنا في البحث من جديد وإعادة

التفكير فيما كتبه من سبق من الكتاب فلا شك أننا سننصل بإذن الله تعالى إلى نتائج عظيمة الدهشة والاثار بليغة المعنى وفي منتهى الروعة ، ومن أبدع ما يكون في هذا الكون العظيم سوف تفيدنا وتفيد من سوانا من الناس على حد سواء .

حقاً إن هذه المرا كز اللاهوتية لا يصلح لها إلا الشخصية المتقدمة العالية النظر والفكر والخلق ، وأننا ان ندفع إلى الامام إلا بهذه الوسيلة وهى تغيير هذه العقلية والإقبال على حياة عمادها البحث الحر الطليق لنقدم إلى العالم خدمة باقية خالدة .

ولكن هل فكر أحد في تطبيق هذه الحقيقة المخلصة لوجه الله تعالى تمشياً مع العدالة ورغبة في الاندفاع في السير إلى الامام وتحقيق الخير العام ؟

الحقيقة التى تتمثل أمامنا أن التفكير في هذا المعنى اليوم بعد عهد الثورة وقيام الحكومة الجمهورية في هذا البلد أصبح جزء لا يتجزأ من سياسة هذا العهد الفقى الذى يعنى إنقاذ هذا البلد الإنقاذ التام أولاً وقبل كل شىء برغم ما كان عليه العمل فى ذلك العهد البائد الذى كنا نتطلع إليه وننظر فنرى أولئك الطواغيت بعضهم أولياء بعض ونرى هؤلاء الظالمين بعضهم لبعض ظهير ، يدفع الواحد منهم ما فى يده للآخر ويورث بعضهم ببعض الوظائف والمناصب . ويحارب كل اتجاه إلى الامام وإقبال على حياة فيها إسعاد وتقدم لهذا البلد العظيم .

وبرغم كره العامة من رجال الدين لهذه الخطوات الإصلاحية الهامة ودأبهم على اتهام المخلصين لدينهم ولا متهم بهذا الاتهام المأثور الحقير الواهى ، وهو (خالف تعرف) دون نظر إلى شخصية هؤلاء

المتهمين وإلى علمهم وخلقهم وجهادهم وبذلهم في سبيل العلم كل غال ونفيس .
وحسبنا ذلك من هذا العهد الجليل المبارك بل حسبهم بذلك من
شرف وحسن سياسية .

ولكن لنذكر أولئك الطواغيت الظالمين من رجال العهد البائد
لنعرف أنهم لم يكونوا على شيء . ومن أجل ذلك بادوا وبادت دولتهم .

ولنذكر أولئك العامة من رجال الدين لنظهر للناس أن علمهم جله
نقل متناقض ، وقلما يصيبون الحق فيه ، بل قلما يدرون من أمره
شيئاً ، فكثيراً ما نرى الناقلين ينقلون ولا يفقهون شيئاً ، وإليك
هؤلاء العامة مثلاً يؤمنون ولكن لا يفقهون ما يؤمنون به إلا قليلاً ؟
ولو أنهم عرفوا ذلك على وجه التمام لامكنهم أن يدركوا قيمة أنفسهم
ويعرفوا أن حظهم من العلم قليل ، ولكن يجب أن يشعروا فوق ذلك
بأن من العلماء من يغار على دينه ويغضب من أجله ، فيكافح ويناضل
ويخالف من يخالف مادام قد لاحظ عليه أنه قد جافى الحق وجانب
الصواب ، وهذا الخلاف واجب إذن ، لأن السكوت في هذه الحال
ضرر أي ضرر ، وفي الضرر إثم عظيم إذا كان في حق الأمة ، وذلك
لأن الضرر العام يكبر إثمه ، إلى حد أن يكون ككبيرة الكبائر . على أن
هذا الخلاف قد يتبعه ويعقبه أن يشتهر صاحبه ويعرف بين الناس ،
ولكن ذلك أمر طبيعي لا كلفة فيه ، لأنه مادام العالم يجاهد فلا بد أن
ينتصر ، والنصر لا بد أن يذاع وينشر سنة الله تعالى في الناس « ولن
تجد لسنة تبديلاً » .

وهكذا المجاهد يصبح عظيماً معروفاً بين الناس ، إذا جاهد الباطل

بدون محاباة ولا خوف ، وبدون طمع في مغنم من مغنم الدنيا ، أو خشية من أذى الجاهلين .

بل يصبح علماً من الاعلام كما هي سنة الاجتماع ، وكما هو قانون النشوء والارتقاء والتطور إلى حد العظمة والعظمة ، وهذا جزاء العاملين .

غير أن هذه المعرفة لا يؤاخذ عليها المرء إلا إذا كانت معرفة سوء ، وكان صاحبها المثل السوء لا المثل الصالح ، ومن من العلماء الذين أخلصوا لله تعالى يرضى أن يعرض نفسه للؤاخذة في معرفة تضر ولا تنفع ، بل من من أولئك العلماء يحب أن يخالف الحق في مخالفته لأئمة فضلاء ، ويطلب أن يشتهر ويعرف ، دون أن يطلب ابتغاء مرضاة ربه العظيم والحال أن مخالفة الحق اثم ، وطلب الشهرة ومعرفة الناس دون مرضاة الله تعالى في الأعمال الصالحات محبط للأجر والثواب ولا شك ؟ وهل يسعى إلى الإثم إلا من سفه نفسه ؟ وهل يسير في طريق الرياء إلا القوم الفاسقون ؟

أليس الرياء هو التظاهر بمظهر المجاهدين المكافئين ، دون أن يكون ذلك هو الحقيقة . وهل الفاسقون إلا كذلك ، بل هل الفسق إلا هذا الخداع والكذب ، وهذا الجهل والضلال .

وأنها الحقيقة الواقعة أن عامة رجال الدين قد أساءوا إلى الدين بهذه الأخلاق ، بل بمحاربتهم المثل العليا في الدين وتعطيلهم لما شرعه الله تعالى من حرية العقل وحرية الرأي في الحدود المعقولة من أجل ما شرعوه هم من أتباع للسلادة السالفين اتباعاً أعمى أو مبصراً ، أى على أى حال ، وضربهم المثل السوء للناس بهذا التقليد مع عدم المعارضة وإلغاء العقل

المجدد والمصلح ، ولكن من أين لهم هذا العمل ، بل من أين لهم إباحة هذا الفعل ؟ بل من أين لهم السند الشرعى على هذه التقاليد المسنونة ظلماً وبغياً بغير الحق ؟ إن الأمر لا يخرج عن أن كل طبقة وطائفة من هؤلاء الرجال المشتغلين بالدين تقع فيما وقعت فيه أختها السابقة ، وهذه هى سنة الاجتماع وسنة التطور من أعلى إلى أسفل ، فما من نبي ورسول إلا أخذ أتباعه فى النزول والهبوط بعد أن تمضى فترة من الزمن أى بعد أن يطول الأمر . وكأن أولئك الرجال أصحاب فكرة واحدة وذوو مبدأ واحد ، هو الجود والحرص على التمسك بالشائع الموروث ولو كان فيه من الخطأ ما فيه .

ولكن إذا مشت على هذه الطريقة رجال الأديان القديمة ، فلا يجوز أن يمشى عليها رجال الإسلام ، نظراً لاتساع أفق العقل البشرى فى هذه الأيام وازدياد الفكر من العلم والمعرفة التى تهدى الناظرين . وعلاوة على ذلك المعنى ، فإن الأديان القديمة وإن كان الجود وسخف التفكير كان عاملاً من عوامل القضاء عليها وضياع معناها الاصيل ، فإن الله تعالى كان يبعث فى أثر كل رسول ونبي رسولا ونبياً يحدد ذلك الدين ويكرر معناها للناس .

ولكن لما كان الإسلام هو خاتمة الأديان اقتضى ذلك بالطبع أن يقيض له بين كل فترة وفترة علماء مصلحون مجددون واحداً أو أكثر من واحد ، وهو المعنى فى الحديث الشريف « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » ومن فى هذا الحديث العظيم

اسم موصول تصدق على القليل والكثير والواحد والجماعة ، والمشاهد في المجتمع هو الحالان لا حالا دون حال .

وإذن لم يكن بد لهذه الأمة الكريمة من أن تلتمس أولئك المصلحين والمجددين من أبنائها كل فترة من الزمن ليجددوا لها أمر دينها ويظهرونها على الدين كله وذلك بتخليصه من الآراء الباطلة ، وتنقيته من البدع والخرافات ووضعها في أسلوب قوى أخاذ جميل .

ولكن هل تنهت هذه الأمة إلى هذا المعنى الخاص بها دون بقيمة الأمم السابقة كما أشار إليه الحديث الشريف حيث قال : إن الله يبعث لهذه الأمة ، ؟

يوسفنى ثم يوسفنى أنها لم تنبه إليه من قبل ، ولهذا ذهبت لتحارب المصلحين والمجددين من أبناء الإسلام ، وتقف في سبيل إصلاحهم وتجديدهم وتجهل عليهم الجمل الشائن الذى لا يليق بدلا من أن تبتهج ونسر بهؤلاء البررة فتقيم لهم الاحتفالات وتسكرمهم التسكريم الشامل إن كان ذلك في المستطاع .

من أجل ذلك دخل الفساد على هذه الأمة ودب إليها كما حدث في هذه الأمم الأخرى فأصبحت لا تفرق ولا تتميز في الخلق عنهم ، بل ربما زادت نظراً لأن فيهم مصلحين ومجددين قاموا لعدة عوالم لينقذوا أممهم من الجود والضعف ، وإن كانوا ليسوا من رجال الدين بل رجال العلم ، ورجال العلم قد يصلون بأبحاثهم إلى ما يريد لهم الدين . وأننا وإن كنا قد جرينا على سنتهم وطريقتهم إلا أن حظنا في هذا

المعنى لا يزال قليلا مع الأسف ، ومن أجل ذلك زدنا عليهم في الفساد ،
ولكن في بعض النواحي الأمر الذي يخفف الأسف الذي عندنا .
إذن يتبين لنا من ذلك أن حياة هذه الأمة وحياة دينها المفدى
موقوفتان على تجديد الإسلام وعلى الإصلاح في شؤونه المختلفة ،
وها هو قوله تعالى : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق »
يزيدك تأكيداً في الأمر .

ثم ها هو قوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول أو نبي إلا إذا تمنى
ألقى الشيطان في أمنيه فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله
عليم حكيم » ، يزيد الأمر تأكيداً .

نعم هذا القول وهذا القول يزيداننا تأكيداً ، ويزيدان الأمر
تأكيداً فإنهما بمعنى الحديث الشريف (إن الله يبعث لهذه الأمة على
رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها) . إذ أن هذا القول الأول
وهذا القول الثاني حكمهما عام لا تقييد فيه ولا تخصيص فيه بزمن معلوم
أو مكان معلوم أو أناس معلومين .

وإذن فلنستمع ولنطع لهذا التجديد والإصلاح مادام فيهما حياة
الدين وحياة الأمة ، ولا نستمتع ولا نطيع لهذا التقليد وهذه القناعة
هذين الأمرين اللذين لازال يدعو إليهما أذئاب أولئك الأئمة من الفقهاء
الذين كانوا أدنى منهم مرتبة وفهماً وكياسة ، فإن هؤلاء الفقهاء كانوا
يدعون إلى خطأ جلي ، بل إلى دين وضعي يخالف هذا الدين الذي نزل على
محمد صلى الله عليه وسلم وهم لا يشعرون . فإنهم يقولون لا اجتهد بعد هؤلاء
الأئمة ، ودين محمد صلى الله عليه وسلم يقول بأن هذا الاجتهاد جارٍ

على رأس كل مئة سنة قبل تمام المائة أو بعدم تمام المائة .

هذا بالإضافة إلى أنهم يقولون فلان هذا خاتمة المحققين ، وفلان هذا خاتمة العارفين ، كأن الفقه قد انتهى عهده ، وكأن الاجتهاد قد فرغ منه ، فصار لا فقه ولا اجتهاد بعد فلان وفلان ، وكأنه محمد رسول الله خاتم النبيين فلا نبوة بعده .

والواقع أنه ليس هناك خاتمة المحققين ، كما أنه ليس هناك خاتمة العارفين ، والتحقيق والمعرفة لا ينهيان إلا عند قيام أشرط الساعة ومجيء علامات القيامة ، إذ ذاك يقبض الله تعالى العلم ، وقبض العلم إنما هو بقبض العلماء حينئذ . فانظر كثيراً أو قليلاً إلى ما يقولون . وهل يتفق ذلك القول وروح هذا الدين العظيم وتاريخه الغنى بأروع الأمثال وأحسن القصص الذي ينهج بالعالم المنهج القويم في الاجتهاد في حل الأمور واستخراج الأحكام الموافقة للصواب ؟

(٤) والآن وقد حصص الحق ، وانكشف الغطاء ، وانقشعت سحب ذلك الباطل ، أنادى في مصر ، بل في أرجاء الوادى وفي فم الدنيا ، بأن يترك الباحثون من العلماء وشأنهم ، يحاولون ما يحاولون من الوصول إلى الحقيقة ليسعدوا وتسعد بهم أوطانهم ويسعد بهم العالم . ويجاهدون في سبيل الله تعالى وفي سبيل الناس ليقفوا على مراد الله تعالى أولاً ، ثم يبينونه للناس ثانياً ، فيكونوا رسل خير وهمزات وصل كريمة بين الله والناس .

وهذا بدون شك أوجه غاية وأشرف مقصد ، بل ذلك هو وظيفة العلماء ، فإذا حلنا بينهم وبينها فقد عطلنا في الأمة مهنة هي أشرف

المهن ، وهى التفكير الحر . وقضينا على أنفسنا بالوقوف بيننا غيرنا من الناس فى تفكير مستمر ، بل وفى تنافس قوى فى هذه الجهة العليا وهى جهة العقل الذى شرفه الله على كل مخلوق . وهل أحد يرضى لنفسه بأن يكون أدنى من الناس ؟ مع أن ذلك التوازن بين الناس والتعادل والرجحان عليهم أمر جميل فى نفسه مرغوب فيه ؟ وهو ما يوجب له التنافس المفروض على المسلمين قاطبة ، الذى يوجب مبدء العزة وحب السيادة الغريزى فى كل إنسان كائن من الناس ؟

على أنى إذا كنت قد ناديت هذا النداء ، فإنى أنادى مرة أخرى على مسمع العالم وبصره بأنه حق علينا أن نغير قوانين الأزهر الحالية وهى من عمل العهد البائد ، التى جعلت منه الحكم الفاصل فيما يصدر عن العلماء من إنتاج يتعلق بأمر من أمور الدين الحنيف . فإن هذه القوانين ما وضعت إلا لخدمة السياسة الاستعمارية والملكية فى مصر . التى كان من مصلحتها ألا تتقدم مصر وأن تظل ترسف فى قيود الجهل والفقر والمرض . هذا فوق خدمة الأزهر والمحافظة على كيانه القديم حتى يتمكن أولئك المشيخوا من خدمة أنفسهم والمحافظة على كيانهم القديم المتداعى .

هذا هو الحق بل الحق المبين . وإن كان يزعم هؤلاء وهؤلاء أنها — أى تلك القوانين — ما وضعت إلا لخدمة الدين والمحافظة على روحه وقالبه ، فإن خدمة هذا الدين والمحافظة على روحه وقالبه . سبيلها فى إقامة الحد على المرتد واعتباره عدواً للأمة كما هو معلوم من الدين بالضرورة .

ومن هذا السبيل محاربة تلك الأديان المحدثّة الجديدة كالبهائية بأن
تجادلهم الجدال الجميل ، فنطالبهم بالبرهان والحجة التي تؤيد قولهم إذ
أنه لا بد لكل نبي أن يظهر آية من الآيات التي تدل على صدقه وتثبت
دعواه ، ولكن هل تتطور تلك المحاربة ؟ ذلك هو ما استبعده .

على أن أكبر شيء في ذلك السبيل هو ذلك الأمر الجليل وذلك الشيء الخطير
ألا وهو الاجتهاد في الدين ، أي الاجتهاد في بيانه ، والعمل على ظهوره
بيانا يرفعه عند كل الناس ، وظهوراً يجعله فوق الدين كله . والدين في
حاجة قصوى إلى ذلك الاجتهاد بل إلى ذلك البيان وذاك الظهور .
لأنه لا تزال هناك صفحات مطوية فيه لم تنشر . ولا ينشرها إلا
الباحثون المنقبون . الذين آثروا الاجتهاد في سبيل الله تعالى على الراحة
في سبيل غير الله تعالى .

ولكن ما أشد حاجة الناس إلى ذلك الاجتهاد وذلك البحث الشاق
في هذه الناحية ناحية الدين التي تستلزم البحث في هاتين الناحيتين الكبيرتين
الآفاق والنفوس . ليكشف الناس الغطاء عن أسرار المعاني الكونية
والنفسية ، وإن كان كشفاً سيستمر على مدى الدهر ، ويحصل في كل يوم
وفي كل شهر وفي كل عام وفي كل عصر ولن يقف عند حد ولن ينقطع في زمن
من الأزمان إلا ليقوم من جديد فهو لاء المجتهدون يأتون طبقة بعد طبقة
وواحد إثر واحد يفسكرون بشق الوسائل ويفتشون عن الحقائق وكل
واحد من أولئك القوم هو ونصيبه وحظه المقسوم له عند الله سبحانه
وتعالى ، فإما أن يتفق مع من سبقه ، وإما أن يختلف معهم حسبما يسوقه
الدليل وتهديه الحجة . وهكذا كان حال الأئمة الأربعة . يتفق مالك

مع أبي حنيفة تارة ويختلف تارة أخرى ، ويتفق الشافعي مع مالك ويختلف معه ، ويتفق ابن حنبل مع الشافعي في بعض الامور ثم يختلف معه في الاخرى . وبهذا قد حققوا لامتهم والعالم الشيء الكثير من الابحاث . وهكذا يفعل بل هكذا يكون أثر الاجتهاد الحر الطليق .

هذا هو السبيل إلى خدمة الدين والمحافظة على روحه وقالبه . وليس فيها ما يؤيد ذلك القانون . ولا ما يدل على مشروعية ذلك القانون . فما قولهم إذن ؟

سيقولون ، أنه قد جاء في النصوص الإسلامية ، من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإذا لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان .

ونحن نقول لهم إذن . إن التغيير باليد أو باللسان أو بالقلب كل هؤلاء الثلاثة إنما يكون التغيير بواحد منها تأدية للواجب ولوظيفته بعد أن يثبت أن أمامه أمراً منكراً وزوراً في الواقع . ولكن لن يثبت ذلك الحكم ، إلا بحكم الدين وحكم العقل ، وما لم يكن حكم قاطع من الدين والعقل بثبوت هذا المنكر والزور . فلا شيء من ذلك التغيير يصح أن يكون .

وهل في استطاعتكم إثبات أن مخالفة مذاهبكم أمر منكراً وأمر زور ؟ أظن أن ذلك غير مستطاع ، وليس في مقدوركم ذلك اللهم في أحوال قليلة .

على أنكم لو استطعتم إثبات أن هذه المخالفة منكراً وزوراً صار في مقدوركم بيان أنها باطل ، فلماذا ترك أهل كل مذهب من مذاهبكم تلك

المذاهب الأخرى تعيش إلى جوار ذلك المذهب الذى اختاروه ؟ لماذا ؟
 الأمر واضح غاية الوضوح وهو أن هذا الدين يرى أن الأئمة
 المجتهدين حرمة خاصة ومعاملة ممتازة تخالف ما هو ثابت للذين دونهم
 فى الدين من العامة والجهلاء . فإن الأئمة المجتهدين من أصحاب الرأى وهم
 فى نفس الوقت مأجورون على تكوين آرائهم بعد الاجتهاد والنظر
 الصحيح والأخذ بأسباب العلم ووسائله الصحيحة ، سواء أصابت تلك
 الآراء أو أخطأت . فلمن أصاب منهم أجران نظير اجتهاده ونظير
 إصابته ، ولمن أخطأ منهم أجر واحد نظير اجتهاده فحسب دون أصابته التى
 لم يصل إليها ، وذلك تعويض منه سبحانه وتعالى على وقته الذى صرفه
 فى سبيله وابتغاء رضائه دون نتيجة مرضية ، مادام الله تعالى قد أمر بهذا
 الاجتهاد وقام به العالم ، وليس كذلك غير الأئمة من سواد الناس .

إذن العالم المجتهد له حكم ، وباقى الناس لها حكم ، وما جاء فى تلك
 النصوص الإسلامية من ذلك الحديث (من رأى منكم منكراً فليغيره
 بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف
 الإيمان) حتى بعد أن يشهد ذلك المنكر الذى ينبغى أن ندفعه ، إنما
 هو عام قد خصص بذلك الحديث (إذا اجتهد العالم وأخطأ فله أجر
 وإن أصاب فله أجران) وما دام العالم المخطئ له أجر وليس عليه
 جناح فيجب أن ندفعه بالتى هى أحسن ، بالحكمة والموعظة الحسنة
 والجدل برفق وعطف ومودة وإخاء ، وذلك توقير للعالم وتعظيم له وهو
 الذى وقره الله تعالى وعظمه بأن منحه هذا الأجر وهو مخطئ ووهبه
 جزاء تفرغه له فى حين أنه لم يصب . وإسكنه قد يكون قد قارب الحق

وأوشك على الإصابة . وفي مرة أخرى قد يصيب ، لأن الإصابة قد لا تأتي مرة . بل تأتي بالتدريج واحدة واحدة خطوة خطوة . وها هو الشافعي قد وضع آراء في العراق ثم استبدلها بأخرى في مصر .

إذن العلم والبحث والاجتهاد له تشريع خاص يحفظ على العالم كرامته وحرمة . وأى تشريع يحفظ على العالم كرامته وحرمة أعظم من تشريع يقول إن العالم الذى لم يصب المقصد الحق لا جناح عليه ولا حرج ولا إثم . ألسنا نقرأ الآية الكريمة (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) وألسنا نذكر الحديث (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) .

ليت شعرى إلى متى نظل نجهل قدر العالم ، ونضطهده اضطهاداً ظاهراً وخفياً إذا أراد البحث والتفكير وحاول الإصلاح والتجديد ، وخرج أو خالف أحداً من الائمة كرهاً منه لأنه لم يرد ذلك الخروج لذات الخروج أو المخالفة لذات المخالفة إنما هو عمل الدليل وما أدراك ما الدليل ؟ بل إلى متى نظل نحكم على من يحاول الاجتهاد والبحث الحر عن جدارة بأنه قد أجرم وأذنب وهو لم يفعل غير ما أمر الله تعالى به من الإصلاح في الأرض بعد فسادها والقيام بتجديد دينه بعد أن رأى معاول الهدم قد سلطت عليه تسليطات في غفلة القوم ؟ أنها قسوة وإسراف . ولماذا يقسو بعضنا على بعض في الحكم ويسرف في الاتهام وليس وراء ذلك إلا الكراهية والطبيعة اللتان نهانا الله تعالى عنهما وعن كل ما يدعو إليهما من أعمال ، لما ينبجم عنهما من تفرق وتحزب وتخاذل في المجتمع الواحد .

أن علمينا أن نتذكر أن الإسلام قد جعل للمفكرين حصانة تفوق
أى حصانة فى الأرض .

وأن علمينا أن نتدبر ذلك السؤال المتواضع وهو ماذا يكون حال
أولئك الذين يتجبرون فى الأرض بغير الحق ، مع هؤلاء المفكرين
المجاهدين الأحرار لو لم يجعل هذا الدين لهم تلك الحصانة الكبرى ؟
فإننا لو تدبرنا ذلك السؤال المتواضع لوصل بنا هذا التدبر إلى
حسن التفاهم المطلوب .

نعم لوصل بنا ذلك التدبر إلى حسن التفاهم المطلوب ، فإن السؤالات
تفتح العقول والقلوب من غير أدنى ريب ، وأن تفاوت ذلك الفتح
بالنسبة إلى الأفراد والجماعات ، كما هو مقرر فى قواعد التربية عامة
قديمة أو حديثة .

ولا نريد لها الآن أن تفتح على شىء أكثر من ذلك المعنى الكريم
وهو أن الفارق بين اجتهاد العالم وبين غيره من الأعمال الأخرى
فارق عظيم .

وأن الهمجية والفوضى فى عدم التفريق بين هذا العمل وذاك العمل
الآخر ، وفى عدم قيام ذلك الفارق الذى أقامه الله تعالى .

وفى هذه الهمجية والفوضى يكمن المعنى فى تدهور عقول هذه الأمة
وسوء أخلاقها وعيشها بل سوء مصيرها ، بل حتفها .

ومن أجل ذلك تجلت ، بل تجلت التجلى التام حكمة الله تعالى فى تحريمه
سياسة القوة فى ميدان العلم والبحث عن المعانى السامية والمثل العليا ،
وفى تشريعه ذلك التشريع القوى التأثير فى تقدم الأمة ورفقها ، وهو

حصانة العلماء في ميدان العلم والبحث تلك الحصانة التي يجهلها حتى العلماء في هذا البلد الامين حتى صاروا يخوضون ويتخبطون في قوانينهم الخاصة بهم خبط عشواء ، ظانين انها من التقوى والدين مع أنها من الفسق والزور .

وهل يوجد فسق وزور أكبر من العبث بحقوق العلماء . وأى عبث أكبر من سلب تلك الحصانة العلمية التي خولها لهم الله سبحانه وتعالى ؟ وأى عدوان على الدين أكبر من هذا العدوان ، وهو سلب ما خوله للعلماء من الحصانة ؟ في حين أن تلك الحصانة ما شرعت إلا لحماية الدين من العدوان عليه بالبدع والخرافات وسوء الفهم وقلة الفقه .

ليت شعري لو يفقهون لارتقت لدينا الابحاث الكبرى ، وهي الابحاث في الله تعالى وفي تشريع الله تعالى ، وإذن لكان لنا معشر العلماء ، والمفكرين منا خاصة ، شأن غير هذا الشأن المعهود المعروف من التوقير والتجهد ، والجاه والتأثير ، فنصبح بذلك في الوضع الطبيعي الذي وضعنا الله تعالى إياه .

وأنه لجدير بنا أن نجاهد حتى نصل إلى ذلك الوضع الطبيعي الجميل فإن ذلك الوضع المقلوب قبيح أى منكرو ومن اللازم أن يغير المنسكرو باليد أو اللسان أو القلب كما مر في الحديث الشريف .

ومن يا ترى هو الاولى واللاحق أن يحارب في خلقه ، ويزحزح عن رأيه ، أو أولئك الجامدون القساة المتعسفين ، الذين يطالبونها عوجاً ، أو أولئك الذين خشعوا لربهم وآمنوا بضرورة البحث وتقليب أوجه الرأي وما تحمله النصوص لعلمهم يرجعون الوضع إلى ما كان عليه في

مبدأ الامر ، وعسى أن يجدوا مخرجاً لهذه الامة من الخيرة التى صارت إليها ، بعد أن ارتقت الحياة وتخلف الدين عن ذلك الرقى ، أستغفر الله ، بل وتخلف العقل الدينى الحالى ووقف ذلك الموقف الشاذ وحيداً فلا استطاع أن يرد الناس إلى الدين كما يزعم ، ولا استطاع أن يفكر وينظر حتى يوفق بين الدين والناس ؟

إننا إن طلبنا ذلك الحكم العادل الصحيح ، فلنعلم أن هذا العقل الدينى الحاضر إن هو فى الحقيقة إلا امتداد للعقل الدينى الماضى ، وإلا فما معنى تلك المواد اللادينية فى قانون ذلك الأزهر ، التى وضعت وضعتاً للارهاب ولحمل النابيين المخلصين من العلماء على الصمت والسكوت ، ولصرفهم إلى ناحية أخرى غير ناحية الإصلاح وتجديد ما تهدم وإقامة ما انقض من بناء ذلك الصرح العالى ، ألا وهو صرح الدين ؟

لقد حمل قانون الأزهر نصوصاً للتتكميل بالاحرار المسلمين من يحملون تلك الاجازات والدرجات العلمية ومحاربة هذه الامة وقتل تفكيرها السليم وطموحها إلى العلا والمجد فأى ذوق من الذواق يسره أن يجد ذلك ، بل أى قانون هذا الذى وضع لجماعة صفتهم دينية بحته ؟ أأعجمى وعربى ! أأسلام وغير أسلام ! كلا ثم كلا . بل أن الصفة الإسلامية ليس لها إلا كل ما هو إسلامى . والهيئة الإسلامية ليس لها إلا ما يناسب تلك الهيئة العليا . لتكون الاجزاء منسجمة والثوب رقعة واحدة . والعنوان والاسم متفقاً مع الباطن ومع المسمى ، لأن ذلك هو قانون الذوق السليم ، بل قانون الجمال والكمال الذى وضعه الله تعالى ليكون سبيل الرقى فى هذه الارض ، وأى الناس لا يجب أن تجمل شخصيته وتكمل شخصيته ، ليكون موقفاً فى الارض ومن السماء .

لقد كان من الضروري أن تنطلق الحريات في هذه البلد ويفتح باب المعارضة بالتى هى أحسن ، فإن انطلاق الحريات المشروعة والمعارضة بالحق والخير يخلق فى الأمة روحاً جديداً ونهضة تفيد الرؤساء قبل أن تفيد المرءوسين ، وتنفع الأمير والعالم النفع العظيم . فإنهم لو أخذوا بما تنتجهم قرائع العقول الناهضة ، وعملوا بما تدركه هذه القلوب من الافهام الناضجة لكانوا هم السابقون الى العمل والسبق الى العمل فضيلة مثل فضيلة السبق الى الفكرة . ولما كان هؤلاء السابقون الى الاخذ والسابقون الى الفكر مشتركون فى الفضل وعلى سواء ، فإن الدال على الخير كفاعله . وفاعله الأمر به إذا كان صاحب سلطان عام كالدال عليه ، بل إن الرؤساء سوف تزيد رياستهم وتتوطد أركانها بهذه الافكار السليمة بل بهذه النهضة الفكرية المباركة ، وليست تلك الامم الغربية إلا مثلاً من أمثلة الاستفادة بهذه السياسة الحكيمة سياسة انطلاق الحريات المشروعة وقيام المعارضة بالدليل والبرهان كما هو مسطور فى آداب البحث والمناظرة ذلك العلم الذى نسيه أولئك العلماء أصحاب فكرة التقليد ونسوا قيمته الكبيرة لأنهم لم يدرسوه إلا على أنه علم من علوم المتقدمين الذين كانوا يفكرون ويبحثون وقد انتهى عهد الفكر الحر والبحث الحر .

أى أنه سوف يعود على الحكومات بالخير العظيم انطلاق الحريات والتطاحن والجدل بين أى عالم وعالم أو بين أى عالم وفئة أخرى إذا قام على أساس الرأى بالرأى والحجة بالحجة ، وعالم لعالم أو عالم وشيعته لعالم وشيعته . هذا ينال من أخيه وأخوه ينال منه . وهؤلاء عليهم الدائرة والآخرون لهم الدولة . ثم هى والشعب رقيب وشهيد تنظر

إلى هذا وإلى ذاك ، وإلى هؤلاء وأولئك نظرة الراعى الأب إلى جميع رعيته من غير تفريق أو تحيز ، شاكرة لكل أحد تنافسه في الخير وسعيه إليه ، المخفق تشكره على حبه للخير وجهاده فيه ودفعه أخيه إلى الخير والإقدام ، وغير المخفق وهو ذلك الفائز الذي حاز النصر والتوفيق ، تشكره على حبه للخير وكسبه ذلك العمل المجيد الذي أظهر به الحقيقة سافرة بهذه الصورة الغريبة البعيدة التي عزت علينا في الماضي وأبت أن تظهر نفسها لنا ، إلا على يد ذلك البطل العظيم .

أفلا نذكر أن نهضة اليونان القديمة إنما قامت من ذلك التطاحن والجدل بين المحبين منهم للبحث والعلم وهم أولئك الفلاسفة الأعلام منهم . وأفلا نذكر أن قيام سوق عكاظ في مكة المكرمة ، قد جعل منها سوقاً عظيمة بل مدرسة كبرى للأدب العربي قبل الإسلام .

لست أظن أن أحداً ينكر أن الأمة كالطفل لا تقف على قدميها طرفة واحدة ، بل لا بد لما أنها تخفق مرة ، ثم مرة ، ثم مرة أخرى . ثم تقوى شيئاً فشيئاً على الوقوف ، فإذا نحن الآن قام فريق منا يبحث ويفتش ، يتعثر أحياناً وينهض أحياناً أخرى ويكبو تارة ويقوم أخرى إلى أن يستقر ويثبت على حال ، فهل يضيرنا ذلك في شيء .

هل ذلك يضير الدين في شيء إذا كان البحث والتفتيش في موضوع الدين ؟ أنى مطمئن غاية الطمأنينة إلى أن ذلك ينفع كل النفع ولا يضير مثقال ذرة . لأن الأمة لا زالت في دور التجربة وتلقف العلم والحقائق من أى سبيل ، وهى لا تستطيع أن تبلغ ما تريد إلا إذا صبرت على البحث صبراً طويلاً وتحملت مشاق السبيل بصدر واسع رحب ، وهى

في هذه الشدائد تستفيد وتدرک ما لم تدرکه وهى واقفة فى مقدمة الطرق
تنظر إلى الغادى وإلى الراجع .

وهلا نطمئن إلى قانون الحق والباطل فى هذه الحياة الدنيا .
هلا نطمئن إلى أن الزبد يذهب جفاء ، وأن ما ينفع الناس يمكن
فى الأرض . مهما طال الامد على ذلك الزبد الذى يغطى على المياه
الصالحة التى تنفع الناس .

إنه ينبغى أن نكون على طمأنينة إلى أن البحث والتفتيش عن الحق
نافع ونافع ، وأن صاحبه تحبط كثيراً ، وإن نتج عنه ما ينتج من الظن
الائيم من أولئك الجهلاء بقيمة تحديد البحث وتكرير التفتيش وبحقيقة
ذلك الدين . فإن ذلك التجديد والتكرير لا ينتج لنا بل لا يظهر أمامنا
إلا أحد شيئين : إما جهلاً باطلاً فنزهد فيه ونزدريه ، وإما علماً حقاً
يصبح ملكاً عاماً مشاعاً للجميع .

وإذن يكون انطلاق الحريات ووجود المعارضة بين الباحثين
لا يضعف من السلطان ، بل يزيد السلطان .

وإذن فلنحارب ذلك العقل الدينى الجامد الذق يحجب ويخاف ولا
يتقدم خطوة ما إلى الأمام ، ونعنى بمحاربته محاربته بالدليل والبرهان
حتى نقضى على أوهامه الضائعة فيستسلم ويكون على هدى ونور ، إذ
أننا لا نريد أن نقهره ونهزه وكفى ، فإن ذلك ليس هو الغرض ، إنما
الغرض هو هدايته والاختذ به حتى يقدر على أن يسير مع القافلة فى هذا
العهد الجديد كى نستدرک ما فاتنا ، وإنا لمدرکوه بإذن الله ، والله
مع الصابرين .

على أنه إذا كان ذلك العقل الدينى وهو الذى خلق من ماء
هذا الازهر العتيق . يسعى جاهداً للمحافظة على المذاهب التى اصطبغ
بها هذا العقل بل هذا الازهر من قرابة ألف عام ، ومن أجل حبه
لهذا الدين ، فإنى أطمأنه كل الاطمئنان إلى أنه لا خوف على تلك المذاهب
فهى محفوظة برغم أنف كل إنسان ، ولن تصاب بكساد أو ضياع ،
إذ أنه لا بد أن تقام فى الازهر ، ولو فى مرحلة أو فى مرحلتين من
مراحله الدراسية كأصل من أصول الدراسة وأصل من أصول الأبحاث
التى ينبغى أن يحيط بها ذلك الباحث والمفكر فى ذلك الزمن وما بعد ذلك
الزمن كما تقتضى بذلك أصول البحث والاجتهاد فى العلوم .

على أن حب الدين يقتضى أن ننظر فى الدين أولاً بأول ، لنقتضى
على البدع التى سنهها بعض الفقهاء ، ونظهره من الآراء الدخيلة التى دخلت
أبحاثه فى غفلة الزمن وغفلة أولئك القوامين على الدين أمراء أو علماء ،
ونجعل الدين فوق الجميع فلا مذهب لآى دولة إسلامية إلا الإسلام ،
والإسلام وحده هو المذهب دون التعصب لرأى هذا الإمام أو رأى
ذاك الإمام من أى طائفة وفرقة كانت فى أرض الله تعالى أو أرض
المسلمين ، فىكون لكل معهد أبحاث أو دراسة أن يختار ما شاء من
الكتب ، ولكل أستاذ أن يلقى على تلاميذه بل طلابه ما أراد .

هذه هى أصلح طريقة للمحافظة على تلك المذاهب القديمة التى قد
ثبتت فى هذا الازهر تشبثاً ، وهذا هو معنى حب الدين ، إن أردنا
أن نسير فى طريق الحق والصواب .

لكن أن نحافظ على هذه المذاهب بطريقة ضارة غير مشروعة ،

وهي القضاء على كل ما يختلف معها أو السعى في عرقلة إن لم يكن القضاء بمستطاع فذلك ليس فيه شيء من الخير لهذا الدين .

بل ليس معنى حب الدين أن نحبه حباً أعمى ، وهو حب يكرهه الله تعالى ، وبكرهه العقلاء من الناس ، لأنه لا معنى له إلا إيذاء عبيد الله تعالى بالباطل ، وبالفضاعة هذا الأذى الالائم إن كان واقعاً على عالم أثناء تأدية وظيفته وهي البحث والاجتهاد ، وهو في حماية الله تعالى وتحت رعايته ، وهو متلبس بالحصانة الشرعية التي خلعها الشرع على هؤلاء الأبطال الأحرار ، أولئك الذين تخلصوا من الجهل ويجهادون في سبيل تخليص الناس من ذلك الجهل المزرى بالإنسان من حيث هو إنسان . وكيف نتعرض لهذا العالم وهو الذي لا يدرى أحد مقامه العظيم ، وهو الذي كرمه الله تعالى ووقره توقيراً وميزه على الناس .

أو لسنا نؤمن بهذا المعنى الذي هو من كمال الدين وصحة الدين ؟ بل ألسنا نجده في هذه الآيات من قرآننا ، إنه في تلك الآية الجليلة (تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) من سورة الرحمن ، وفي الآية العظيمة (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) من سورة الحجرات وفي الآية الكريمة (إنما يخشى الله من عباده العلماء) من سورة فاطر . وجميع هذه الآيات تبين أن العالم له الكرامات العالية والكبرى عند الله تعالى ، إذ هي مرتبط بعضها ببعض ومعناها متسلسل ، بل معانيها متكاملة ومسوق بعضها في إثر بعض إلى غرض واحد ونتيجة واحدة ، هي بيان قيمة ذلك العالم الذي منح نفسه لله تعالى ، بل للعلم والفهم ونشر المعرفة الصحيحة على الناس في أي مكان .

على أن كل هذه المعاني تجدها مجمعة في تلك الآية (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولوا الألباب) من سورة الزمر .

فهل تؤمن بهذه الآيات طراً لنؤكد الإيمان آية بعد آية بعد آية ؟
على أننا إذا كنا من المؤمنين فإن هذا الإيمان ليس بكاف ، فهناك في شريعة الدين حب الله تعالى حباً أكبر من كل شيء ، وهذا الحب الأكبر يقتضى منا اتباع هذا الرسول النبي الأمي .

ولا شك أن احترام حرية البحث من القادر عليها من اتباع هذا الرسول ، وتوقير العالم صاحب القلم والفكر من اتباع هذا الرسول ، ولو كان قد أخطأ ، حتى لا تثار الفتن والقلق حول حوله وحتى لا يؤخذ بالشبهات في حال تلبيد الجو بالغيوم والإشاعات ، ولنقرأ جميعاً هذه الآية المجيدة (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) .

فإن هذه الآية في الحقيقة إن هي إلا درس أي درس لأولئك الذين يحبون الله تعالى حباً أعمى ، مع الظلم والجهل فيذهبون للعدوان على العلماء العاملين ، لمآرب شخصية وأغراض سافلة ، وغايات دنيئة ، هي أقدر ما يكون ولا يعلمون أن هؤلاء العلماء الغيورين عالم آخر فوق عالمهم . عالم أرفع ، لأنه عالم مع الله تعالى بالفكر والقلب ، عالم الروح التي عشقت مولاهما عشقاً فصارت لا تفارق ذكره بل ذاته وصفاته وأفعاله ، بل عالم الحب الأكبر ، حب الله تعالى ذي الجلال والإكرام الذي يعيشون في جواره بالروح في أمن وسلام . فلا يؤذون أحداً ولا يريدون أن يؤذيهم أحد ، لأنهم أصبحوا في مقام العبودية الخالصة ، بل أصبحوا من

عبيد الله ، بل من عبيد الرحمن الذين وصلوا إلى تلك الهداية الكبرى ،
(يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) .
سكنت أنفسهم فلم تأمرهم بفسق فسكنوا وأصبحوا من أهل السلام في هذه
الأرض ، بل في هذا الكون الفسيح المديد .

على أننا بعد هذه الجولة الطويلة ، وتلك الصولة القوية والصيحة
المدوية والسياحة العقلية الكاملة ، والتحليق في سماء الفكر الإسلامي
الارستقراطي الرفيع ، بل بعد ذلك البحث المتناهي في الدقة ، ان نتردد
في الحكم على ذلك القانون الذي صنع لهذا الأزهر ممثلاً في جماعة كبار
العلماء التي ابتدعوها ابتداءً ، بالخروج عن هذه الشريعة الإسلامية ،
ليس منها في شيء ، وليست منه في شيء ، أي أن الوحدة بينهما منعدمة
والاتفاق بينهما مفقود . وليس بينهما إلا الخلاف الواسع والتناقض التام .
لكن بقي علينا أن نبحث في ميادين أخرى من أين جاء ذلك القانون
المتعثر التعس ، فقد فشل ذلك القانون أكثر من مرة حينما اخترقوه بل
حينما اخترقوا حكماً مبنيّاً عليه ضد صاحب « أصول الحكم في الإسلام » .
فأعادوا إليه اعتباره بعد حين ، وحينما غلبوا على أمرهم ونجا منهم كتاب
(من هنا نبدأ) وأفلت من أيديهم كارهين ومكرهين بعد أن أصدر
القضاء العادل حكمه بتداول هذا الكتاب الذي يردد في فصل منه
فكرة الكتاب الأول (أصول الحكم في الإسلام) وهي الخلافة
الإسلامية الكبرى .

فلنبحث إذن من أين ياترى جاء ذلك القانون الذي جعلهم أصحاب
سلطان وحكم في غير دائرتهم التي ينبغي ألا يتعدوها وهي أمور التعليم

والدراسة فحسب . عساهم أن يتقنوها وحدها وعساهم أن ينبغوا فيها النبوغ العظيم فيجىء فهمهم للأمر صحيحاً وأحكامهم صائبة لا تتعدى الحق الذى رسمه الله تعالى .

إننا لو نظرنا إلى الوراثة قليلاً فى التاريخ غير الإسلامى ، لوجدنا ثم وجدنا أن ذلك القانون مشتق من قانون الفصل والحرمان الذى يوجد عند بعض الطوائف ليكون وسيلة من وسائل تجريد هؤلاء المفكرين الأحرار من حقوقهم وصفاتهم ، ماداموا قد أتوا بما يخالف آلهة العلم والحكمة عند هذه الطوائف ، ومن السهولة بمكان أن تعرف فى أى البلاد يوجد مثل ذلك القانون .

وإننا لنحمد الله تعالى ونشكره على أن وضعنا أيدينا على مصدر ذلك القانون . ولمسنا الحقيقة التى نبحت عنها طويلاً فى المساء والصباح مستعينين فى ذلك البحث بمصباح الفكر الذى استنفذ منا أكبر مجهود ، بل أعظم مادة للاستصباح والوقود فى الإنسان الضعيف بنفسه ، القوى بربه العظيم .

والئن كان الأمر كذلك ، فما العمل ؟ أو ماذا يكون العمل ؟ أو ماذا نحن فاعلون بعد ؟

إنه ليمتحن إذن أن نودع ذلك القانون وأن ننسأه نسياناً وأن نتخلص منه تخلصاً . ففى العمل به عار أى عار لبلاد إسلامية ولهيئة إسلامية . ويكفى أنه قانون رجعى قد رجع بالإسلام إلى جاهلية أولى ، وضرب على المسلمين مدة هذه القرون التقليد والجمود والجمود الفكرى كما ضرب عليهم الذل والمسكنة بعد .

فها هي بعض الأمم تتهمنا بالتأخر وترجع ذلك التأخر إلى قلة التفكير ووقوف الدين بهذه الامة هذا الموقف الشائن كما يبدو في نظرهم ، مما جعل الأحرار منا يشعرون بالنقص والعار والذل والمسكنة ثم هبوا ينادون بانطلاق الحريات والخرج بالامة من هذه الحال الراقدة للعينة ، حال التقليد والقناعة الزائفة إلى الحال التي هي أعلى ، حال الفكر والبحث الحر وغزو ميادين الحياة بلا استثناء . لأنه لا يصح أن ننسى تشريعنا الإسلامي الناهض العظيم ونقبنى تشريعاً رجعيّاً تخلصت منه أكثر الأمم الأخرى وعلى رأسها هذه الأمم التي أخذنا عنها ذلك التشريع الذي فيه النقص والعار والذل والمسكنة .

هذا ما يتحتم أن نعمله أو نفعله إذن بعد أن تبين لنا السوء والبطلان في قانون ذلك الأزهر ، وبالأحرى سوء بعض مواده التي هي في الحقيقة عدوا على العلم والعلماء ، وعلى الفكر والمفكرين ، وعلى الحرية والأحرار العقلاء .

واسكن مهلاً مهلاً فإنه ليتحتم مع ذلك الأمر أمر آخر هو في الحقيقة شقه الثاني ونصفه الآخر الذي لا يكمل إلا به ، وهو أن نترك هذا الأزهر للتعليم والتدريس فحسب أى للشؤون التعليمية والتدريسية خاصة دون أن نزع به في أمور أخرى فوق طاقته . أو لا يدرى من الصواب والحق في أمرها إلا قليلاً ، أعني ألا نحكمه في شؤون الإنتاج الأدبي الديني وغير الديني الذي ينشر في هذا البلد ، ونعتمد على ما يصدر منه في هذه الشؤون من حكم . ما دام هو على هذه الحال ، بل الأحوال العديدة .

ذلك إنه لم يصل إلى درجة الكمال ولا يستطيع أن يدعى الوصول إلى كل شيء حتى هؤلاء الأئمة الذين يعكف على قراءة مذاهبهم الخاصة المفضلة لديه لا يستطيع أن يدعى لهم هذا الوصول . ومعنى ذلك أنه لا يمثل الإسلام على طول الخط ولا يمثل عقلية الإسلام في كل صغيرة وكبيرة بل قد يمثلها حيناً . وقد يمثل نفسه فحسب حيناً آخر . وقد يمثل عقلية الإسلام في جزء ويمثل نفسه في جزء . وهذه هي الحقيقة المرة التي يود ألا تظهر للناس لأن ظهورها يكلفه جهداً عظيماً وطاقة جبارة يبذلها لكي يمثل تلك العقلية تمثيلاً خالصاً بحق تجعله في أعين الناس . العقلية التي من عند الله تعالى . ولكن أنى له ذلك اليوم وهو لا يعرف بحق ما السبيل ؟ وإذا عرفه لا يستطيع أن يسير فيه وهو ضعيف وضعيف .

أضف إلى هذا ، أو هو هو في المعنى أن الثقافة العالية والعليا في الأزهر لا تزال متأخرة ، وهي كل شيء ، بل هي الأزهر ذاته ، لأن الأزهر شيء غير جملة المعاهد الإسلامية في القانون ، فلا زالت تلك الثقافة تحمل طابع البدائية ، واتباع النصوص بالحرف ، والنقطة والشكل دون زيادة أو تعليق .

والثقافة العالية التي بهذا الطابع هيئات أن تخلق لهذه الأمة المتعطشة إلى العلم والرعاية في الحياة ، رجالاً نافعين صالحين للعصر الحاضر وما بعد ذلك العصر الحاضر إلى حين حتى يورثوا مابعدهم من الجيل الصغير الأمانة ويوجهوه التوجيه الرشيد .

بل إن تلك الثقافة التي صبغت بهذه الصبغة الرجعية تجعل من هذا الأزهر مدرسة أو جامعة أو مدينة من مدن الثقافة التي يحج إليها كل عام ، بعيدة عن مميزات المدنية ، بل عن سمات الحضارة التي تتميز بها دور العلم وتنقسم بها معاهدة في كل مكان مقدس من أمكنة التربية والهداية والإرشاد ، فإن علامات التمدن والتحضر في بيوت العلم خاصة ، هي التحرر من أخذ القول على عواهنه ، فلا يؤخذ بقول أيأ كان إلا بعد الدرس والبحث والفرز ، أي لا يؤخذ به إلا إذا ثبتت صلاحيته .

يضاف إلى هذا الترحيب بالنقد ، وسعة الصدر للمعارضة والاستعداد للتسليم بالحق إذا ظهر ، وقبول الرأي الصواب الذي يدلى به أي إنسان . والحق أنه من الحكمة والعدل ، بل من المصلحة العامة ، إلا نورط الأزهر في أحكام يرى نفسه مضطراً لأن يحكم فيها بما رآه السابقون ، وكفى إرضاء لمن يهمله إرضاءه ، وتقليداً حيث يجد أنه غير قادر بنفسه على أن يضع يده على الحقيقة ، وهذا دأبه الذي درج عليه وتلك هي روحه التي سرت في جميع أرواقته من الأزل .

على أنه لو قام الأزهر حكماً في هذه الموضوعات لكان معنى ذلك أنه حكم وخصم في آن واحد ، وهذا مخالف للقواعد العامة التي وضعت لنزاهة القضاة وشرفهم ، فإن الخصم شأنه أنه متهم بالبغض والكره لخصمه ، وهذا البغض والكره يدعو له لأنه يشطط ويتبع الهوى إذا حكم بين نفسه وخصم آخر انتصاراً لنفسه وفوزاً .

والآن أعود وأشرف على الناس بعد ذلك الاستطراد والاستقصاء
في البحث والتدليل إلى أصل الكلام ، فأنادى بأن يترك هؤلاء العلماء
المحبون للبحث والتفتيش والاستزادة في العلم يسرون في طريقهم المجيد
ويترك الأزهر يسير في طريقه الشرعي الذي رسمه الله تعالى وهو التربية
وتثقيف العقول ، دون أن نرسم له طريق العنف والفظاظة وهي التي
رسمها قانونه ، معاوين إياه في أمرها ، في حين أنها لا تشرف أحداً .
ومن يدرى فر بما ذلك العالم الذي اجتهد وفكر وبحث ونقاضيه عن
طريق الأزهر يكون إنساناً فاضلاً لا يدرك له شأو في العلم ، ويمثل الرأي
الصحيح بحق بينما نضل في شك وظن واشتباه ، ولا نعلم أنه قد أصاب
إلا بعد فوات الوقت وضياح الزمن في الخوض والقيل والقال ، وإيقاع
الظلم وإنزال السخط على هذا الإنسان البريء . وإذن فكيف يكون
من ذلك الأزهر محكمة للأحراج وسلب كرامة أحد من العلماء ، نطيعها
ونحن راضون ؟

على أني أسألكم هذا السؤال ، هل معنى إعطاء الأزهر أجازة أو
درجة علمية لأحد من الناس أنه وضع غلا في عنقه ويديه يمنعه من
حرية الكتابة ، ويقيده بقيود عتيقة تجعله صورة طبق الأصل بما كان
عليه الأزهر القديم فلا يفكر ولا ينظر فيما جد في الحياة من أمور
كي يهتدى إلى حكم الله تعالى الذي وضع لها في هذا الدين ؟ هل هذا
المعنى هو الصحيح ؟

إننا لنقول ليس هذا المعنى هو الصحيح إذ إعطاء أجازة أو درجة
علمية لأي أحد في كل العالم ، معناه أن حاملها أصبح فيه الأهلية

والصلاحية لأن يكون إنساناً يرجى منه النفع والخير والهداية ، ولو من وجه واحد بالطريقة التي يراها صالحة ولو خالف فيها فلاناً وفلاناً من المعدودين ، فإن أحسن زاده الله تعالى إحساناً ، وإن أساء عفا الله عنه وعوضه فإن الله تعالى هو المجازى — ويتبعه في هذين الحالين أجازته ودرجته التي يحملها ، فإما أن ترتفع قيمتها الشخصية والعامة معه ، وإما أن تفقد قيمتها الشخصية معه من نفسها بنفسها من دون حاجة إلى اللجوء إلى تلك الأخلاق غير الكريمة من العنف والغلظة ، ومن دون استعمال تلك الإجراءات التي لا تجوز في شريعة العلم ، وقانونه الذي شرعه الله تعالى للعلماء خاصة وأنزله خاصاً بشأنهم في هذا السبيل حينما يجتهدون في الشرح والبيان ولا يصيدون .

ثم ماذا بقى إذن من تنمة القول عن كون الأزهر يحكم على غير هدى بهذه المواد التي احتوى عليها ذلك القانون الذي اطمأن إليه هذا الأزهر ؟

في الحق أن من حق الأزهر أن يكون منه محكمة ، مشروعة الأحكام ، إذا ما تقدم إليه أحد برسالة لبحثها لنيل أجازة ودرجة علمية . وإذا ما تقدم إليه أحد بكتاب من الكتب ، في مسابقة من المسابقات للحصول على جائزه من الجوائز الموضوعة للمتسابقين ، فإنه إذ ذاك في الحالين يكون له الحق في الحكم ولا يعترض عليه ، وحينئذ يحترم حكمه ويوضع موضع التنفيذ ، لأنه من جهة الاختصاص في هذه الدراسات الخاصة التي تقدم إليها الممتحن ، وهو صاحب الأمر في المسابقة التي دعا إليها ونشر عنها لغرض من الأغراض .

لكن أن يتحكم هذا الازهر في أحد من الناس في الأمور المستنبطة من النصوص والآيات وفي شؤون العلم والبحث الحر المطلق ، بعد أن يكون قد أطلق سراحه وخرج وعثق من سيطرة هذا الازهر وسيادته عليه ، وصار حراً لاسبيل له عليه في شيء يمس حرية العقيدة والبحث فلا ، ثم لا ، غير مرة واحدة .

على أنه يكفي أن الازهر تلك المدة الطويلة من القرون الماضية قد ختم على قلوب أبنائه وطبع عليها بخاتم التقليد وطابع الجود حتى صاروا فئة في الخلف وبالفضيحة لا يجدون في أنفسهم ولا تجد فيهم الأمة قادة صالحين وعلماء راسخين ، حتى إذا ما شعروا وشعرت الأمة بحاجة وضرورة ، اتجهوا إلى قادة الأمم الأخرى وحكامها الفضلاء ينقلون عنهم ويأخذون ، ويشربون من منهل علمهم ، ويلتمسون في سيرتهم المثل الأعلى وفي علمهم الحقيقة التي عزت علينا ولم تر لها من سبيل ، وكان في ذلك لنا وللأمة العار وأي عار ، لا المجد والشرف الرفيع .

* * *

(٥) وأنه وقد تبين هذا ، أرى أن على حكومة السيد الرئيس الأول لجمهورية مصر واجباً هو أكبر الواجبات بدون شك ، وهو أن تعمل على تقوية الحركة الفكرية في الإسلام إلى آخر الحدود الممكنة ، فتعاونها من اليوم وهي لا تزال صغيرة وتحتاج إلى التعاون بأن تبنيها وتحتضنها وتراعيها الرعاية التامة حتى تقوم على قدميها وساقها . وتكتمل قوتها وتدخل في دور الشباب والقوة والرجولة ، ثم تزودها تزويداً بكل المعدات اللازمة . وتمدها بكل الامدادات التي في الطاقة والجهد ، ثم

تطلق لها العنان والجلبل بعد أن تكون قد أفسحت لها الطريق الذى تسير فيه فى الأرض باسم الله سيرها ووقوفها تمهد للعروة والإسلام وتمكن لها فى الشرق والغرب كما مهد ويمكن لها عند ظهور هذا الدين من قبل .

ولكن هل يمكن أن تكون تقوية تلك الحركة الفكرية فى الإسلام اليوم وتعاونها ، بأكثر من تغيير سياسة الدولة اليوم بأزائها عما كانت عليه فى العهد المنصرم . على معنى أن نشجع على التحرر من عبودية ورق العقول . ونعصده من يحطم تلك الأغلال الفكرية الثقيلة ويهدم سور ذلك السجن العقلى ، فنرفع يد الأزهر عن هؤلاء المخلصين من شباب الإسلام المثقف النابه ، ثم نرفع يداًنا معه حتى لا تمس قداسة حرية الرأى للعالم بأى سوء كما أمر هذا الدين الحنيف ، ثم نقول لهؤلاء الشبان الأحرار العالمين ، تمتعوا بحريتكم فى الرأى إلى آخر حدودها ، ثم أظهروا ذلك الرأى ما استطعتم ليطلع عليه أهل النقد والنظر والفكر وهم كل شئ — وعسى أن يجدوه ذا قيمة عظيمة وأثر فعال قوى فينال استحسانهم ، ويحوز قبولهم ، فيكون من وراء ذلك الاستحسان ومن بعد هذا القبول الجائزة السنوية والمكافأة العظيمة .

ثم نجعل من تلك الجائزة والمكافأة أمراً واقعياً بأن يقوم قسم الأبحاث فى الأزهر بهذا الأمر ويتولاه بنفسه ، فإنه لا يستطيع أن يتم رسالته إلا بهذا الأمر ، لأنه قد يكون القائمون به عقماء فى الإنتاج — وهو الأمر الحاصل اليوم بالفعل — وبوضع هذه الجائزة والمكافأة يستطيع أن ينتج بطريق هؤلاء المتسابقين الطامعين فى تلك الجائزة

والمكافأة التي قد تساعدهم على ما يريدون لأنفسهم وللوطن العزيز .
على أن تلك العمليات إن هي في الحقيقة إلا خطوة من الخطوات
التي يجب أن نخطوها في سبيل تقوية تلك الحركة المباركة ، ولكن
الخطوة الكبرى التالية تنحصر في النشر والدعاية في كل مكان وزمان ،
يمكن أن يصل إليها النشر والدعاية ، بأي طريق من الطرق حتى يقيس
للعالم الموقوف على تلك الثقافة للقومية التي نملك زمامها اليوم ، بل حتى
يمكنه أن يتذوق طعم تلك الثقافة العربية الإسلامية التي ورائت مصر
الزعامة فيها وحملتها على عاتقها قروناً عدة ، من يوم أن استقلت مصر
بعد انحلال الدولة العباسية ، ومن يوم أن انتصر صلاح الدين على
الصلبيين بصفة خاصة ، وهذا غاية ما تسعى إليه السعى الحثيث .

نعم هذا غاية ما نسعى إليه السعى الحثيث ، لأنه تهديد وتمكين
للعروبة والإسلام . وما أدراك ما التهديد للعروبة والإسلام في عصر
فاق كل الأعصر الحالية في حرب المبادئ والنظريات والثقافات ،
وأصبح القتال فيه بحد السيف مكروهاً ممجوجاً إلى حد عظيم . بعد أن
فهم كثير من الحقائق التي رآها في الحوادث والتجارب والتاريخ .

وإذن ما كان لهذه الحكومة الناهضة أن تنسى أن تقوم بهذا الواجب
الأكبر وهو تقوية هذه الحركة الفكرية في الإسلام على ذلك الوجه
الذي شرحنه وبيناه الشرح والبيان الذي ينير السبيل ويهدي السائرين .
فقد أصبح ذكره في مقدمة الواجبات التي على هذه الحكومة الثائرة
المصلحة أن تذكرها للخير والمصلحة .

وأصبح القيام به أمراً متعيناً لا معدى عنه ولا مناص منه ، مادام

أنه سيحقق لنا أغراض تلك الثورة المصرية البيضاء ، في أكبر ناحية في الحياة وهي ناحية الدين ، فما أخرى هذه الناحية اليوم بإصلاح يجدد ما فيه من عقيدة وخلق ، وبأبحاث تسترد ما كان لها من قوة وجدة .

أليس من الخطأ السياسي أن نعطي ناحية من النواحي حقها من التقوية والإصلاح ، بينما لا نعطي ناحية أخرى ذلك الحق ، فتكون النتيجة أن يوجد في تلك الناحية التي حرمت من حقها الشرعي ثغرة من الثغرات يتسرب إلينا منها الشر والسوء ، وهذا كاف لأن يرجع الأمة إلى الخلف والوراء مسافة بعيدة ، فنعود إلى أسوأ مما كانت عليه إذا ابطرتها النعماء التي دخلت عليها بعد أن لم تكن . ولا بد أنها ستبطرها إذا ظل الإصلاح الديني اسماً لا حقيقة له في باطن الأمر .

والواقع أنه لا ينفعنا في هذه الحياصة مال ولا بنون بدون أن نملك القلب السليم والعقل الصحيح ، كما هو الحال في الحياة الآخرة ، ومن أجل ذلك وجب أن نحصن أنفسنا بكل هذه الوسائل الشريفة أعني بهذه الثلاثة من المال واليمن وسلامة القلب وصحة العقل ، والا هلكنا كما هلكت أمم كثيرة في التاريخ نسيت العناية والاهتمام بأمر العقيدة والخلق وما هي عنا يبعيد .

وانه وإن كان ذكر تلك الأمم يبعث على الخوف والرهبة ، فإنه يذهب عن الخوف ويدفع عن الرهبة ، ما أراه وأشاهده في هذه حكومة هذه الجمهورية العاملة من اتجاه عام في الإصلاح ، وعزم أكيد على أن تكون النهضة المصرية كلية وشاملة تصل إلى كل دائرة في هذا البلد ، لأن الفساد في تلك العهود البائدة لم يبق على شيء سليماً ، بل دخل

في كل دائرة من دوائر هذا الوطن المفدى ، وهذا هو الفارق بين سياسة هذه الجمهورية الحكيمة وسياسة العهد البائد السقيمة وما أعظمه من فارق جعل لجمهوريتنا المحبوبة قيمتها العالية ، وأظهرها على ما تقدمها ، فانه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح . ولن يستوى بار وفاجر أبداً . وهيهات .

* * *

٦ — والآن بعد هذا الإرشاد ، أرشدك إلى أن هذا البحث إن هو إلا علم من العلوم الحادثة والمستحدثة في هذه الامة .

وأنه إذا كان أصله كان ولا يزال موجوداً في صميم الإسلام وفي ثنايا أبحاثه القديمة ، إلا أنه بهذا الشكل وعلى هذا الوضع الجديد قد أصبح علماً من العلوم كما جعلناه الآن .

وهل أنا أصبت فيما جعلت ؟ أرى أنى أصبت ، فان الحياة قد تطورت ، وهذا الموضوع قد تطور ، ونفس الأبحاث قد تغيرت هي الأخرى وارتقت واتسعت ، فلم يكن بد من أن يجعل علماً قائماً بنفسه ليدرس باهتمام ويتلقى بعناية كما هو شأن كل علم مستقل ليس مخلوطاً بعلم آخر من العلوم .

ثم ماذا ؟

وهل من الضروري للدخول في دراسة علم ما أن نعرفه على وجه الإجمال ؟ لن كان الأقدمون ، قد جرت عادتهم أن يرشدوا إلى أن مبادئ كل فن عشرة ، ويذكروها أمام كل بحث من الأبحاث التي يقومون بها

فاني سوف لا أسترسل معهم في الاتيان على ذكر كل تلك المبادئ هنا
في صدر هذا البحث لما أنها ظاهرة بيّنة .

والآن أتسكلم في صميم الموضوع ، ولكن إن كان هذا الكلام
صامتاً أى منطفاً مكتوباً ، فإنه جميل وبلّغ و هل نبغى إلا منطقاً جميلاً
و بلّغاً في هذه الحياة ؟

من الثورة إلى الفن

نحن في مصر تلك الدار الكريمة إخوة ، ولكن كنا نرسف في قيود الاستعباد .

هذا الشعب كان منه عبيد الأرض ، كما كان منه عبيد العمل أياً كان ذلك العمل .

وهذا الجيش كان الفئة الحائرة بين هذا الطاغية وهذا الشعب المسكين وكنا ونحن بهذه الحال نغط في سبات عميق في ليل طويل في سجن أسود رهيب ، وقفص ضيق بغيض ، ولكن منا من استيقظ مبكراً قبل إخوته فأيقظهم من ذلك السبات العميق ، وأصبح الجميع أيقاظاً ينتظرون مطلع الفجر ليخرجوا من تلك الظلمات إلى النور . ولكن من يخرجهم وقد أحيطوا بجدران السجن وأركان القفص وهم في قيود ثقيلة ؟

لقد كان ذلك الجيش المصري الباسل ، بكونه واسطة بين هذا الطاغية وهذا الشعب الأعزل ، أخف وأقل قيوداً ، لهذا كان وحده من دون الشعب القادر على أن ينزع تلك القيود ويرمى بها إلى الأرض ، ثم يقول لهذه الطاغية أخرج بعض جزائك أيها الظالم وإلا فستلقى جزائك الذي تستحقه وهو أكبر جزاء يناله الظالمون .

وخرج هذا الظالم من هذه الدار مذموماً مدحوراً يحمل الخزي والحسرة على ما قدمت يداها ، ويومئذ تعانقت مصر من أقصاها إلى

أقصاها وأقامت معالم الأفراح تمجيداً لهذا اليوم وتفخيماً لله تعالى الذى مكنها من طرد هذا العايب الضال ، ثم لا تزال تقيمها كل عام لذكرى ذلك الانتصار الأبيض السلى المجيد . تشكر فيه ربها وتسبح بحمده على هذا التوفيق والنصر المبين الذى كانت عدته جمع الحكمة وسلاحه الاتحاد والمحبة ، وشعاره الاكبر الإيمان بالله تعالى والإيمان بأمر الحضارة والمدنية مصر .

ثم كان أن اتجه الجيش بعد إلى الإنكليز وإلى الإقطاعيين فقال للإقطاعيين . هذا زعيمكم قد خرج فردوا إلى الشعب ما أخذتموه من الأرض بدون حق لى يصبح حراً لا عبداً وعزيراً لا ذليلاً فهذا زمن الثورة والعدل والمساواة .

وقال للإنكليز أخرجوا . لأنه لم يعد لكم فى مصر ، من يقول لكم اقعدوا ويرحب بضيافتكم ، فإن صاحبكم قد خرج وأصبحتم ضيوفاً على من يسكرونها ضيافتكم التى تريدونها عنوة رباً لا كراه ، فإنها ضيافة غير شرعية لا يقبلها أى إنسان له شرف وكرامة ، لأنكم بطشتم وتكبرتم فى الأرض على المصريين بغير الحق ، وهم شعب شريف كريم فسلم له هؤلاء الإقطاعيون وهؤلاء الإنكليز بما أراد . وكفى الله المصريين القتال فكان ذلك نصراً وأى نصر ؟ ولكن مصر لن تقنع ولن تقف عند هذا النصر بل لابد أن تعمل على أن توالى انتصاراتها على أعدائها ، وعلى كل نواحى الفساد فى جميع شئونها ومرافقها ، التى استفحل أمرها وكبر فى عهد ما قبل تلك الثورة المصرية البيضاء حتى تتم لها السيادة فى كل شىء ، وإذن فماذا تفعل بعد ؟

لنتجه كل جماعة إلى شؤونها الخاصة جاهدة مجدة في الإصلاح الخاص
لنتصر حقاً على الفساد الكائن .

لنتجه كل طائفة من طوائف مصر ، إلى الإصلاحات الفنية
والإحصائية التي ليست من أعمال السياسة العامة ، لأنها لا تقدر عليها
إلا بواسطة هؤلاء الفنيين والإحصائيين فإننا لن تكمل لنا سيادة
إلا كذلك .

لنتخلص كل فئة في عملها المنوط بها والذي في عنقها أمانة لمصر
ولابناء مصر . ترعاه وتؤديه على أحسن وجه ممكن وأكمل حال مستطاع
لنتحرر حقاً من كل الأعداء التي من أولها الفساد والسفاهة والحقاقة وسوء
الأخلاق .

ولئن كان كثير من الفئات مستقلاً بشؤونه الفنية الخاصة يصلحها
ويقوم بأمرها وحده بدون تدخل من أحد ، فهذه فئة من الفئات التي
لا تزال تعاني من تدخل رجال الدين في شئونها بغير الحق ما تعاني من
تعصب وعنت وإرهاق إلا وهي فئة أهل الفن ، ومن هم أهل الفن ؟
نحن نعلم أنهم أولئك الذين نذروا أنفسهم للفن وأنهم أولئك الذين
يجاهدون في محرابه ، يرققون غلاظ القلوب ويهذبون شواذ الطباع ،
رويداً رويداً .

وانهم حملة المشاعل الذين يتقدمون الصفوف ليضيئوا الطريق أمام
المحروم من نعمة الضوء .

ولسكن برغم أنهم كذلك لا يزالون معقلين برجال الدين في آرائهم

التشريعية .

ولكن إذا كان أهل الفن لا يزالون معلقين برجال الدين في آرائهم ،
فرجال الدين أنفسهم ينبغي أن يكونوا معلقين بالأدباء منهم في آرائهم
الإصلاحية ، لأن هؤلاء هم الحكماء وحدهم ، والذين يتصور العقل أنهم
يصيبون في آرائهم في الفن . لأنهم هم الذين يشعرون بالجمال ويقدرونه
التقدير الصحيح ، هذا فوق إحاطتهم بالدين . وهذان الأمران جميعاً
الدين والشعور بالجمال يخلقان فيهم توازناً وحكمة فلا تغطي جهة على
جهة ، لأنهم بالدين والجمال يقدرون كل شيء التقدير الصحيح ، ويحسون
نتائجه وآثاره عن فهم . ثم هذا التوازن وتلك الحكمة يجعلهم
مصيبين فيما يرون . لأنهم يرون ذلك الفن الذي يحكمون عليه الآن ،
رؤية حقيقية ليس فيها شيء من المجاز :

والحق أنه لا شأن اليوم لرجال الدين بالفن ، لاستمساكهم بهذه
الفتاوى القديمة التي نشأت وقت انحطاط المسلمين في القرون الوسطى ،
وصدرت لا عن معرفة كافية ولا عن دراسة تامة ، ووقوفهم موقف
العداوة من ذلك الفن في كثير من نواحيه الجديرة بالاحترام ، فلندعهم
فلندعهم اليوم ولنذكرهم غداً .

ثم لننتوجه إلى هؤلاء الحكماء منهم الذين لهم دراية وخبرة بالدين
والفن ، لأننا سوف نجد منهم إنصافاً لحق الدين وحق الفن ، وحكما
وسطاً لا يظلم هذا أو ذاك ، لأنهم هم الثائرون ، على تلك السخافات
والأباطيل ، المتجاوبون مع روح تلك الثورة الكبرى ، على
الشر والاضلال .

أن هذه الثورة المباركة ، قامت لترد كل شيء إلى أصله ، ولتضع كل شيء موضعه كي تسير بهؤلاء الناس سيراً طبيعياً عادلاً سليماً ، ولتكتب صفحة جديدة في تاريخ العروبة والإسلام ، فكان حقاً طبيعياً أن يشور هؤلاء الحكماء والادباء ثورة خاصة للدين ، عملية أكثر منها تحريرية ، فيتمقدموا لهذه الأمة بشورتهم على الخزعيلات والخرافات الدخيلة ، ويطرحوا نقدهم المؤيد بالأدلة الساطعة على الملأ والعامه جرحاً على المصلحة العامة ، وغيره على الحقائق أن تذهب وتزول وتختفي ، وحباً في أن يرد لهذا الدين اعتباره ، فإننا ورثناه في هذا الوضع الغريب ، مأخوذاً ببعضه ومتروكاً ببعضه الآخر .

ولكن من الذي جعله في هذا الوضع الغريب ، الضعيف ، إلا فقه رجال الدين الفقه الظالم المستبد ، الذي نحاول اليوم أن نظهر ذلك الدين منه تطهيراً ، حتى يبدو نظيفاً للناس كما أنزله ربه العظيم . فإن هذا الفقه لا يزال عالقاً به من الدرن ما تراكم عليه بفعل الزمن ، ولا يزال في حاجة إلى جهاد في تطهيره ونظافته وإخراجه للناس فقهاً طبيعياً سليماً ، ومثله في ذلك مثل سائر النواحي التي أهملها رجالنا أهالاً عامدين هذا الأهال ومتعمدين ، فأصبحت في حاجة إلى التجديد ، وإلى الثورة من أجل هذا التجديد ، على هؤلاء الجامعين والقاصرين ، وعسى الله أن يجعل من تلك الثورة نهضة كبرى ، تملأ أركان الأرض علماً ونوراً وهداية ، وتجعل من الفن قرأً منيراً ، على هذه الأرض في في الليل ، يستمد ذلك النور من تلك الشمس الكبرى ، إلا وهي شمس هذا الدين الحنيف .

الفن شيء غير المسرح

الفن شيء ، والمسرح شيء ، ولو أنهما مقترنان لا ينفكان ويقومان بخدمة المثل الأعلى للجمال ، وبالتعريف بالجمال على وجه العموم من طرف وملح ونكات ونوادر .

إن الفن غناء وترتيل وترنيم وموسيقى ورقص وسحر بيان وقصص ، ومنظر جميل ، وصور للحياة الطبيعية وغير طبيعية .

إنه لهُو ولعب ، ولكنه لهُو ولعب حق وجد ، فمن اللهو واللعب ما هو حق وما هو داخل في عداد الجد . لتأديته الغاية من الحق والجد .

وهو عامل من عوامل رقي النفس وصعود الروح إلى أعلى عليين ، وسمو الفكر إلى مكان التقديس وعالم الطهر ، ذلك أنه ترغيب في الخير وترهيب من الشر بأسلوب تصويري عملي ، يقرب من الواقع ، حتى لا تكاد تفرق بينهما لقوة التصوير ، وقوة التأثير ، في مواقف السراء والنعماء ، ومواقف البأساء والضراء ، التي تغير من شعور طلاب الفن ، وتقلب من نفسياتهم وتبدل من احساسهم ، فتجعلهم تابعين للفن متفقيين معه قلباً وقالباً ، ومتى كانوا كذلك فقد ارتقى بهم الفن وصعد بأرواحهم وسما بأفكارهم ، وهو معنى أن الفن عامل من عوامل رقي النفس وصعود الروح إلى أعلى وسمو الفكر .

أي أن الفن أحد العوامل التي تنهض بالنفوس وتسلك بها سبيل الرشاد ، وتنقل تلك الروح الطيبة من الفنان إلى عشاق الفن الجميل ، بل

أنصار الأدب الحى . أعنى أن الفن ذكرى تذكر المطاع وتشعره بمعنى الخير والشر فى هذه الحياة .

وهذه الذكرى تحبب الإرشاد فى عمل الخير ، وتدفعه فى طريق الخير خطوات إلى الإمام حتى يبلغ نهاية ذلك الخير الذى رسمه الله تعالى لسعادة عباده الأبرار .

وكذلك هى الذكرى تخوف الإنسان من عمل الشر ، ومن نهاية الشر بوجه خاص ، ومتى خاف الإنسان فإنه يرجع عن الشر ، ولا يعود إليه مرة أخرى ، فتستقيم حياته ويسلم له شرفه ودينه .

وله بالرغم من أن ذلك الفن تصوير بديع للخير والشر ، وعرض دقيق للكمال ونقيضه والمعروف وضده ، إلا أنه به ما يعرج بالإنسان إلى أرفع مقام ، وما يحدد تلك الحياة ويعيدها متينة صالحة من آن إلى آن . لأنه عزاء للنفوس المنكوبة ، وترفيه عن النفوس المحزونة . وأمل يداعب القلوب ، وأمنية توافق مافى نفوس كل البشر ، ومنطق له مغزى هام .

أما المسرح فهو معرض عام أو خاص لهذا الفن الجميل ، أى أنه السوق التى يعرض فيها الفنان فنه على فرد من الناس أو جماعة .

وإن شئت قلت إنه الملهى الذى يلهو فيه الإنسان عن متاعب الحياة وينسى فيه همومه ويرتاح فيه من عناء الدنيا ، فيهدأ بعض الهدوء فيه من العمل ويصفو فيه بعض الصفاء من الكدر ، فيعود إليه إنشراحه وابتهاجه من جديد ، لأن الحياة هكذا تعب وراحة وحزن وسرور .

على أن هذا المسرح أصبحت له قيمته وأهميته الكبرى في هذا الزمن ، الذى سادت فيه الآلة وكثرت فيه الاختراعات ، وانتشرت فيه العلوم ، والذى أدرك الناس فيه أسرار الفن وأثره فى الحياة ، لهذا تعطيه الحكومات والشعوب قسطاً كبيراً من العناية وتهتم به الأمم الراقية ، جد الاهتمام .

ومن هذا يظهر شدة الربط بين الفن والمسرح ، وأنهما على علاقة وثيقة لا انفصام لها ، هى علاقة نال بالمحل ، حتى كأنهما أمر واحد . غير متعدد .

ونحن الآن نعانى ما نعانى ، ونجاهد ما نجاهد فى سبيل إيجاد نوع جديد من الفن والمسرح ، ذلك هو الفن والمسرح المقدس . ولعله لا يختلف فى كثير عن الفن والمسرح الحاضر ، مما يسهل عملية الانتقال من هذا إلى ذاك ، تسهلاً عظيماً ينطوى على الرضا والتسليم وإنشراح الصدر والإيمان .

الفن والمسرح الجاهلي عند العرب

ونحن الآن سوف لا نكتب ونورخ إلا عن الفن والمسرح عند العرب قبل الإسلام لا عند قدماء المصريين ولا عند قدماء الفرس ولا عند قدماء الرومان وهلم جراً ، حيث أننا اليوم تابعون للعروبة والإسلام ، لا للوثنيات القديمة التي كانت سائدة قبل الإسلام .
على أننا إن كنا نكتب عن الفن والمسرح عند العرب قبل الإسلام فإننا نكتب في الواقع عن العالم القديم كله الآن ، لأن قدماء العرب مثل واحد من تلك الأمم الأخرى في العالم القديم ، إذ الفكرة واحدة والعقيدة متقاربة ، والعقيدة متفقة إلى حد كبير والعادات متشابهة من عدة وجوه .

والفن والمسرح عند العرب القدماء نستطيع أن نأخذ فكرة عنه من القرآن الكريم حيث يقول (وما كان من صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) فهل كان المكاء وهو الصفير ، والتصدية وهي التصفيق حول الكعبة الشريفة لله سبحانه وتعالى والآلهة التي كانت حولها في المسجد الحرام ، إلا نوعاً من الفن عند قدماء العرب ومن أسباب الطرب عند المشول بين يدي الآلهة حول الكعبة المعظمة ، والمشول أمام الله سبحانه وتعالى في أكبر بيوته تعالى ، وإلا آية من آيات تعظيم الأصنام مع الله الكبير في ذلك المسرح المقدس الأكبر ، وهو ذلك المسجد الحرام في مكة المكرمة ؟

لقد كان ذلك هو زعم هؤلاء العرب الجاهليين ، وهذا هو ما جعل الله تعالى ينعي عليهم تلك الصلاة الجاهلية التي مزجت بالشرك بالله تعالى وخلفت

من آيات الإخلاص لله تعالى وحده . وأصبحت لهواً ولعباً غير متمحض لله تعالى وحده ولا معنى له إلا الضلال عن الله تعالى ، المؤدى إلى سوء المنقلب والمصير .

على أننا نستطيع أن نسير في القرآن الكريم لنكمل تلك الفكرة عن ذلك الفن والمسرح الجاهلى ، فهو يقول : وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ، قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين . .

كان رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة بمدينة فقهه فقصدت غير من الشام وضرب لقدميها الطبل على العادة ، وكان من عادة أهل المدينة أن يستقبلوا تجارتهم بالطبل والتصفيق ، فخرج المسلمون من المسجد تاركين الرسول صلى الله عليه وسلم لاستقبالها بهذه المراسم الجارية لديهم في العرف ولم يبق إلا اثني عشر رجلاً ، فعاتبهم الله سبحانه وتعالى بهذا العتاب ، وأرشدهم إلى أن الشؤون الخالصة لله تعالى مقدمة على شؤون المعاش والحياة في هذه الحال ، وهو وقت القيام بها وآداها أمام الله تعالى فما دام لهذا وقته ، وهذا وقته ، لا يصح أن تقدم أمراً وهو لم يحن وقته على أمر آخر ووقته لم يفته بعد .

وحسبي من أمر الفن والمسرح الجاهلى عند العرب في القرآن الكريم ، هاتان الآيتان الكريمتان اللتان سقناهما لك .

وإلى تاريخ العرب قبل الإسلام ليكون آخر المطاف وتمام الفكرة

العامة عن ذلك الفن والمسرح الجاهلى وماذا في ذلك التاريخ ؟

لقد كان للعرب يومان لعرض الألعاب وإقامة الملاهى أشبه بدورة الألعاب الأولمبية ، ولقد كان جمال الفن في هذين اليومين نعيماً للروح

والقلب فوق نعيم الجسد والبدن .

وبالرغم من أن الإسلام قد استبدل هذين اليومين بيومين آخرين أشرف وأكبر ، وهما عيد الفطر وعيد الاضحى إلا أن أثر هذه العادات العربية لازال باقياً ، فها نحن نرى ألعاب العرب في المواسم ظاهرة جليلة تبعث على الحد والنشاط ، وتعبير عن المرح والسرور في عزة وفخر وشمم .

نرى من ذلك ألعاب الخيل ورقص الخيل . نرى ألعاب الفروسية ، والبراعة في الفروسية ، نرى الألحان العذبة والغناء الجميل ، نرى كل أولئك وأكثر في البادية والصحراء التي يقيم فيها العرب حباً في عيشة الحرية وميلاً إلى تلك الحياة البسيطة الخفيفة التي يتيسر لها الظن والإقامة وراء المرعى الخصيب ، وحفاظة على عروبتهم التي يرونها نعمة من أجل النعم ، لأنها هي الصبغة التي كان لهم بواسطتها الفضل على من عداهم من الشعوب ، وحقاً أن العروبة مزينة إذا كانت لانزال سليمة ، ففيها الفطنة والذكاء والظرف والجاذبية .

وحقاً أن البادية والصحراء كانتا كسور أو كحصن عزل العرب عن الناس حتى أمكنهم أن يحافظوا على عروبتهم الغالية الشريفة ثم ماذا ؟ يحدثنا ذلك التاريخ . إنه كان الشعر في حروب عرب الجاهلية يقوم مقام الآلات الموسيقية أو القرع بالطبول أو النفخ بالآلات في أكثر الحالات .

كانوا في خروجهم للغزوات يتغنون بالشعر في مواكبهم فيطربون وتجدش همم الأبطال ويسارعون إلى مجال الحرب .

الفن والمسرح في الاسلام

وقت نزول الوحي

جاء الإسلام والعرب على هذه الحال الخاصة بالفن والمسرح عاكفين عليها لاهين مستمسكين بهذه العقائد الفاسدة التي زينها لهم شياطين الجهل من الجن وأنصارهم من أولئك الكهنة الذين يدعون الاتصال بالسماء ، فصاح فيهم صيحة الحق مرشداً إليهم أن هؤلاء الكهنة وأن اتصلوا بالسماء حقاً عن طريق إخوانهم من مردة الجن الذين كانوا يسترقون السمع ، إلا أنهم لم يتصلوا بالله تعالى . وهم فاسقون آثمون ، بل جاهلون . فينبغي ألا تصدقوهم ولا تأخذوا عنهم الدين ، ولقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم .

ثم صاح فيهم غير مرة ناطقاً عليهم بالحق فتراه يقول في مرة (والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) .

وفي مرة (وما علمناه الشعر وما ينبغي له . إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين) .

وفي مرة (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب أليم ، وإذا تتلى عليه آياتنا ولي مستكبراً كان لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشره بعذاب

أليم ، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها
وعند الله حقاً وهو العزيز الحكيم) .

وفي مرة أخرى (أفن هذا الحديث تعجبون ، وتضحكون
ولا تبسكون وأنتم سامدون فاسجدوا لله واعبدوا) .

وغرضه سبحانه وتعالى من كل هذه الأقوال أن ينقد حياة هؤلاء
العرب النقد الموجه : ويدلهم على حياة أرقى وأرشد وأعلى شأنًا وقدرًا
دون أن يمس ذلك الفن الرفيع بشيء . ودون أن يمنع ذلك المسرح
المقدس بحال .

فكل كلامه سبحانه وتعالى منصب على سفلة الشعراء والسفلة التابعين
لهؤلاء الشعراء الذين يرددون ويتغنون بشعرهم الساقط الذي يبلغ درجة
الاسفاف والفحشاء ، منصب على سوء الاخلاق وإباحة البغاء في مسكنة
المسكرمة وما حولها من بلاد الجزيرة . منصب على أهل الطرب من
المشركين بصفة خاصة لانحطاطهم وانحطاط فئتهم .

أى أن كلامه سبحانه وتعالى في هذه الآيات إنما كان ثورة أى ثورة
على أولئك المشركين الكافرين باليوم الآخر وما فيه من حساب
وجزاء ، وعلى الفن والمسرح في هذه الجاهلية الاولى لما كان يصاحبه
من رداءة وتأخر وقذارة ورجس من عمل الشيطان .

حقاً لقد كان الزيغ والزندقة والضلال والإلحاد من أهم الأسباب
في فساد ذلك الفن والمسرح عند العرب الجاهليين كما هو الشأن في هذه
الازمان التى انحطت فيها العقلية الإسلامية — فإن التاريخ يعيد نفسه
والفلك يدور دورته فإذا كل أمة تبتدىء وتعيد وتقلب على كل

الأحوال من الخير إلى الشر ومن الشر إلى الخير .

ان أولئك الجاهليين من العرب كانوا في شغل عن الدين الصحيح والتوحيد والإيمان بيوم الدين ، متفرغين للدنيا وحدها راغبين في نعيمها وحده ، فجاء الإسلام يقرأ عليهم القرآن آيات بينات ، مقررأ إن هذا الشعر والغناء وهذا اللهو واللعب نعيم حقاً ، ولكن يجب ألا يصرف عن نعيم الآخرة وهو أكبر نعيم خلقه الله تعالى للناس . فينبغي ألا تؤثر الأصغر على الأكبر ، وعلى الناس أن يطلبوا الجمع بين النعيمين ، يطلبوا الآخرة ولا ينسوا حظوظهم المقسومة لهم في الدنيا ، ويطلبوا الدنيا فلا ينسوا ما أعد لهم من النعيم في الآخرة .

على الناس أن يسيروا مع قوانين الإسلام جنباً إلى جنب لترتقى حياتهم ويرتقى الفن والمسرح لديهم فإنه لا ارتقاء في أى جهة كانت ، إلا بالدين ، بل بالعلم ، وهل العلم إلا الأقوال والأفعال الشارحة للدين ؟ وهل الدين إلا مجموعة من العلوم على اختلاف أنواعها تتفق ومصالح الناس ؟

والقول المفسر والمؤكد لهذا الحكم أن الاسلام إنما جاء يقرأ على العرب القرآن مبيناً حقيقة أرباب اللهو واللعب علاجاً وإصلاحاً لحالهم ثم علاجاً وإصلاحاً لحال العرب والناس كافة ، وهكذا يحاول كل مصلح الإصلاح من هذه الناحية الهامة في أى زمن من الأزمان ، سنة الله وان تجد لسنة تبديلاً ، فإنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها . وقد أثمرت دعوته الثمره الطيبة فاستطاع أن يعالج ويصلح هذه الحياة الفئمة والمسرحية ويعالج ويصلح الناس ، أى أنه بهذا الوعيد

والوعد والترهيب والترغيب استقام الفن والمسرح وتحرراً من الفساد
والعبث خالصين لله تعالى ليس للشيطان فيهما أى نصيب . فصلحت
الحياة واستقام الناس كما أمروا الله رب العالمين .

وها أنت ترى أن رسول الله يأذن بالغناء والضرب بالدف ، عند
الامر المناسب فى بيته وهو أشرف البيوت على الإطلاق .

فهذه هى عائشة الصديقة رضى الله تعالى عنها بنت الصديق رضى الله
تعالى عنه ، تقول : إن أباً بكر دخل عليها وعندها جاريتان فى أيام منى
تغنيان وتصربان ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى بشوبه ،
فانتهرها أبو بكر . فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، وقال دعمهما يا أباً بكر ،
فإنها أيام عيد .

وترى من هذا أن عائشة كانت أعلم من أيها بهذا الامر ، ويشهد لهذا
أن رسول الله صوب عائشة وخطأ أباً بكر ، ولا غرو فى ذلك فإن شدة
مخالطة عائشة لرسول الله ، جعلت منها عالمة رفيعة القدر ، ولهذا يقول
رسول الله (خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء) .

بل إن أزواج رسول الله كن عالمات كذلك ، ألا ترى الله تعالى
يقول (وقرن فى بيوتكن ... واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله
والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً) .

أمرهن بالاستقرار والمسكن فى البيوت ليلا زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم
ويقرن به ما استطاع من الاقتران ، لطلب العلم والاطلاع على أحواله ،
ليبلغنها للأمة ، وينشرنها فى الناس كل وقت .

ومن اللطف بهذه الأمة بل من الحكمة العالية أن يكون من نساء

رسول الله محدثات ومتعلقات ومرشدات وعالمات .

بل هذا ما يقتضيه علم الله تعالى الخبير ، فإن دفع نساء هذه الأمة إلى طلب العلم — وقد كان بيت رسول الله مدرسة للنساء ولطلاب العلم من السائلين الغادين والرائحين — ليكن معلمات وراويات ، بل مساعدات في تبليغ الوحي والرسالة ، من أروع ما يكون ، ومن أبلغ الأساليب المؤثرة في هداية الناس إلى الخير والحق . والأمة التي يكون للنساء نصيب في وراثته العلم والمعرفة ، هي التي تنهض بسرعة وبقوة ، شأن هذه الأمة الإسلامية عند نشأتها ، كما نرى ، ومعنى هذا أن أية أمة حرمت نساءها من ميراث العلم والمعرفة ، وقصرت على الرجال وحدهم ظلماً بغير الحق . هيات أن تنهض بسرعة وقوة وتبلغ ما بلغه السلف المسلمون ولكن لتتذكر أن لابي بكر رضى الله تعالى عنه العذر ، والعذر المقبول ، لأنه إنما فعل ما فعل ظناً منه واجتهاداً ، والمجتهد قد يخطئ . وقد يصيب ، فلم يكن قد بلغه ما بلغ بفته عائشة رضى الله عنها وعنه أجمعين .

على أن هذا الدين ليس فيه تنطع وتشدد ، بل فيه سماحة ويسر ، وقد تكون أمنا عائشة عرفت ذلك خاصة قبل أبيها ، نظراً لقربها من رسول الله ﷺ ، أكثر من أبيها الصديق ، لأن الزوجة أقرب إلى الزوج من أى إنسان كما ذكر قبل . جزى الله الجميع عنها أحسن الجزاء . هذا ما كان من أمر الغناء والضرب بالدف والزمير في الفن والمسرح في الإسلام في هذا الحديث الذي يعد محور أول تلك الدراسات الخاصة بالفن والمسرح في الإسلام .

وها أنت ترى محوراً غيره ، يقول عبد الله بن عمر رضي الله تعالى
عنهما ، حدثني أبي عمر بن الخطاب ، قال بينما نحن عند رسول الله ﷺ
ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ،
لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ
فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال يا محمد أخبرني
عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ .

الإسلام : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم
الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه
سبيلاً ، قال صدقت ، قال فحببنا إليه يسأله ويصدق .

قال فأخبرني عن الإيمان : قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه
ورسله واليوم الآخر . وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت .

قال فأخبرني عن الإحسان : قال أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم
تسكن تراه فإنه يراك .

قال فأخبرني عن الساعة : قال ما المسؤول عنها بأعلم من السائل .
قال فأخبرني عن أماراتها : قال أن تلد الأمة ربها ، وأن ترى الحفاة
الغراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان .

قال ثم انطلق فلبث ملياً .

ثم قال لي يا عمر أتدري من السائل : قلت الله ورسوله أعلم ، قال
فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .

فهذا الحديث الشريف يعتبر أصلاً من أصول التمثيل وضرب
الأمثال ، لا سيما إذا أضفنا إليه حديث القرآن الكريم عن داود

عليه السلام مع الخصم وهما ملكان إما جبريل ومكائيل وإما غيرها من الملائكة ، جاء لداود عليه السلام ليثلا خصمان بغى بعضهم على بعض في أخذ زوجته وتركه بلا زوجة مع أنه في غنى عنها ، بنفسائه الكثيرات التي بلغت تسعة وتسعون ، لينبها داود عليه السلام إلى ماوقع منه شيئا بقصتهما المخزعة إختراعاً على سبيل التعريض بـداود ، كي يرعوى ويتوب وينزل للرجل عن زوجته ، ف تعود إليه زوجته الوحيدة . وفي اعتقادي أن هذا الأصل وحده كاف في التدليل على وجاهة التمثيل وحكمته ، إذ هذه الصناعة التربوية لها قيمتها الكبرى في التهذيب والتقويم ، ولها مكانتها في علم الأخلاق والآداب الرفيعة . فقد جمعت بين عدة مبادئ أخلاقية سامية . هي الإرشاد مع التقية ، وعدم الإحراج والإساءة ، ثم الحفظ والستر في ذات الوقت ، وذلك بحال واسع يتنافس فيه المتنافسون .

ثم ها أنت ترى ذلك المحور الثالث الذي نعتمد عليه في تقرير الفن والمسرح في الإسلام . في هذا الحديث الهام ، الذي تقول فيه عائشة ، دخل رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بغاث فاضطجع على الفراش وحول وجهه ، فدخل أبو بكر فانتهرني وقال : مزمار الشيطان عند رسول الله ، فأقبل عليه رسول الله فقال دعهما ، فلما غفل غمزتهما فخرجتا ، وكان يوم عيد يلعب السودان (الحبشة) بالدرق والحراب ، فإما سألت رسول الله ، وأما قال تشتهين تنظرين ، فقلت نعم ، فأقامني وراءه ، خدى على خده ، وهو يقول دونكم يافى أرفدة (أى عليكم بهذا اللعب الذي أنتم فيه) .

حتى إذا مللت ، قال حسبيك ، قلت نعم ، قال فاذهبي .
وهذا بالإضافة إلى الحديث القائل ، أنه صلى الله عليه وسلم مر ،
على أصحاب الدركة ، فقال جدوا يا بني أرفدة حتى تعلم اليهود والنصارى
أن في ديننا فسحة .

والدركة بكسر الدال والكَاف لعبة للعجم ، وضرب من الرقص
يسمى الزفن ، ومن سوء الحظ أن الرواة لم ينقلوا تمام الكيفية والطريقة
الخاصة بهذه اللعبة وبهذا الضرب من الرقص ، فيجدر بالباحثين الآن
أن يجتهدوا في معرفة هذه اللعبة ، وهذا الرقص عن طريق الحبكة
بالذات إن أمكن لأنه أصل يقاس عليه . ومعرفة ذلك الأصل تساعدنا
على دقة القياس عندما نريد أن نسير عليه بنصه وفصه ، وبروحه ومعناه ،
ولأنه التاريخ والتاريخ علم يتطلب الدقة لئلا نلحق به إذا أردنا البناء عليه
والتجديد في تلك الناحية الفنية والمسرحية .

على أننا لو نظرنا إلى هذين الحديثين ، وهذا الحديث القائل
اختصم على وجعفر وؤيد بن حارثة في ابنة حمزة فقال لعلى أنت منى
وأنا منك ، فحجل وقال لجعفر أشبهت خالق وخلقى فحجل ، وقال
لزيد أنت أخونا ومولانا فحجل) والحجل هو الرقص ، والوثب
والحركة المنتظمة الطروبة ، لتبين أن هذا الإسلام إنما يقدر الفن أياً
كانت جنسيته عربية أو أعجمية ، بدون تعصب ولا تعسف ولا غضاضة
فلقد أفسح له صدره ، وجعل من مسجد المدينة وهو أقدس مكان فيها
مسرحاً مقدساً أو داراً للتمثيل ، أو برا إلهية . لا أوبرا ملكية وأوبرا
إلهية أخص من أوبرا ملكية لأن كلمة إلهية لا يشترك فيها أحد مع الله

تعالى ، ولكن أوبرا ملكية ، الملكية لفظ مشترك يطلق على الأوبرا التي لله تعالى وملوك الأرض من العباد ، وأن صح أن تطلق كلمة أوبرا ملكية على المسجد ، فهذا بالنظر إلى أن هؤلاء الاحباش كانوا يلعبون ويرقصون على أنهم جنود وعساكر لله تعالى والاسلام ، وعلى أن ذلك اللعب والرقص استعراض أمام هذا المليك العام الله جل جلاله ولو أننا نظرنا إلى هذه الاحاديث الثلاثة وإلى ذلك الحديث ، أعلنوا هذا النكاح ، واجعلوه في المساجد ، واضربوا عليه بالدفوف ، وهو حديث جميل بدليل أن إعلان النكاح الذي يكون على هذا الوجه المذكور في هذا الحديث جميل ولا شك في أنه جميل . اصح أن ننظر إلى المسجد نظرة أخرى عالمية ، فوق نظرنا إليه على أنه المسرح المقدس . فإن توارد الفن عليه من عرب وعجم ، من الوافدين والمقيمين يبدون للحاضرين مهارتهم في الفن ، وإتقانهم العجيب للعب والضرب والعزف يجعل المسجد في الإسلام بمثابة مسرح مقدس عالمي .

ولأنه لا غرابة ولا دهشة في ذلك الأمر ، فإن الإسلام دين عالمي . ورسوله ﷺ رسول عالمي ، والعالمية طابع هذا الاسلام وهذا الرسول في الفن وفي المسرح ، بل طابعهما في كل شيء .

على أننا إذ نلاحظ هذه المعاني والتشريعات الإسلامية الكبرى نجد أننا حين نستقدم تلك الفرق الفنية الأجنبية إلى مصر ، لتظهر فيها أمام الجمهور ، عسى أن يكون له من ذلك حافزاً يحفزه إلى الامام . إنما نقرب من الإسلام أي اقتراب ، من حيث لا نعلم ولا ندري ، بغض النظر عن أي شيء آخر .

فمعجباً لهذا الدين أى عجب ، وعجباً لنا حيث نقرب من هذا الدين
وتحن غافلون .

ثم ها أنت ترى ذلك المحور الرابع الذى يدور عليه أمر ذلك الفن
والمرح الفكاكى أو الضاحك فى الإسلام ، متمثلاً فى هذا الحديث ،
بل فى هذا المبدأ الراقى العظيم . وهو ما نقله أحد الشهود الذين رأوا
ذلك النبى فى أخلاقه عظيماً وفى سياسته حكيماً ، يقول ذلك الشاهد كان النبى
يمزح ولكنه لا يقول إلا حقاً ، يعبر ذلك الشاهد عما رآه رأى العين ،
وينقل ما شاهده وكان فى نقله نعم الأمين .

نعم كان ذلك النبى العظيم ، يمزح ترويحاً عن نفسه ورياضة لعقله
فإن لعقل الإنسان عليه حقاً ، وملاطفة لأصحابه وتمفيساً عنهم ، ولكنه
كان فى الوقت نفسه نعم الصادق الأمين حتى لا يمله ولا يكرهه أحد ،
فكان كل من عرفه يحبه حباً جماً ، ويكاد يعبد من حسن التصرف
وكرم الأخلاق ، ولا عجب فهو محمد بن عبد الله الذى زكاه الله تعالى ،
وأقسم له قائل (وإنك لعلى خلق عظيم) .

وهو محمد الذى هداه الله تعالى إلى مكارم الأخلاق ، وكلفه بأن يأخذ
العفو والسهل من الأخلاق ، ويأمر بالعرف ويعرض عن طريقة الجاهلين
من الصمت التام أو الجد على طول الخط ، (خذ العفو وأمر بالعرف
وأعرض عن الجاهلين) ، ليتقرب ويتجنب للناس بهمة المكارم من
الأخلاق ، فهو رجل مجتمع عظيم فلا بد من الأخذ بهذه السياسة
العليا الكبيرة .

وهو محمد الذى أمّن الله تعالى عليه بخلق اللين والحكمة حتى اجتمع

عليه أشرف الناس ، وعظماؤه الخلق ، أنظر إلى ربه تعالى يخاطبه بهذا الخطاب الكريم (فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانقضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر) . حتى كان هذا الخطاب قاعدة من قواعد السياسة الكبرى التي أعد لها محمد الرئيس والاب والراعي فكان يتنزل ويتواضع مع أصحابه ويتبسط معهم ويمزح معهم ، ويعفو عنهم لا سيما في ساعة المزاح ، فقبل منهم المزاح الأدبي — رغم أنه كان يمنعهم منه الحمية والمقام — فلا مؤاخذه ولا عتاب ولا ملام ، بل بسطة وسعة في الخلق تطيباً لحاظهم ، وتخفيفاً من عناء التكاليف الشاقة ، برأ بهم واستعادة للنشاط وطرذاً للسأم والملل ، الذي يستولى على النفس أثناء الجد والاجتهاد والدأب والسعي المتواصل . والذي يدب مع الضعف إلى الإنسان وقت الإرهاق والانكباب على العمل الوقت الطويل .

ولكن هذه طبيعة الإنسان تحاول التخلص من ذلك السأم والملل ، أي الكراهة والبغض للعمل في حال الضعف والتعب ، بالمزاح والمداخلة والملاعبة (وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون) . وهل ننسى أنه تعالى (أضحك وأبكى) وأننا نحن العبيد موضع ذلك الضحك والبكاء الواقع عليه ذلك الفعل الإلهي .

وهل ننسى أن المزاح قائم على الإبهاء والإضحاك إزعاجاً ، ثم بشرى كما قال رسول الله ﷺ للعجوز التي سألته ، هل تدخل الجنة ، فقال لها : (لا يدخل الجنة عجوز) فجزعت وحرنت ، فقال لها : (إنا أنشأناهن فجعلناهن أبكاراً) أي لأنها سوف تدخل الجنة شابة

فى سن الثالثة والثلاثين فضحكى وسرت .

والآن ترى أن كل الذى ترى من المحاور والأصول الأربعة التى جاءت واضحة جليلة بشأن الفن والمسرح الإسلامى المقدس ، وكانت له بمثابة القواعد والأركان أو الأعمدة التى هى كل شىء فى قيامه فناً ومسرحاً سوياً ، يمثل المدنية والحضارة العربية علاوة على الإسلامية العالمية تليدة أو طارفة موروثية أو مبتدعة مستحدثة ، إن هى إلا تشريع من أهم التشريعات الضرورية لنهضة هذه الأمة من رقادها ، ولسيرها بإطراد إلى الأمام ، فى سبيل الخير والسعادة ، فما كان الفن والمسرح . إذا قاما على أسس الدين والتقوى وإذا خلقاً هذا الخلق الجديد ، إلا أداة تعاون فى هذه الحياة للناس على بلوغ الأمانى العالية وتحقيق الآمال الشريفة ، لأن الله سبحانه وتعالى جعلهما من دعائمه هذه الحياة العالية الطيبة الجميلة ، بل جعلهما من وسائل رقى الفرد والجماعة .

ألا ترى أن الفن محرك لأسمى المعانى فى الإنسان ، وأن المسرح مؤثر قوى على المشاعر النبيلة فى هذا الإنسان ، وعامل فعال فى تهذيب العواطف وإحيائها فى بنى البشر ، حتى نقودهم إلى ميادين الفضيلة والخير عن رضا واختيار وعن علم وإيمان .

ويكفى الفن والفن والمسرح علواً وشرفاً ، أنهما قد اجتمع فيهما سحر السكون وجماله وبدائع الحياة وزينتها ، وكل الناس طلاب علم وجمال ومثل عليا ومنافع ، ليصلوا إلى حياة النعيم والسلام .

فلا مناص لأحد من الاتصال بالفن والمسرح بهذا المعنى الإسلامى العظيم ، إذن ، لا مناص إذن ، فكم من أناس ظلموا أنفسهم وكفروا

بهذه النعمة والإشراق ، وغضوا من أبصارهم ، وجعلوا أصابعهم في آذانهم ، فقسّت قلوبهم وماتت مشاعرهم ومرضت نفوسهم وجمدت عواطفهم ولحق بهم من الضرر النفسى والخلقى ما لحق ، وأى ضرر أكبر من ضرر النفس والخلق ؟ (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) ، فما أكبره من عمى وهو عمى القلب ! بل ما أسرع ذلك العمى إلى الإنسان مادام لا يوالى نظافة هذا القلب وتطهيره ، بل يفتحه بالاطلاع والنظر فى ذلك العالم الذى اجتمع على منصة المسرح وتمثل فى قبلته التى تتجه إليها الأنظار جمعاء .

وإنه لأمر مدهش أى دهشة ، أن نرى هذا القرآن العظيم يدعونا إلى الاطلاع على مافى السموات والأرض ، (قل أنظروا مافى السموات والأرض وما تغن الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) ثم لا ننظر ونغض أبصارنا ونسد آذاننا عن مافى العالم منعزلين قابعين فى بيوتنا ظانين أن ذلك هو الدين والدين ، وما هو إلا الجهل والعمى ، وقلة الذوق ، بل الذوق المريض ،

أليس ذلك النظر فيما فى السموات والأرض من آيات ونذر ، درساً مفيداً ، وضرورياً لدفع الإنسان إلى الخير .

على أنه لا عذر لأحد من الجاهلين وضعفاء العقول فى ترك ذلك النظر ، بعد أن نظر أولئك الأدباء لأنفسهم ، وقدموا نظرهم إلى المسرح ، وقام المسرح فقدمه لطلابه فناً جليلاً ، ولقمة سائغة .

الفن والمسرح فى الاسلام بعد انقطاع الوحي

والان قد بان لنا أن الفن والمسرح من الواجبات المفروضة التى لا بد منها لاصلاح نفوس الناس ، وحياتهم عامة .

والآن وقد أصبحت ترى أن الفن والمسرح أصبحا من الأمور الحاققة التى تلحق بالواجبات الشرعية الكبرى وتدخل فى عداد الاعمال الصالحة وأعمال البر والخير والمعروف .

والآن وقد صرت معى تؤمن بأن المسرح ، أمر لازم لهذه الامة فى كل زمان ومكان ، لانه من يخرجها من الظلمات إلى النور بهذا الاسلوب السلس السهل الواضح بعد المسرح ؟ كما تؤمن بأن الفن عمل خالد ، إذ أنه مادام ذلك الفن عملاً نافعاً غير ضار فهو خالد ولا شك لا يمكن للامة أن تتخلى عنه برهة ، لان الخلود إنما يجيىء من نفع الناس ، والناس تجرى وراء النفع وتنمسك به ، فيخلد من هذه الوجهة وحده .
الآن وقد آمنت أن المسرح والفن حق لامرية فيه فهل كل الناس على مثل مانحن عليه أو على حال أخرى ؟

لست أشك فى أن الفن والمسرح فى عصر الخلفاء الراشدين الاربعة وفى عصر بنى أمية ظل كما هو على حاله فى عهد رسول الله ﷺ لم يتغير كثيراً ، لان المسلمين فى هذين العهدين التاريخين كان يستولى عليهم شىء معروف باسم الغزو والفتح والتوسع فى الممتلكات والاستزادة فى السلطان ، فلم يكن عندهم إتجاه إلى هذه الفنون الجميلة ، بقدر ما حدث فى العهود

سبب
من
تسبب
من
تسبب

التي جاءت بعد ، وأين هو الوقت الذي يسمح لهم بالتفرغ والإجادة والإتقان والتحسين ؟ وقد كان كله مصروفاً إلى نشر الدعوة وتبليغها إلى الناس ، وبسط سلطان الإسلام كي يتمكن العالم من العلم بدعوة الله تعالى الجديدة إليه . وهو أمر ليس بمستغرب في عهد الخلفاء الراشدين الذين بلغ حب الإيمان وتغلغله في قلوبهم المنتهى ، وفي عهد بني أمية ، وهي الدولة التي مثلت العروبة والإسلام تمثيلاً كريماً إلى حد الجود ، وكان هذا الجود فضيلة من الفضائل التي تحمد عليها حمداً كثيراً .

أما في عصر العباسيين ، فقد تغير على وجه الاجمال الفن والمسرح كثيراً ، ودخلت الحياة الفنية والمسرحية في دور جديد على وجه العموم يختلف عن ذي قبل . فإن طابع عصر العباسيين كان هكذا ، طابع إنقلاب وتوسع في كل شيء ، بقدر الامكان والاستطاعة وإقبال على المدنيات والحضارة القديمة ، للاستعانة بها والاستفادة منها ، أيا كانت جنسيتها عربية أو أعجمية .

ولإذن كان لا بد أن الفن والمسرح إلى حد بعيد يتغير عن أصله المعروف عند العرب ، وتدخل الحياة الفنية والمسرحية في عهد جديد . مما جعل هذه الأمة تهتم اهتماماً ، والاهتمام بالحديد أمر طبيعي لما جبلت عليه النفس من حب المعرفة والاستطلاع والبحث عن الخير ومداه وعن الشر ومداه ، حتى يمكن لها أن تحصل على ما قدر لها من نصيب في السعادة والرفاهية في العاجل والآجل .

فكان من الضروري أن تستلقت هذه الظاهرة التي حولت الفن

من حال إلى حال ، وصرفت اهتمام هذه الأمة ، وبالأحرى وزعته بين هذا الفن والمسرح وبين باقى الامور الأخرى ، نظر رجال الدين فى ذاك الوقت وهم الحقةظة عليه الذين يراقبون الاحوال العامة ريقعدون لها بالمرصاد ، ليحكموا عليها بالصلااح أو الفساد أو الخير والشر ، ليكون للدين سيادته وسلطانه على الحياة ، فلا يدخلها أى نوع من الفساد أو الشر ، وتصبح كلها طاعة لله سبحانه وتعالى .

ولكن من هم رجال الدين فى ذاك الوقت ، وما هو نظرهم بالنسبة إلى هذه الحال ؟

رجال الدين فى ذاك الوقت ، هم رجال الدين فى الوقت الحاضر ، هم أولئك الصوفية ، وأولئك الفقهاء ، وقد كانت هذه الطائفة الأولى فى ذاك الوقت تقوم بالبحث والاجتهاد ووضع فهم ومذهب خاص بها . كما كانت هذه الطائفة الأخرى تقوم بالبحث والاجتهاد ووضع تشريع خاص فى الناحية التى قصرت عليها طلبها .

أى إن الصوفية والفقهاء كانوا مجتهدين وأحراراً فى البحث فى ذلك لوقت غير مقلدين كما هم الآن ، فكان أمراً طبيعياً أن يختلف اجتهادهم وبحشهم إلى حد ما ، تبعاً لاختلاف نظرهم ، واختلاف النظر أمر جنبل فى البشر ، أراد الله تعالى فكان لىكون من العالم وحدة حرة متميزة ، بعضها فوق بعض شهيد وحفيظ ، لىكون فى ذلك مجد الله تعالى وعدله الذى خلق الناس متساوين فى الفطره والهداية ، ومتساوين فى الميول والنزعات ، وجعل منهم أمة واحدة ، ثم ليظهر فضل أوليائه تعالى الطائعين الذين ذهبوا فى طريق الفطرة معرضين عن طريق الغواية ،

على أعدائه تعالى من العصاة الذين مالوا إلى الشر ونزعوا إلى طريق الفساد ، والله عزيز حكيم .

والآن نسوق للناس اجتهادهم وبحشهم المختلف ، ونسوق إليهم نظر كل طائفة الذاهب مذهباً غير ما ذهب إليه غيره .

نظر الصوفية إلى الفن والمسرح النظرة الحكيمة التي نظر بها رسول الله ﷺ . وهي النظرة التي فيها سعة على الناس ، وتقدير لهذه الناحية المجيدة التي لها أثر كريم ، في حياة الناس إذا استغلت الاستغلال الجليل .

أى أن نظرة الصوفية إلى الفن والمسرح هي النظرة الصادقة ، والفكرة السليمة إلى أبعد الحدود ، لأنها هي هي ما كان عليه رسول الله ﷺ ، وهم قوم طريقتهم اقتفاء أثر رسول الله ﷺ علماً وعملاً ، ولا ينبغي عندهم الوقوف عند حد العلم وحده . أو الوقوف عند العمل فحسب ، بل ينبغي الجمع بين العلم والعمل لتصل إلى نتيجة مرضية .

وهذا هو رسول الله ﷺ لم يثر أى ثورة إلا على الفن والمسرح الذى كان من عمل الجاهلية الأولى ، كما يتجلى ذلك من نصوص القرآن الكريم ، ومن النصوص الأخرى الشارحة له والمبينة فهذه النصوص ليس فيها إلا ما ينبغى على أهل مكة أخلاق الجاهلية الأولى ، ويشن الغارة على ذلك الفن والمسرح الرقيق ، ويشدد التنكير على ما يصاحب ذلك الفن ويدخل في وظيفة المسرح من الإثم والفاحشة .

ألم تر إلى ذلك الغناء الوضع الذى يمدح الخمر ، ويشيد بالشراب المحرم .

ألم تر إلى ذلك المزممار الردى الذى لا يزيدك إلا إنكاراً ونفوراً
لأنه لا معنى له ولا رقة فيه ، وليس فيه إلا قسوة القلب وجود الفؤاد .
وألم تر إلى مجالس السمر والآنس وكلها فسق وعار وعبث لا طائل
ولا جدوى منه إلا تصدع الرأس ووجع القلب السليم برغم أن أكثر
العامه يندسجمون منها كل الإنسجام وتقر أعينهم بإتيانها وهم يعلمون
خبثها وحرمتها عليهم .

وألم إلى ذلك الرقص الحقيق الذى لا يمثل إلا سفالة الأخلاق
وأحط المعانى التى تدعو إلى الفساد وتحرض على الفاحشة والفجر والعهر
فى الرجال والنساء من هز الردفين أى الاليتين وتحريك الثديين وتلعب
الخصرين ، مما يخجل فيه حياء الإنسان ويشير فى نفسه الأسى والبؤس
لهذه المشاهد الكريهة التى لا معنى لها إلا سقوط أخيه الإنسان .
وبماذا أحدثك بعد ؟ ألم تر إلى الاستهتار والمجون ، من الراقصات
اللاتى يرقصن على حجر وفى أحضان أولئك الفجار والطواغيت
من الرجال ؟

وألم تر إلى نفس بعض الرجال الزوانى تطوع لهم ، بلبس تلك
الراقصة فى ملابس العفة واللبشاشة فى وجهها حتى تأخذ ما تشتهى منها
من قبلة أو ضمة علانية جهاراً ، وهى راضية بهذه الفوضى ، وهو راض .
أليس ذلك هو البغاء ، وإشاعة الفاحشة فى الناس ، وتعدى حدود
الله ، ومن يتعد حدود فأولئك هم الظالمون ؟

إذن كانت نظرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الفن والمسرح
نظرة إصلاح لا هدم ، وكانت فكرته فى هذه الناحية الفنية والمسرحية

فكرة تهذيب وتقويم وتحسين لا فكرة تقويض واستئصال واجتثاث .
فلم يرد رسول الله إلا تزقية أخلاق ذلك الفن الجميل والمسرح العام ،
بأن يخلصه من الضعة والخسة التي كان ساقطاً فيها كي يرتفع إلى مستوى
الفضيلة وكريم الخلق ، حتى إذا أصبح كذلك ، أمكنه أن يقف على
ساق وقدم لا يعترض أحد سبيله ، ولا حرج عليه في أي مكان
وزمان وجد .

وهكذا الصوفية الفضلاء ، يمثلون نظرة رسول الله وفكرته الصحيحة
الراقية ، ولا يريدون إلا ما أراد من الخير لهذا الفن الجميل والرفعة
لهذا المسرح المجاهد .

أما الفقهاء فهم على نقيض هذه النظرة . نظر هؤلاء الفقهاء إلى
الفن والمسرح نظرة تشاؤم وحكموا عليه بأنه هو حرام وإثم مبين
محتجين بهذه الآية (والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر إنهم في كل واد
يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات
وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين أي منقلب ينقلبون) .

ولكن هذه الآية لا تؤيد مدعاهم ، لأنها تقص علينا من أخلاق
الشعراء الجاهليين وأخلاق أتباعهم الجاهلين ما تقص ، فهو لاء الشعراء
ليس لهم أتباع إلا من أمثالهم الفاسقين الذين يرددون شعرهم اعجاباً
واستحساناً ، يطلبون به الدنيا والمنفعة ، بدليل أنهم يهيمون بالرحلات
والأسفار في كل زمان إلى الأقطار العربية للتكسب والارتزاق به ،
وبدليل أنهم كاذبون غير صادقين في هذا الشعر ، ولكن سيعلم هؤلاء
الظالمين أي منقلب ينقلبون ، إلا من آمن من الشعراء وأتباع الشعراء

وكافح من أجل الدعوة الإسلامية ونصرة مكارم الاخلاق .
و محتجين بهذه الآية (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ، ليضل
عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين ، وإذا
تلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كان لم يسمعها كان في أذنيه وقراً فبشره
بعذاب أليم ، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين
فيها وعد الله حقاً وهو العزيز الحكيم) .

ولكن هذه الآية لا تؤيد مدعاهم لأنها إنما تتوعد بالعذاب الأليم
ذلك الذي يشتري الأحاديث اللاهية عن هذا الدين الحنيف ويستهزئ
بما يصل إليه من نصوص إسلامية وهو جاهل سفيه ، وتعد ذلك
المؤمن الصالح بنعيم الجنة الخالد ، ولا ريب أن ذلك الذي يشتري الغناء
ليهدى إلى سبيل الله تعالى لا ليضل عنه من الناجين من العذاب
والفائزين بالجنة .

و محتجين بالآية (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر
و قرآن مبين ، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين) .
ولكن هذه الآية لا تشهد لهم ، لأنها سيقنت لئرشد إلى أن صناعة
الشعر والنظم من الصناعات الشعبية التي لا تناسب مقام النبوة والوحي
ذلك المقام العظيم ، وهل ينزل الله تعالى بهذا المقام إلى مقام الشعر
والنظم ، اللهم إلا إذا استعمل الشعر في أغراض النبوة والوحي
واستخدم في هذا الميدان الشريف ، ليس على سبيل الحرفة والدوام
والكسب والارتزاق ؟

أى أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول من الله تعالى يتلو حكمة

الله تعالى وأوامره ونواهيه على الناس ، وليس شاعراً تعلم صناعة الشعر وحذقها ، لأنه لا ينبغي له أن يتعلم هذه الصناعة لأن مقامه أجل وأسمى لأنه رسول من عند الله تعالى وبشير ونذير ، فإذا صادف أنه قال شعراً ونظماً فذلك على سبيل النبوة والوحي فلا ينبغي ويوحى إليه بذلك الشعر والنظم بانتظام وليس على سبيل تعلم صناعة الشعر ومعرفة أساليبها الخاصة ، وما كان لاحد أن ينكر عليه حق النبوة والرسالة متهماً إياه بأنه شاعر له عقل الشعراء وأخلاق الشعراء ، ألا كل سفيه من السفهاء .

ومحتجين بهذه الآية (أفن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبيكون وأنتم سامدون ، فاسجدوا لله واعبدوا) .

ولكن هذه الآية لا تخضع لما يزعمونه من رأى فى تحريم الفن وإبطال المسرح ، لأنها إنما تلومهم وتعاتبهم على عدم إيمانهم بالذكر الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى استهزائهم به ، ولهوهم وتشاغلهم وعيبتهم وفجورهم عنه ، وكان الأولى بهم الإيمان به والبكاء والتأثر والاعتاظ والشكر والركوع والسجود لله تعالى الذى أنزله فيهم وأنعم به عليهم .

فن أين إذن جاء تحريم هذا الفن والمسرح تحريماً مطلقاً ؟ ومن أين نحكم بأن ذلك الفن وذلك المسرح حرام من كل وجه ؟

قد يقال بأن الأحاديث النبوية قد وردت فى هذا التحريم وذمت هذا الفن وهذا المسرح كل الذم ، ولكن ما قيل فى الآيات المتقدمة ، يقال مثله فى تلك الأحاديث الشريفة ، لأنها إنما وردت فى نواحي

معينة في الفن والمسرح وهى النواحي الخارجة الى خرج فيها أهل الفن والمسرح عن مكارم الاخلاق ، وعن قوانين الفضيلة والحق ، مستبدأ بهم الهوى ومالك إياهم الشر ، فلا داعى إذن للتطويل وسرد تلك الأحاديث وردّها واحداً واحداً بالتفصيل إلى الحق الثابت الذى لا شك فيه .

* * *

والآن وقد تم عرض نظر هؤلاء الصوفية ونظر هؤلاء الفقهاء إلى مشروعية الفن والمسرح فى الإسلام ، أو عدم تلك المشروعية ، وانتصار نظر الصوفية بوجه عام على نظر الجهم الغفير من الفقهاء الشرعيين ، نتساءل عن أمر لا بد من التساؤل عنه ، وهو هل الترفع عن الفن والبعد عن الطرب هو الأحق والأولى أو أن الاقلال إلى حد الضرورة هو المطلوب ، أو أن التوسط والاعتدال فى الأخذ به هو الأمر الواجب فى شريعة الله تعالى العاصمة للبشر من الزلل والفساد ؟ ونحن نضع الجواب الصحيح أمام الناس الآن عساهم ينظرون فيه إلى الحق فيهمدوا ولا يكونوا فى حيرة ما .

ذلك أن الترفع عن الفن والبعد عن الطرب غير حق ، وليس بمفيد . فإنه يمتد الشعور الحى ويقتل الإحساس الرقيق ويبعث على الكآبة وسوء الحال ويجلب الغم والبؤس ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد شاهده واطلع عليه فى المسجد ، وفى غير المسجد مصاحباً عائشة مرة وغير مصاحب لها فى مرات أخرى .

وإننا لنذهب إلى أبعد من ذلك فنذكر أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم قد اشترك في هذا النوع الفكاهى من أنواع الفن ، فوق اشتراكه في هذا النوع التربوى الذى لا يتعدى أن يكون تعريضاً ببعض الناس لأنهم هم المقصودون به ، في حين أنه في الصورة درس ونصح موجه إلى بعض آخرين أو إلى العموم .

وإذن فكيف يحل لنا أن نحرم أنفسنا من هذا الأمر الذى أحله الله تعالى لنا ، لبسط النفس وتفريج ما في القلب ، ونشاط الروح والجسد والنفس لا يستقيم لها حال وكذلك البدن إلا على هذا الوجه ، وهى أن تأخذ حظها من البهجة والسرور ، لينزل ما عرض لها وطراً من انقباض وأرهاق وكل ، ألا ترى إلى الله تعالى وهو يقول (والله يعلم متقلبكم ومثواكم) أى يعلم المتقلب وهو تلك الأحوال التى تختلف على الناس من آن لآن ، وهو يعلم المثوى وهو الإقامة والحال التى يثبت عليها الناس بعد ويعامل الناس على مقتضى ذلك العلم بهذا المتقلب والمثوى .

ثم ألا ترى إليه تعالى وهو يقول (لتركبن طبقاً عن طبق فإلهم لا يؤمنون وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ..) أى أنكم لتتغيرون حالاً بعد حال ، وما أكثر أحوال الناس في هذه الحياة الدنيا ، فمن سرور إلى حزن ، ومن خير إلى شر ، وهكذا ما يزال الناس في أمور ونقيضها إلى أن يموتوا . ولو أنهم تفكروا ونظروا في هذه الأحوال التى تتناوبهم وتبدل عليهم وتتغير ، لكان هذا التفكير والنظر موجباً لإيمانهم بهذا الدين وبكل ما جاء به من تشريع خاص ، بكل النواحي ، التى من أبرزها ناحية هذا الفن والمسرح التى نحن بصدد البحث فيها الآن ، وموجباً كذلك لأن يسجدوا لله رب العالمين إذا قرئ عليهم

ذلك القرآن الكريم ، وهذا هو ما تنطوى عليه تلك الآيات المذكورة .
 وكم كان عجباً أن تسترسل آيات القرآن العجيبة في ذكر الصارف
 لهؤلاء الناس عن الإيمان بعد حضور الأسباب الداعية إليه والموجبة
 له وهو تغير الناس وخضوعهم للمقادير وأعمال الحديثين ، كم كان عجباً
 أن تذكر تلك الآيات العجيبة سبب أعراض هؤلاء الناس عن الإيمان ،
 وأن تذكر مصيرهم السيئ إلا من آمن منهم وتاب وعمل الصالحات ، وسلم بما
 جاء به هذا الدين الحنيف وأخذ فيه بنصيب ، كم كان عجباً من القرآن
 العجيب ، أن يحدثنا بهذا الحديث (بل الذين كفروا يكذبون ، والله
 أعلم بما يوعون ، فبشرهم بعذاب أليم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات
 لهم أجر غير ممنون) يحدثنا به أثر ذلك الحديث في شأن أولئك الذين
 لا يتفكرون ولا ينظرون .

ومهما يكن من شيء فإنه إذا جاز الترفع عن الفن والمسرح ،
 والبعد عن ذلك الطرب الحلال ، فأعلى صورة في هذا الأمر وأتم ،
 هي ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا كنا من الأكابر
 حقاً ، فلا يفوتنا أن نقمدي برسول الله ﷺ في هذا الترفع وهذا
 البعد غير متعدين هذه الحدود التي حدها رسول الله ، وإلا كنا قوماً
 مغالين ومسرفين وظالمين لأنفسنا في الدين ، ولسنا بأفضل وخير من
 هذا الرسول المصطفى ، حتى نزيد عليه ونشد ذلك الشذوذ غير الحكيم
 وندعى أن ذلك من الإيمان والتقوى ، وهو في الحقيقة ليس إلا من
 الخبال وسوء التدبير ، لأن لهذا التشدد والتهطع أثره السيئ ، ورد
 فعل ضار بصاحبه وبالإيمان والتقوى للذين هما محل العناية والرعاية عنده .

على أنه إذا عز علينا ذلك الترفع والبعد في هذه الصورة التي كان عليها رسول الله نفسه ، فهذا على بن أبي طالب وأخوه جعفر ، وزيد بن حارثة قدر قص وحب كل من الثلاثة في حضرة رسول الله ﷺ ولم ينهم عن ذلك الرقص والحجلان ، وهم من الأكابر والأعيان ولا شك .

وإذا عزت تلك الصورة فهذا زفن الحبشة وهذا فن غيرهم من الشبان والجواري من العرب والعجم ممن دخلوا الإسلام ، فيه ترفع عن الدنيا والتسفل الذي نراه في فن غير أولئك الذين لم يدخلوا الإسلام . فإذا أرادت كل طبقة أن تحافظ على مركزها وكرامتها وتقاليدها ، كان على الطبقة التي ورثت مقام رسول الله وهم العلماء أن ترفع عما ترفع عنه رسول الله في هذه الناحية الفنية والمسرحية . (ولأنك لعل على خلق عظيم) ثم كان على الطبقة التي في منزلة الأشراف والأعيان أن تفعل ما فعله على وجعفر وزيد من إبداء السرور والفرح في المناسبة السعيدة العظيمة استجابة للطبع البشري والفترة التي هداها الله تعالى إلى الخير والخلق الكريم .

ثم على الطبقة الثالثة وهي العامة والجمهور التي توازي نظيرتها من الأعاجم والعرب في أيام رسول الله ﷺ أن تسير في ذلك الطريق المرسوم وتقوم بهذه الحرفة والمهنة عملاً خالصاً لوجه الله تعالى ، لا لوجه أحد من الناس ، أو لعرض من الأعراض الزائلة الفانية .

وفي نظري أن في ذلك التمييز والتفصيل حفظاً للمجتمع من التدهور والسوء ، وحماية له من الفوضى المهلكة والمبيدة ، فلو نزلت الخاصة إلى منزلة العامة وارتقت العامة إلى منزلة الخاصة ، فسد ذلك المجتمع

وذهبت صورته التي تطابق صورة المجتمع في عهد رسول الله ، وهي
مثل أعلى ، نعمل ونسعى في بقائه جاهدين ، لنسعد في هذه الحياة
الأولى ، قبل أن نسعد في الحياة الآخرة .

أما الإجابة عن الشق الثاني من هذا السؤال العظيم ، والإجابة
عن الشق الثالث من نفس ذلك السؤال ، فأقول أن تلك الإجابة عن
الشق الأول منه كانت كافية وأغنيت عنهما إلى حد بعيد ، فإن الترفع
عن الفن والبعد عن الطرب في هذه الحدود التي بينهاها في هذا البحث ،
ليس إلا الأقلال إلى حد الضرورة في الإقبال على الفن والطرب ،
وإلا التوسط والاعتدال من أولئك المحبين لهذا الفن والطرب الحلال
عندما يأخذون بنصيحتهم منه ، حسبما تقتضيه الظروف وتمليه المصلحة
الخاصة والعامة ، حتى لا يضر المرء في دنياه أو آخرته .

الفن والمسرح داخل الدور والبيوت ماله من آثار حسنة وسيئة

لا شيء في الفن والمسرح إذا قام في دار من الدور وبيت من البيوت بين الزوج وزوجته أو بين السيد وأمه التي تحته بملك اليمين والرق .
لا شيء من الضيق والخرج في الفن والمسرح حينئذ ، لأنه لا ضيق ولا خرج بين الزوجين أو بين السيد وما يقتنى من الجوارى والأماء ، إلا في حدود لا تسكاد تذكر .

(١) الموسيقى محبوبة وجميلة .

(٢) العزف على آلة العزف أمر طيب حسن .

(٣) الضرب على الأوتار والضرب بالدفوف متعة للإنسان .

(٤) امرار الوتر على الوتر ليس بممنوع في شيء .

(٥) الرقص بجميع ضروبه وتشكيلاته لا يمنع منه ما نافع ما .

(٦) الغناء والإنشاد سحر حلال .

(٧) الملاعبة والمداعبة بالمعروف عمل صالح .

وهي أمور لا بد منها لرفعة النوع الإنساني وإدخال السرور والرفاهية على الحياة الزوجية وما في حكم هذه الحياة ، وإلا فقد انهد ركن من أركان سعادة الدار والبيت ، وذائق تلك الدار والبيت وبال أمرها ، ودب التفرق أو بعض التفرق إلى هذا المسكن وضعفت قوة الجذب وخف تيسار الحب الذي يربطهما برباط متين ، ولسكن ما حكم الدين بالنسبة إليها ؟

فهل يكون من الدين أن يستخدم أحد الزوجين أو الزوجان
فاصلاً من الموسيقى للرفاهية والطرب ؟

وهل يكون من الدين العزف على آلات العزف المعروفة لتطرب
وتتغير نفسياتنا إلى حال جميلة فتمتدق طعم السعادة .

وهل يكون من الدين الضرب على الأوتار وبالدفوف لئلا نشعر
بالميل إلى ما طاب لنا من النساء ؟

وهل يكون من الدين إمرار الوتر على آلة (السكمان) لنخلق تلك
الحال التي توجد فيها الحب والرغبة في السعادة الزوجية والجنسية ؟

وهل يكون من الدين أن تخرج الزوجة على زوجها والامة على
سيدها في أبهى زينة وأجمل حال ترقص أمامه كيفما شاءت من أنواع
الرقص ، على أى وضع كان ، فليس بين الزوجة وزوجها وبين الامة
وسيدها أسماء من هذه الأسماء التي نسميها الرقص الخليع ، والرقص
الخارج ، والرقص الرخيص ، والرقص المثير ، والرقص الوضع ، أن
تلك الأسماء تنعدم في هذه الحال وتختفى ، ولا يبرز إلا اسم الحرية
حينئذ ، ليفعل في هذه الحال الزوج أو السيد ما شاء حلالاً طيباً
راضياً مرضياً ؟

ثم هل يكون من الدين تلك المداعبة والملاعبة بالمعروف من
الاحاديث الجذابة ، والنظرات العاطفية واللمسات التي في موضعها في
أدب بليغ وذوق سليم . وهلم جراً .

نعم يكون من الدين هذا وذاك من كل تلك الامور بلا استثناء إذ
تجتمع وتلاقى هذه الامور في قول الله تعالى (نساؤكم حرث لكم فأنوا حرثكم

أنى شئتم ، وقدموا لأنفسكم ، واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر
المؤمنين) . فى هذه الجملة والعبارة (وقدموا لأنفسكم ...) . فليس
معنى الأمر بأن نقدم لأنفسنا فى هذا المقام والحال ، إلا تلك المقدمات
التي نقوم بفعلها لتكون مدخلا كريماً لإتيان ذلك الحرث من النساء .
وقد يكون هذا المعنى الذى انطوت عليه تلك الآية الجميلة . هو
المعنى الذى يحمله ذلك الحديث الشريف (هلا بكمراً تلعبها وتلاعبك) .
إذ التلاعب والملاعبة يشمل كل أنواع اللهو التى تسود كل عصر من
العصور . للبهجة والسرور وإشاعة الفرح والطرب بين الناس .
بل المعنيان واحد بالفعل لا يفرق بينهما أى شئ .

هذا هو أصل حرية الفن ، وحرية المسرح ، إلى أبعد الحدود ،
وكان واجباً أن تظل تلك الحرية رهينة الدار وحبسية البيت . لتظل
السر الرهيب الذى له حرمة الكبيرة . وليظل للفن المنزلى ، والمسرح
العائلى وقاره وهيبته وصيانتة وحفظه .

ولكن تطور الحال تطوراً خطيراً ، وخرج ذلك الفن المنزلى
وانتقل هذا المسرح العائلى إلى المسرح العام فى السوق الفنية بدون حياء
ولا خجل ، وبدون مراعاة حرمة الأمكنة والأزمنة ، وذلك يوم أن
ضعفت الرقابة التى كانت تراقب باسم الدين ، يوم أن أصبح الناس شبه
لا دينيين ، لا ينظرون إلى الدين إلا فى حدود ضيقة معلومة اقتضتها
السياسة العامة ، وإلا فى بعض الأحوال الخاصة الخاضعة لمحاكم الدين
الخاضعة للدولة الحاكمة ، فأصبحت ترى أمامك ذلك الفن الرخيص

الهزيل ، وأصبحت ترى أمامك الرقاعة والخلاعة والقميص والرديلة
تفعل باسم الفن في ساحة الفن ألا وهي المسرح العام .

بل أصبحت ترى الفوضى والخلط بين السيئة والحسنة من بضاعة
المسرح التي يقدمها للجماهير المشاهدة التي قلما تميز بين الخير والشر
للهم إلا قلا من كثير .

ثم أصبحت ترى البغاء ينتشر إلى جوار ذلك المسرح ، بل وفي
كنفه فهذه فتاة تدور على الرواد لتبحث عن خدن أو خليل أو عشيق .
وهذه امرأة تسير في طريق الرديلة مع الشيطان الرجيم ومع تابعين
لها من الفساق من أولى الأربعة من الرجال . وهذه أخرى ، وهذه
أخرى . تفعل المعصية جهاراً ، ويفعل معها الخطيئة بدون حذر أو
خوف . فسقط بهذا المجتمع في هاوية الفساد . وانهار خلقياً ، وأصبح
في حاجة إلى إعادة البناء فهل من علاج لهذه الحال ؟

أرى أن ما حدث من الإلغاء الرسمي كان بعض العلاج لهذه الحال ، وعسى أن
يتم ذلك العلاج في عهد الجمهورية العظيم فيقضى على جميع آثار ذلك
الخروج على الحق والتقاليد ويستأصل رأس ذلك الفساد والشر من
الفقر والجهل والأمراض الاجتماعية الأخرى .

لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها إن كنت شهماً فاتبع رأسها الذنبا
وهكذا يكون أسلوب العلاج الناجع لقوم يعقلون . وإلا ظللنا
في الخلف مع أولئك الجاهلين . وعندئذ يكون الويل لنا ، ثم
الويل العظيم .

ولكن برغم هذا العلاج نكرر ذلك السؤال مرة أخرى عسى أن
نجد إجابة أكرم وأجمل . فنقول هل من علاج لهذه الحال يكون
أوجه وأسهل ؟

ونحن نجيب على ذلك السؤال قائلين أن ذلك العلاج الذى نطلبه
إنما يكون بالفهم والتمييز بين الفن والمسرح حينما يكون خاصاً بالمنزل
والمسكن وحينما يكون عاماً يدخله كل من أراد الدخول ، وحينما
يكون خاصاً بالزوج والسيد المالك للأمر والنهى ، وحينما يكون
عاماً لغير الزوج ولغير السيد الذى لا يملك أمراً ولا نهياً .

وإننا لو راعينا هذا الفهم الصحيح والتمييز الحق ، لسلم لنا هذا
المجتمع من العلل ، ولحافظ الفن والمسرح العام على كرامته وسمعته
الطيبة التى طالما انحطت وهوت إلى أسفل سافلين بمحاكاته العرف
العائلى ، وقانون الحياة العائلية وعدم التفرقة بين مال الزوج والسيد المالك
وبين ما لغيرهما من سائر الناس .

ولست أعلم أى شىء جعل هؤلاء الناس المشتغلين والمشتغلات
بالفن والمسرح لا يفرقون ولا يميزون بين سياسة المنزل ، وسياسة
المسرح العام ، ولكل من هاتين السياستين حدودها الواضحة البينة
المعالم التى لا ينبغى تعديها ، حتى كان من صنيعهم هذا وعملهم غير الحكيم
باعث على ظهور هذا الفساد والتأخر الخلقى فى المسرح العمومى ؟

لعلمهم معذورون ، فهذا الفن الجليل هو ما ورثوه عن آبائنا
وأجدادنا الأولين . وهم يكررونه على خشبة المسرح ويحافظون عليه
أمانة إلى القرن الذى يعيشون فيه وإلى الخلف بمن يأتى بعد ، ولكن

ألا نرتقى ونقفز قفزة في سبيل الله تعالى والاخلاق الكريمة ، فما
كان لامة تريد العزة والحياة الطيبة أن تحافظ على باطل ورثته مهما
كان أمره ، فإن واجبها إذن أن تنبذ ذلك الباطل وتسعى في البحث عن
الحق مجددة بناءها وهيكلها الذي نخر عظامه الباطل ، وأتى على كل
ما كان فيه من قوة وحياة ، مستحينة بالله ، وهو المستعان .

التطور الحديث في الفن والمسرح

وموقف رجال الدين منه في هذا القرن

كان المسلمون الاولون منصرفين إلى الآخرة أكثر من الدنيا، منصرفين إلى الله تعالى أكثر من انصرفهم إلى أنفسهم ، غافلين عن عالم الفن والمسرح غفلة تفوق أى غفلة أخرى . فلم يكن يقيمون وزناً لهذا الفن الجميل وذلك المسرح الجامع من مسرات الحياة مآجع ، وقد يكون ذلك عيباً أى عيباً مادام الله تعالى قد أوصى المرء بالابتعاد عن نصيبه من طيبات هذه الحياة ومباهجها ومتعها الحلال .

والآن قد حدث الضد والنقيض ، فترى هؤلاء المسلمين منصرفين إلى الدنيا أكثر من انصرفهم إلى هذا الدين . معنيين بها عناية تفوق عنايتهم بالآخرة ، مدخلين عليها كل طارف وجديد لسكى يتمتعوا بنصيبهم فيها وزيادة في بعض الأحيان ، فإنهم قوم تمسكوا بالدين طويلاً وزهدوا في هذه الدنيا كثيراً ، وهذا التمسك وهذا الزهد حرمهم حرماناً مؤلماً من هذه الحياة ، وأخرهم التأخر الذى أعطى لغيرهم من الناس فرصة أو فضيلة السبق عليهم ، ذلك السبق الذى جعل منه سيداً لفترة من الفترات يفرض سلطانه وكلمته .

* * *

هذا ، وأن هذا الفن والمسرح إحدى نواحي هذه الحياة الدنيا المنصرفين إليها ، والمعنيين بها ، والمدخلين عليها كل طارف وجديد بعد على أثر الانصراف إليه والعناية به .

وهكذا سنة الله تعالى في الفن والمسرح في الشرق والغرب (وإن تجد لسنة الله تبديلاً) ينال نصيبه من الانصراف والعناية فيدخل عليه ما يغيره .

ابتدأ الفن بسيطاً ، ثم أخذ يتدرج حتى أصبح مركباً له طرق وأحوال ، وسيظل يتنقل من حال إلى حال ، ومن مقام إلى مقام ، حتى يكمل ويظهر كماله ، ولا انتهاء للكمال ، فما من كمال إلا وعند الله تعالى أكمل منه ، ولا تزال التجربة ولا يزال الإلهام والإيحاء مصدران من مصادر رقي هذا الفن في كل زمان ومكان .

ولقد ظل المسرح قديماً أجزاء منشورة منفردة لا يربط بينها رابطة ولا يوحد بينها غرض وسبب في هذا المجتمع بالرغم من أن الطبيعة قد ربطت بينها ووحدت ، فهذا المكاء والصفير بواسطة آلة (الناي) وبواسطة اللسان والشفقتين .

وهذه التصديقية والتصفيق بواسطة الأيدي أو بواسطة الصنوج مما يحدث الصوت المسموع المقبول .

وهذا المزمار وهذه الموسيقى مما تنعم به الروح ويشجو الفؤاد .

وهذا الضرب بالدف وقرع الطبل للاشهار والإعلان .

وهذا الغناء والنشيد وضرب الأمثال وصناعة الحكمة مما يأخذ

بالألباب وبمجامع القلوب ويزيد في الفرح والسرور .

كل ذلك وسواها مما لم نذكره كانت فنوناً وأركاناً ، كل فن وكل

ركن مستقل قائم بنفسه ثم تسكون منها ذلك المسرح المعروف ، أي أن

ذلك المسرح ابتداء أول ما ابتداء مسرحاً جزئياً ثم بتطور الزمن أخذ ينمو

ويتضاعف حتى أصبح مسرحاً كلياً يجمع كل أنواع الفن الجميل الممثلة في جميع أركان هذه الحياة الدنيا .

ألم نذكر عهد الفن القديم والمسرح القديم في سماع قصة أبي زيد ودياب . وقصة عنزة . وقصة ألف ليلة وليلة ؟

وألم نذكر عهد الفن والمسرح في الزمن الماضي عندما تفكر في المناطق بالأراجيز من وراء حجاب مخفياً عن الأنظار ليشوق الناس إليه وإلى فمه البديع .

إننا نذكر هذا العهد الأولى . ولكن نذكر بجانبه هذا العهد الجديد الذي ابتدأ في الوقت الذي تأثر فيه المسلمون بالحياة العصرية الحديثة ، وتأثر فيه فنهم ومسرحهم بالفن والمسرح الغربي الحديث فتغير تغيراً شاكلياً وجوهرياً عن ذي قبل .

ولكن في أى شيء نستطيع أن نلحس ذلك التغير في فننا ومسرحنا اليوم ؟ إننا نستطيع أن نلحسه في عدة أشياء .

(١) في آلات اللهو والطرب فنحن الآن نستعمل ما يستعمله أهل الغرب لا فرق بيننا وبينهم في شيء .

(٢) التمثيل بهذا الوضع الجديد الذي لم يكن له وجود من قبل على هذه الصفة .

(٣) تمثيل الشخصيات الدينية الكبيرة الذي نسعى جهد الطاقة أن نسير على منوالهم في هذا التمثيل ولم ننظر في هذا السبيل بشيء يذكر إذا قيس بهذا الحد الذي وصلوا إليه من حرية في هذا النوع من التمثيل مع أنه أمر جدير بأن نخوض غماره ونسبق فيه العالم لما له من الفوائد الجليلة العظيمة الشأن لو أنقن

(٤) تقليد هم في عاداتهم وأخلاقهم الاجتماعية والمسرحة من غناء النساء الحرائر ، واللبس والتقبيل واحتضان النساء عامة بدون حرج .
(٥) اتباعنا لهم في تحديد العورة التي لا بد من سترها وإخفاؤها من الجسم ، وأخذنا عنهم صفة الزي وشكله وهيئته ، والحال التي تبدو فيها النساء في الزينة إذا ما تجملن بالجواهر والحلي والعمود والمواد الصابغة .

(٦) نقلنا عنهم هذا الرقص الخاص وموافقتنا إياهم في الانطلاق فيه إلى أبعد الحدود الممكنة ، في الوقت الذي نحفظ فيه برقصاتنا البلدية الخاصة .

ونحن إذا ما جئنا لنعرض أمر هذه الأشياء على الله ورسوله وعلى هذا الدين الحنيف نستفتي ونطلب معرفة الحكم وجدنا رأى رجال الدين المعروفين يعترضنا مستنكرأ جل هذه الأشياء محرماً إياها حاكماً علينا بالإثم والبطلان .

ولكن مالنا ورأى رجال الدين هؤلاء ؟ مالنا ورأيهم الذي يحول بيننا وبين عرض هذه الأشياء على الله تعالى ورسوله وعلى هذا الدين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه عرضاً حقيقياً مباشراً . فليكن لهم رأيهم وليكن لنا رأينا ، فهم رجال ونحن رجال ، وكل طرف منا يمثل رأيه ، وهو إمام صيب يمثل رأى الدين حقيقة ، وأما على خطأ لا يمثل رأى الدين في شيء اللهم إلا ادعاء .

والواقع أن الفتوى الشرعية والحكم الشرعي الصادرين عن الله تعالى ورسوله وعن هذا الدين الحكيم في أمر هذه الأشياء التي نلبس

فيها ذلك التغير في فننا ومسرحنا يختلفان بالنسبة إلى كل واحد من هذه الأشياء .

آلات اللهو والطرب

(١) فإن الفتوى والحكم بالنسبة إلى آلات اللهو والطرب هي الموافقة والحل والاذن لأنها مما يستعان بها على الخير . ألا ترى أن استثارة الشعور النبيل والشريف بل إن التأثير على الاحساس الباطني الكريم العميق تصل بنا إلى أكبر المعاني ، بل إلى المعاني العظيمة الراقية والسامية التي يكون لها كبير الهداية والتوجيه الصحيح في هذه الحياة . أى الفن في الواقع يقوم على تحريك الشعور العام إلى جهة الخير وإيقاظه ودعوته إلى الصالح العام .

أى إن الغاية من الفن هي استغلال الغرائز والطباع البشرية استغلالاً كريماً لصالح الناس

وإذن فلا بأس من الاستعانة على استغلال هذه الغرائز وهذه الطباع البشرية بآلات اللهو والطرب مادامت الغاية من هذه الاستعانة وجيهة وفائدة كبرى للناس .

بل إن تلك الاستعانة لواجبة عين الوجوب ، برغم ما يزعمه أولئك الفقهاء الشرعيين من تحريم بعضها وإباحة بعضها ، غافلين عما في الفن وآلات الفن من معنى جليل ونفع عظيم للمجتمع ، وعاملين على إماتة ذلك الشعور العام الحى الكريم تلك الإماتة التي يتحقق فيها الضرر البالغ لهذا المجتمع الكريم .

التمثيل

(٢) وبالنسبة إلى التمثيل والتصوير على وجه العموم هي الوجوب ما دام ذلك التمثيل وذلك التصوير يرمى إلى خير الفرد والجماعة وإلى المثل العليا من نصرة المظلوم وتقديم النصيحة إلى الخطاة ، لأنه في تلك الحال يكون عملاً كريماً ، بل وسيلة من وسائل التربية الكريمة التي تتقبلها النفوس بكل سهولة وغبطة ، الأمر الذي يجعلها ناجحة ومؤثرة إلى أبعد الحدود في النفوس البشرية التي نريد لها أن تبلغ درجة الرشد والاستقامة .

وهل ننسى أن ذلك التمثيل قد يصبح ضرورة لا بد منها في حياة بعض الناس الذين لهم شأن في الحياة وفي أعمالهم التي لها خطرهما في التاريخ ؟ فهؤلاء الذين مهمتهم التجسس والبحث والعلم لصالح الدولة . وهؤلاء السياسيون الذين يسلكون طريق السلام والحكمة

كل هؤلاء يحتاجون إلى ذلك التمثيل والتذكر حتى مع أعز الناس لديهم . وهذا التخفي وهذه الدبلوماسية وهذا التمثيل من الكياسة بمكان ، حتى لقد أقره الله تعالى في القرآن الكريم حينما قال (ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون) (٦٩) ولما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون (٧٠) قالوا واقبلوا عليهم ماذا تفقدون (٧١) قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم (٧٢) قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين (٧٣) قالوا ها جزاؤه إن كنتم كاذبين (٧٤) قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو

جزاؤه كذلك نجزي الظالمين (٧٥) فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم (٧٦)

إن التمثيل وتصوير الأمور على وجه العموم حاصلة أو غير حاصلة أمر نافع ولا غنى للناس عنه في أى صورة من صور الضرورية ، ويكفى أن الله تعالى قد جعله طريقاً من طرق الوحي والوساطة بينه وبين أنبيائه الكرام ليرشدنا ويهديننا إلى هذا الأسلوب البالغ .

على أنه يكفى أن نذكرك الآن بتمثيل الملائكة دور الخصمين الذى بغى أحدهما وهو القوى على زميله الآخر وهو الضعيف أمام داود عليه السلام ، فإنه مثل يغنى عن تلك الأمثال الأخرى .

تمثيل الشخصيات الدينية

(٣) أما بالنسبة إلى تمثيل الشخصيات الدينية الكبيرة ، من شخصيات الأنبياء والرسل والصحابة والتابعين والأئمة الكبار ، فإن الأمر دقيق غاية الدقة ، لأن لهذه الشخصيات مقامها المحوط بالجلال والهيبة والوقار والرغبة ، ولا يستطيع أحد أن يتقمص أحداً من تلك الشخصيات ويتمثل بها تمام التمثيل لا سيما وأن هناك فروقاً عديدة بينه وبينها ، فإن هذه الفروق هى العقبة الكؤود التى تجعل هذا التمثيل رديئاً لا يوفى بالغرض والغاية الحقيقية فليس أحد من هذه الشخصيات بالرجل العادى حتى يستطيع الممثل وهو رجل عادى لا أكثر ، أن يبرز صورته الحقيقية للناس ، ومعنى هذا الكلام أن الممثل العادى

في استطاعته أن يمثل نظيره العادى في صورته الاصلية أو في أحسن من تلك الصورة ، لأنه يمكنه أن يصل إلى مستوى شعوره ومستوى إحساسه أو يزيد ، وليس كذلك الأمر في الرجل الممتاز في عقله وروحه وخلقه ومواهبه فإنه لن يبلغ أحد ما بلغه في وقاره وفي أخلاقه العالية . وهيئات هيئات .

ولكن هل نترك تمثيل تلك الشخصيات العظيمة في الدين ، ونحن في أشد الحاجة إلى دراستها والاطلاع على حياتها عن طريق الفن الجميل والمسرح ، فإنها قدوة وأسوة نقلدها ، وإذا لم نقلدها فمن نقلد غيرها من الناس ؟

في الواقع أن حياة هؤلاء الناس - وهم العظماء والأكابر في الدين - هي التي تمثل قواعد الدين التي ينبغي أن نسير عليها في هذه الأرض ، وفي حرمان هذا العالم من عرض حياة هؤلاء الكبراء في هذه الديانة الكبرى ضرر أى ضرر .

نعم في حرمان هذا العالم من عرض حياة هؤلاء الكبراء في ديانة محمد بن عبد الله ضرر أى ضرر لأن هذا الحرمان مؤد إلى الجهل أو هو الجهل بعينه ، وحسبك بهذا الجهل في الدين ، بل في هذا الدين العظيم من ضرر هو بعينه الضلال المبين وما يصاحبه من شقاء إلى الأبد . من أجل ذلك لا نقول بمنع تمثيل تلك الشخصيات ، ولا نرضى أن يمثلها كل أحد ، ونعتدل ونتوسط في الفتوى والحكم قائلين ، أن تمثيل تلك الشخصيات الدينية جائز على وجه العموم ، إلا أنه ينبغي أن يكون عن دراسة عميقة لا عن ارتجال ، أو شبه ارتجال .

وَألا يسمح به للبعيدين عن الدين الخالين الفكر والبال منه فإن

هذا النوع من التمثيل يستعصى على أمثالهم إجادته وإتقانه .
 وأن يكون تحت رقابة جمعية من رجال الدين ، أو يشرك فيها
 رجال الدين ، أو يقوم به ممثلون من رجال الدين أنفسهم المجيدين
 لهذا الفن العظيم ، على أن يجعل حينئذ جزءاً من أعمالهم المقدسة بشرط
 عقد مسابقة لإظهار الدين خصهم الله تعالى بشعور ديني وعاطفي كريم ،
 وتقديمهم على مآدونهم من إخوانهم الآخرين ، فإن ترك الممثلين
 أحراراً في هذا الجزء من التمثيل بلا إرشاد ولا نصيح ولا نقد ولا
 حساب يدعو إلى الفشل وعدم النجاح وضياع القصد من هذا التمثيل
 الخطير ، وهو التأثير على الناظرين والسماعين .

على أنا لا نقوم بهذا التمثيل بالفعل إلا بعد أن ندخل عليه بمقدمة
 عزيزة تبين للناس وتعرف العالم أجمع أن هذه المواقف التي يقفها
 هؤلاء الممثلون بالنسبة إلى تلك الشخصيات الكبيرة ، من العسير ، ومن
 غير المعقول أن يجيدها إنسان بعدهم ، وأن هذا التمثيل ليس إلا قياساً ،
 ومن القواعد المقررة ذلك القياس الذي يكون مع الفارق ، ليكون ذلك بمثابة
 تعظيم لهذه الشخصيات الكبرى في صورة اعتذار واستلفات ظريف .

وفي نظري أنه بالرغم من أن هذه الفتوى وهذا الحكم على هذا
 النوع من التمثيل أمر اجتهدى ليس فيه نصوص قاطعة ، تبين مراد
 الله تعالى وإرادة رسوله الصريحة التامة وتقول بالمنع أو عدم المنع في
 جلاء بين بعيد عن التردد بين القول بالحل والقول بالحرمة ، فإنه لا يصح
 منا أن نتعجل القيام بهذا التمثيل في هذا الوقت ، بمعنى أننا نمنع منه
 أي راغب فيه ومتقدم إليه إلى أن نعد العدة والجماعة الصالحة للقيام

به ، ممن يحوزون رضار جال الدين ورضا الغيورين ، حتى لا تمس قداسة تلك الشخصيات الكبرى بسوء ، ولا تصور حياتهم العظيمة إلا بأمانة وأدب عظيم .

وأى داع يدعونا إلى أن نتعجل أمراً لسنا أكفاء له ، وللسنا قادرين عليه إلا بالزور والباطل ؟

إننا نعرف جيداً أنه قلما يجيد هذا النوع من التمثيل إنسان ، وأنه قلما يصل إلى تصوير هذا المستوى العالى ويتقنه بشر ، فلنبعد عن هذا الميدان إلى أن نجد ذلك الممثل الذى يشبه تلك الشخصيات شكلاً وخلقاً . ويقرب من هذا المثل العليا : فنحن الآن فى أزمة وضائقة تمثيلية ولا نطلب من الناس فيها إلا أمراً حقاً ، وهو الصبر الجميل ، فلنكن صابرين وعاملين على تحقيق هذه الامنية الكريمة ، ولا نهجم على تلك المقامات العليا ، والدخول فيها مسرعين بدون تأهب وإذن من رجال الدين .

ولست أقصد برجال الدين هنا فى هذا المقام إلا أولئك النابهين من هذا الطراز الحديث ليس غيرهم .

على أنى أرى أن يكون إلى جوار هذا رأى ، ذلك الرأى الذى اقترحه ليعمل به الآن بصفة عاجلة إلى أن نهى أنفسنا للقيام بهذا الدور العظيم من تمثيل تلك الشخصيات الكبيرة الإسلامية ، وهو أن نمثل حياة أى شخصية من تلك الشخصيات فى بعض مواقفها أو فى مواقفها كلها بأسمائنا العادية الحقيقية - كأننا نفس أى شخصية من الناس ، ثم فى الختام نعلن أننا قمنا بهذه العملية أو بهذه الأعمال كما قام رسول الله ﷺ .

أى لم أفعل الآن إلا ما فعله رسول الله ﷺ ، مثلاً نتمثل أننا نفتح مكة اليوم من جديد ونقوم بنفس الخطة التى سار عليها رسول الله وصحابته فى فتح مكة ، ثم إذا تم لنا الفتح بالفعل وعفونا عن أهل مكة ، نعلن فى الناس أننا نفتتح مكة الآن بنفس الطريقة التى فتحت بها رسول الله تلك البلد الحرام متشبهين به ﷺ .

فيمكن ذلك العمل تمثيلاً لرسول الله ﷺ من طريق غير مباشر ، وفى الوقت نفسه اتقاء للشبهات التى تدور حول حل هذا التمثيل وحرمة وبعداً عن الريبة والظنون .

ولعمري أن هذا اللف والدوران والاحتتيال على تمثيل مواقف شخصية إسلامية كبيرة ليقف عليها الخاص والعام بصورة واضحة سهلة مفهومة من الكياسة والسياسة والحكمة يمكن وأى مكان ؟ وعلى وجه العموم أى تمثيل وأى تشبيه فى هذا المقام لا يستطيع أى إنسان أن يقول أنه تمثيل وتشبيه الغلط والخطأ لأنه على التحقيق بدل كل أو بدل بعض أو بدل اشتغال ، وكل هذه البدلات تمثيل وتشبيه صحيح وصواب

الغناء واللمس والتقبيل والاحتضان

(٤) أما تلك الفتوى والحكم بالنسبة إلى رابع شئ ، وهو تقليد أولئك الغربيين فى أخلاقهم وعاداتهم الاجتماعية والمسرحية ، من غناء النساء الحرائر ، واللمس والتقبيل والضم للنساء عامة بدون حرج .
فبالنظر إلى غناء تلك النساء الحرائر ، فلا يخفى أن الغناء فى ذاته والصوت الحسن أمر جميل محبوب يزيد الكلام حسناً وجمالاً وبلاغة

أى قوة تأثير على الشعور والإحساس .

ويكفى أننا نتعبد بهـذا الغناء والصوت الجميل أمام الله سبحانه وتعالى فى بعض هذه الصلوات المفروضة أليس فيها ترتيل لآى الذكر الحكيم ، والترتيل يلزم فيه التجويد وحسن الصوت ؟

وفى الحقيقة أن الله تعالى يحب الغناء وترديد الذكر بهـذا الصوت وبهذه الاوتار العذبة الموسيقية الرقيقة ، لأن هذا الغناء وهذا الذكر ، بل تلك الصلوات الطيبات فى هذه الحال تتجه إليه سبحانه وتعالى بضراعة وحرارة ، وخشوع وإبتهاال فى صفاء وطهر وقدر ونقاء ، وهو المناسب لمقام الله ، والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم .

دع عنك تلك الصلوات واذهب إلى ما يلبسها من آذان إلى الناس . فإنك ترى إذاعة منظمة من المساجد فى وقت واحد ، تشتمل على الغناء الرفيع .

إن الغناء والصوت العذب ، يجذب إليه النفس الطيبة لأنها مقطورة على حب الجمال ، ألا نذكر جمال صوت داود عليه السلام وكيف كان يؤثر فى الجبال والدواب (واذكر عبدنا داود ذا الایدى أنه أواب ، إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ، والطير محشورة كل له أواب) وصدق الله العظيم (وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبیحهم) كل شىء فى الـكون جميل يتغنى بمجد الله الجميل : إذن حب الجمال من صفات النفس الطيبة ، بل من صفات مولانا الأکبر عز وجل (إن الله جميل يحب الجمال) .

إذن حب الجمال من الکمال ، ولكن کمال النفس نسبي بالنسبة إلى

كأن مولانا العظيم المطلق .

إذن لتتسابق في الجمال وأعني به هنا جمال الكلام وجمال الصوت
إذن فلنحمله لأنفسنا سيداً أو عبداً ، أمة أو حرة ، لعله يكون
منا الملاك الطاهر العذب الصوت الذى يتغنى بمجد الله تعالى ، والقديس
والقديسة اللذان يعشقان الجمال ويناجيانه في صوت ساحر جميل .

وكيف نحرم أنفسنا من ذلك السحر الحلال ؟ إنه الظلم عين الظلم .
وكيف نقول بأن صوت الحرة عورة ، وصوت الحرة هو صوت
الامة ، والغناء من الحرة كالغناء من الامة ، بل هو من الحرة أرفع
مستوى وكالا وأقرب إلى الدين منه من الامة التى هى أنزل من الحرة
فى الأعم الأغلب مما يجعل غناءها أقرب إلى المنع منه إلى الاباحة

إذن المدار فى الفتوى والحكم على غناء الحرة والامة هى الأخلاق
والتأديب فى الأداء دون ميل إلى الرقاعة والبذاءة وفحش القول
والتهتك المنافى للكرامة والعزة والمناقض للوقار والجلال ، والذى هو
عنوان الشر وعلامة الفجور وهذا هو معنى ذلك النهى والأمر الأعلى
(ولا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولاً معروفاً) .

إذن فليغنى كل إنسان فى حدود الأخلاق والدين ما شاء أن يغنى ،
وما استطاع مادام قد أعطى هذا الخير والموهبة وهى حسن الصوت .

وأنها لمعصية وضلالة أن يمنع الناس من الغناء بعد هذا الأمر
الصريح به ، فهذا رسول الله علم أن عائشة زفت امرأة إلى رجل من
الأنصار فقال لها أما كان معكم لهُو ، فان الأنصار يعجبهم اللهو ،
وفى رواية شارحة ، فهلا بعثتم معها جارية تضرب بالدف وتغنى .

قالت عائشة : ماذا تقول ؟ قال تقول :

أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ خِيَانَا وَحِيَاكُمْ
وَلَوْلَا الْخَنْطَةُ السَّمْرَا مَا سَمَنْتَ فَتَانَاكُمْ

وتقول مرة أخرى كما في رواية أخرى :

لَوْلَا الذَّهَبُ الْأَحْمَرُ مَا حَسَنْتَ بَوَادِيكُمْ
وَلَوْلَا الْخَنْطَةُ السَّمْرَا مَا سَمَنْتَ عَذَارِيكُمْ

* * *

وأما بالنظر إلى اللمس والتقبيل والضم للنساء عامة بدون حرج ، فهذا اللمس الأصل فيه المنع والحرمة ما دام في موضع من مواضع العفة كالشدين أو البطن أو الردفين ، أو الفخذين أو الساقين أو الخدين أو الشعر ، ولكن في حال ما إذا كان اللمس لضرورة المصافحة أو تقبيل اليدين فلا منع ولا حرمة ، والمعول عليه في حكم اللمس هو القصد الخبيث أو الطيب ، فحيث وجد القصد الخبيث لا يجوز ، وحيث وجد القصد الطيب يجوز إذا دعت إليه الضرورة والحاجة .

ويكفي دليلاً على حظر هذا اللمس المذهب للكرامة والوقار ، ما جاء في سورة الحجرات (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا) والتجسس من الجلوس ، وهو المس باليد ، والباعث عليه الظن الخبيث ، وهذا ما يرشد إليه ذلك النص الشريف .

ولكن هل تقبيل وضم النساء عامة من الإثم والبغى كذلك ؟ لا شك أن تقبيل النساء المحرمات ممنوع ، وممنوع . لا سيما تقبيل القم

الذى يتبعه أو يقوم مقامه مص الشفة السفلى ممنه في بعض الحالات ،
ويتبعه ضمن واحتضانهم في بعض الحالات الأخرى ، وأى إنسان يرضى
أن تقع أمامه هذه المناظر الآثيمة سواء من أهله أو من غير أهله وهى
لا تعبر إلا عن الفجر والفسق ، والخيانة أو المجون . نعم يستثنى من
ذلك التقبيل ، تقبيل أيدى النساء الكبيرات ، توقيراً لهن وتبجيلاً
وتعظيماً ، فإن ذلك التقبيل من الدين ، وعلامة من علامات الأدب الرفيع
ويستثنى إلى جانب هذا الاستثناء تقبيل الكبير لمن هو أصغر منه
عظفاً وحناناً ، أو تكريماً وتشجيعاً وشكراً وتحية . وأذن وجب علينا
وحق ، أن نعمل على تجنب هذه الأمور التى حكم الله تعالى عليها بالخطر
والمنع وقالت فيها الأخلاق قوتها الصادقة وهى أنها تضر ولا تنفع .
ولكن مادامت توجد ضرورة طالبة تمثيلها على المسرح فلنلبي
تلك الضرورة طالبة عن ذلك الطريق الحلال الخالص وهو أن يكون
ذلك التمثيل مع الزوجة في هذا الدور الحرج إذ أنه أخف كراهة وأصغر
حرجاً ، لما أن الستر والحفظ حتى مع الزوجة مأمور به ، لما أن في
السرية وقاراً وكرامة للزوجين .

فإن لم تكن الزوجة من أهل هذا التمثيل فهل نقوم بهذا الدور
مع أى أنثى تحترف التمثيل ونرضى بالقيام بهذا الدور ونحن جميعاً
رجالاً ونساء كارهين مضطرين .

نعم ونحن جميعاً رجالاً ونساء كارهين ومضطرين لأن هذه القبلة
الشارجة الحاكية مع أخواتها من المخاصرة والاحتضان وما أشبه ، أمور
كريمة تسكرها النفس الحرة الآبية وتعافها ولو باعتبار أصلها الخبيث

الحرام ، وباعتبار انحطاط وخسة موضوع القصة التي نرددها في كل مكان . إذ لا شك أن القصة التي على هذه الحال لا تقبلها النفوس السليمة وتنفر منها كل النفور لأنها تحكى هذا النوع الساقط من الحب وهو الحب مع الفسق وهو حب لا يروق ولا يحلو إلا عند ذوى النفوس والقلوب المريضة بخلاف ذوى النفوس والقلوب السليمة الذين قال في وصفهم القرآن العظيم (وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون) .

على أى حال فالواجب أن تتمنع النساء في مثل هذه المواقف الحرجة عن القبلة وما إليها . ويتعففن عن مثل هذه الجبائث بقدر الإمكان لئلا يبرهن على رقى خلقهن وسمو إيمانهن .

وعلى أى حال الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى فقد يكون الشيء حراماً صورة حلالاً في الباطن ، وهذا التمثيل أمر مستحدث ، وإنما نتكلم فيه عن اجتهاد وتفكير حريصين على المصلحة العامة ، والمجتهد إذا أصاب كان له أجران وإن أخطأ كان له أجر .

على أنه إذا كان الأمر كذلك بالنسبة إلى المجتهد المفكر في هذا الموضوع فليس يخفى أن هؤلاء الممثلين والممثلات الذين ألبأتهم قواعد التمثيل العامة إلى القيام بتصوير هذا الأمر الواقعى على خشبة المسرح ليس عليهم جناح فيما يفعلون ، فقد قال نبى هذا الدين ورسوله « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

وسواء قلنا أن المرفوع عن هذه الأمة إثم الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه رفعاً كلياً كأنهم لم يفعلوا أى إثم كان . أو قلنا إن

المرفوع هو إثم الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه الكامل حتى لا يتساوى بإثم العمد نظيره في أى ناحية من النواحي بمعنى أنه يوجد إثم للخطأ والنسيان والإكراه مخفف عن إثم العمد الذى يشبهه حيث يجب على كل إنسان ألا يستسلم بسهولة دون أن يبذل جهداً كى لا يقع فى الإثم ، فإذا وقع كان عليه أن يكفر عن إثمه الكفارة المناسبة ويتوب إلى ربه توبة نصوحاً .

فما لا شك فيه أن هذا الحديث يقوى قلب الممثلين والممثلات فى التمثيل ، ويذهب بالخرج من نفوسهم عندما يباشرون فنههم الجميل . إن لم يكن الخرج كله فالخرج الكبير الذى يأتى على أثره الخوف والرعب الشديد من الله سبحانه وتعالى رب الناس ملك الناس ، لأن هذه القبلة وهذه المخاصرة وهذا الاحتضان الحرام أو ما يشبه الحرام أمور مخيفة رهيبة .

وهكذا الاقدام على الحرام أو ما يشبه الحرام مخيف رهيب لمن كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان وعلم وعقل وفهم ، لأنه إنتهاك لحرمة الله تعالى . وإنتهاك حرمة الله تعالى أمر مخيف رهيب ، فيه من الخطورة والمجازفة ما فيه .

على أننا إذا كنا نعلم أن الإكراه إنما يكون فى الامور الحرام لا الحلال ، فينبغى أن نعلم كذلك أنه إنما يكون فى الامور المتشابهات كذلك وهى الامور التى ليست من الحلال على خط مستقيم وليست من الحرام على خط مستقيم ، لأن حكمها متردد بين الحلال والحلال فتارة تتبع الحلال إذا وجدت العلل والاسباب التى تلحقها بالحلال ، وتارة تتبع الحرام إذا وجدت الامور المقتضية لأن يحكم عليها بالحرام .

وإذن فلا يحتاج بهذا الحديث « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهة ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن حام حول الحى يوشك أن يقع فيه ، إلا وإن لكل ملك حى ، وحى الله محارمه ، إذ كلا الأمرين الحرام والمتشابهات مرفوع لئيهما عن هذه الأمة فى تشريعها الدينى العظيم .

والواقع أن هذا التمثيل غير ممنوع من وجوه أخرى غير هذه الوجوه ، فهو بوضعه الحاضر بخيره وشره الممثل أمر قد سكنت عنه هذا الدين دون أن يصرح فيه بحكم صريح ، والأمر المسكوت عنه حلال بدليل الآية الكريمة (يأيه الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم ... قد سأها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين) فإلم تثر هذه الأشياء التى فى هذه الآية وتبين بصراحة فى حلال من هذا الوجه ، وكذلك هذا التمثيل الحديث حلال من هذا الوجه .

نعم حلال من هذا الوجه وحلال قياساً على تعليم هاروت وماروت السحر فى حين أن السحر من الإثم والباطل .

وإذن فليطمان الممثلون والممثلات ولا يجزعوا ، وليتمسكوا بدينهم ولا يفرطوا فى شىء منه صغير أو كبير ، وليباشروا عملهم فى ثقة كبيرة ويقين بأن دينهم سليم وأنهم أتقياء بررة ماداموا مبتعدين عن كبائر الإثم والفواحش تلك الذنوب القاصمة للظهر المهلكة للبشر . على أننا لو فهمنا هذه الحقائق ، زال سوء التفاهم الذى كان حاصلًا بيننا من أجل هذه النقطة ، وأصبحنا لا نعادى الفن والمسرح فى شىء ،

ولا يعاديننا المسرح والفن ، وصرنا أخلاء وأحبة في الدين ، نعيش
في سلام ، وسعادة ، ووثام ، بحمد الله رب العالمين .

العورة والزى

(هـ) والآن نسوق الفتوى والحكم بالنسبة إلى خامس شيء وهو اتباعنا
لهم في تحديد العورة التي لا بد من سترها وإخفائها من الجسم وأخذنا
عنهم صفة زى النساء وشكله وهيئته ، والحال التي يخرجن فيها فى الزينة
التي يحمان بها أنفسهن من : جواهر ، وحلى ، وعطور ، ومواد ملونة .
نسوقها لترى أن هذا الدين حتى هذه الساعة التي نضع فيها ذلك
البحث على القرطاس ، قد ظلم ظلماً عظيماً وجنى عليه ذلك العقل البشرى
القاصر عن صحيح الإدراك والفهم .

نسوقها ليقف الناس على أن هؤلاء الأئمة المتبوعين الآن لم يهتدوا
إلى عين الصواب فى تحديد عورة الإنسان ، وأنهم إن أصابوا فى حال
لم يصبوا فى الأخرى ، وإن صح قولهم فى بعض أخطاء فى بعض .
فى الواقع أن هؤلاء الأئمة ، عندما أرادوا النظر فى تحديد عورة الأحرار
والحرائر من الناس ، استعرضوا النصوص الإسلامية من الكتاب وشرح
الكتاب التي عمادها تلك الآيات البينات (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم
ويحفظوا فروجهم . . . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن
فروجهن ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على
جيوبهن ، ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن) الآيات لأنهم لا يقولون
فى أى نص آخر كلاماً يختلف عما يقولونه حول هذه الآيات .

ولكن هذه النصوص انغلقت دونهم وعميت عنهم ، فراحوا يفسرونها التفسير الذى يخرج بها عن مراد الله تعالى الحكيم ، وانطلقوا يشرحونها الشرح الذى يجعلها نصوصاً غير وافية بالشرع الذى تتطلبه حاجة الأمة الطالبة للمدى والمخلصة لربها الأعلى ، ثم زعموا أن تحديد عورة الناس من الأمور غير الجليلة فى دين الله تعالى وغير الواضحة ، أى أنه من الأمور المشككة الغامضة التى تحتاج إلى اجتهاد وجد وراءها واستنباط وتخريج حتى تظهر وتبدو للناس عياناً بياناً .

ومن هنا أخذوا يكونون آراءهم بحرية ويطرحونها حسبما فهموا ، ولكنهم اختلفوا فى هذه الآراء اختلافاً يديناً فيما بين أنفسهم ، كما اختلفوا فى حقيقة الأمر مع تلك النصوص الكريمة التى لم يقفوا على معناها الحقيقى مع الأسف . ولو أنهم فهموا هذه النصوص حق الفهم ، لجمعت كلمتهم على الحق ولما اختلفوا فى شيء فى هذه العورة لأمع أنفسهم ولا مع النصوص الشريفة ، فما أقبح الاختلاف فى أى ناحية كانت كبيرة تلك الناحية وهى ناحية الله تعالى ، أو صغيرة وهى ناحية الناس .

وها هى آراؤهم التى طرحوها وجمعها عنهم الكتاتيون الكرام من المهتمين بالابحاث التى تدور حول الدين .

ها هى كما وردت فى كتاب رحمة الأمة فى اختلاف الأمة فقد جاء فى ذلك الكتاب .

(فصل) وحد العورة من الرجل عند أبي حنيفة والشافعى ما بين السرة والزكبة .

وعند مالك وأحمد روايتان أحدهما ما بين السرة والركبة ،
والاخرى أنها القبل والدبر .

واتفقوا على أن السرة من الرجل ليست عورة ، وأما الركبة فقال
مالك والشافعي وأحمد ليست من العورة ، وقال أبو حنيفة وبعض
أصحاب الشافعي أنها منها .

وأما عورة المرأة الحرة ، فقال أبو حنيفة كلها عورة إلا الوجه
والكفين والقدمين ، وعنه رواية أن قدمها عورة ، وقال مالك والشافعي
إلا وجهها وكفيها .

وعن أحمد روايتان ، أحدهما إلا وجهها وكفيها ، والمشهور إلا
وجهها خاصة .

وأما عورة الامة فقال مالك والشافعي هي كعورة الرجل ، وقال
بعض أصحاب الشافعي كلها عورة إلا مواضع التقليل منها ، قال وهي
الرأس والساعدان والسافان .

وعن أحمد فيها روايتان ، أحدهما ما بين السرة والركبة ، والاخرى
القبل والدبر .

وقال أبو حنيفة عورة الامة كعورة الرجل . وزاد فقال جميع
بطنها وظهرها عورة .

إنهت أقوالهم كما هي مسطورة في هذا الكتاب . ونحن اذا ما جئنا
نستوضح من اتباع هؤلاء الأئمة قائلين لهم ما هو مأخذكم الذي أخذتم
عنه عورة الامة ؟ وجدنا أن هذا السؤال سيديهم بل سيد هشيم ،
ولكن إذا ذهبت الدهشة فماذا يقولون ؟

لا أراهم إلا أنهم سيظلوا صامتين وساكتين ، ولكن لعلمهم يقولون
إنه العرف الذي أقره الإسلام ، ولعلمهم يريدون ذلك العرف المبني
على قوله تعالى (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) ولكن إذا
كان ذلك العرف مبنياً على هذا القول ، فأى فارق إذن بين الحرة
والأمة ، في تحديد العورة ، بل أى فارق بين الرجل والمرأة في تحديدها
إذن والآية عامة ونزلت تخاطب العموم رجالاً ونساء بدون تمييز
بين هؤلاء وهؤلاء .

يا سبحان الله العظيم ، أن أقوال هؤلاء الأئمة في بيان عورة الإنسان
تبعث على الأسى والحزن ، فهل هى إلا جملة أقوال متناقضة مضطربة ،
والتناقض كلام خليط من الحق والباطل ، والاضطراب علامة الضعف
وقلة الفهم .

وهذه هى أدلتهم التى استندوا إليها مشروحة كما وقع لهم واتفق ،
بل كما انكشف لهم وظهر فى نظرهم ، مؤولة بالتأويل العاجز المحرف
لكلمات الله تعالى عن مواضعها مما جعل هذه الأدلة تتعثر فى هذا الشرح
والتأويل ويقف أثرها الحقيقى ويحجب مدلولها الصحيح عن الناس
حجباً جعل فريقاً من الناس يتناولون على هذه الأمة ويهاجمون
هذا الدين بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . اللهم إلا كتب
هؤلاء الأئمة وأتباعهم ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، كما جعل
المرحوم قاسم أمين عليه الرضوان يشور لدينه ووطنه ، ويهاجم
هؤلاء الأئمة وحدهم ويخوض فى مثل ذلك البحث العظيم مجتهداً حراً
من الأحرار فينال منهم فى بعض دون أن ينال منهم فى الكل ، وهو

أشد ما يكون تعلقاً واستمساكاً بهذا الدين .
 وإذن فما كان لأى انسان من ذوى الرأى ومن أهل الحل والعقد
 الأحرار يرى رأياً أطلعه الله تعالى عليه ، أو يجد وجهاً ويجد معه
 حجته وبرهانه أظهره الله تعالى له ، دون أن يدلى به ويثبت في الناس ،
 ليتم به ويحقق اجتهاد من سبقه من أولئك الأحرار الغيورين على هذا
 الدين العظيم وهذا الوطن العزيز ، قياماً بواجب الخدمة والعبودية لله
 تعالى سيده ومولاه الذى أمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،
 ما دام قد تربى وأعد لهذا العمل العظيم .

وإذن فما كان لى أن أسكت وألزم الصمت بأزاء هذه الآراء والمذاهب
 الكثيرة الاختلافات التى شوشت العقول ، وجعلت المسلمين فى حيرة ،
 بل فى فوضى متفرقين فى المذهب بل فى الدين . ويألها من كلمة لا يقبلها
 عاقلاً مفكراً ، ولا يقبلها دين صحيح . فإنه لا يضيع جمال الحياة وجمال
 الدين الذى تقوم عليه الحياة ، إلا هذه الفوضى والتفرق فى المذهب
 وفى الدين وعدم الاستقرار على حال واحدة وعدم الاجتماع على رأى
 جامع صحيح .

والواقع أنه ان يقضى على تلك الخلافات المذهبية القضاء المبرم
 ويجعل تلك النصوص الخاصة تنطق بالحق كما أنزل ، كاملاً لا يحتاج الى
 اجتهاد فى بيانه ، واحد غير متعدد وغير متشابه أمره على الناس فهم مترددون
 فيه ، أياخذون بهذا أو يأخذون بذاك إلا أن نجرد تلك النصوص الكثيرة
 من أقوالهم تجريداً كأن لم تكن تلك الأقوال ، ونطلقها من عقالها وهو
 شروحه عليها ذلك الشرح الذى يسكاد يسكون قد أبطل فيها المعنى

الكریم إبطالا ، مبینین إیابها البیان الحق الذی یتمشی مع تاریخ القرآن
والمنطق السلیم وعلوم اللغة ویتفق مع المصاححة ونهضة الشعب وتقدم
البلد وتحریر الوطن فی عهده الجدید ، وكفی بهذه الامور من مستند
یسند ذلك البیان المنشود .

* * *

وهذه هی النصوص التی نعنیها مجردة من کل قول وشرح .
يقول تعالی فی سورة الاعراف (فوسوسَ لهما الشیطان لیبدیَ لهما
ما وُورِیَ عنهما من سوآتهما (٢٠) . . . فلماذا قالا الشجرة بدت
لهما سوآتهما وطفقا یخصقان علیهما من ورق الجنة . . . (٢٢) . . .
یا بنی آدم قد أنزلنا علیکم لباساً یوارى سوآتکم وریشاً ولباس التقوی ذلك
خیر ذلک من آیات الله لعلهم یدکرون (٢٦) ینزع عنهما لباسهما
لیریهما سوآتهما أنه یراکم هو وقبیلہ من حیث لا ترونهم إنا جعلنا
الشیاطین أولیاء للذین لا یؤمنون (٢٧) ولما فعلوا فاحشة قالوا وجدنا
علیها آباءنا والله أمرنا بها یا بنی آدم خذوا زینتکم عند کل مسجد . .
قل من حرم زینة الله التی أخرج لعباده والطیبات من الرزق ، قل هی
للذین آمنوا فی الحیاة الدنیا خالصة یوم القيامة كذلك نفصل الآیات
لقوم یعلمون (٣٢) .

ویقول تعالی فی سورة الکہف (. حتی إذا بلغ مطلع الشمس
وجدھا تطالع علی قوم لم نجعل لهم من دونها سترأ (٩٠) كذلك وقد
أحطنا بما لیدیه خیرأ (٩١) .

ويقول تعالى في سورة النور (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم
 ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون (٣٠)) (وقل
 للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدین زینتهن
 إلا ما ظهر منها ، ولا يضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدین زینتهن
 إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبناءهن أو أخواتهن أو
 إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن و ما ملكت
 أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين
 يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من
 زینتهن ، وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) .

(يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا
 الحلم منكم ثلاث مرات ، من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم
 من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم)

(والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح
 أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ، وأن يستعففن خير لهن والله
 سميع عليم) .

ويقول تعالى في سورة الأحزاب (يا نساء النبي لستن كأحد من
 النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض ،
 ولكن قولاً معروفاً (٣٢)) وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج
 الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله
 إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً (٣٣) .
 (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى

طعام غير ناظرين إناه وإذا سألتهم متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن (.) .

(يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً) .
(٥٩) - (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً) (٦٠) ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً (٦١) (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً) (٦٢) .

* * *

وهذا هو بيان تلك النصوص الجليلة يعتمد على تلك القواعد الكبرى من تاريخ القرآن والمنطق واللغة ومراعاة خير الناس دون الاضرار بهم في شيء .

هذه هي سورة الاعراف كانت الاولى في النزول في ترتيب هذه السور التي ذكرت فيها هذه النصوص الشريفة ، ثم تليها سورة الكهف ثم تلي سورة الكهف سورة الاحزاب ، ثم كانت سورة النور آخر هذه السور الاربع في النزول من عند الله تعالى .

فليسكن سير ذلك البيان الخاص بتلك النصوص تابعاً لترتيب ذلك النزول يصعد ويهبط معه ، وينتقل معه من حال إلى حال إلى أن يستقر في المنتهى على الحال التي استقرت عليها آخر تلك السور نزولاً وهي سورة النور .

وسنرى في هذا البيان أن تلك النصوص العظيمة قد تدرجت بالناس في أسلوب حكيم واحدة واحدة بترتيب وتؤدة حتى روضت ومرنت الناس على الانقياد إليها دون أن يشعروا بوطأة ما ، فابتدأت الحكم بسيطاً خفيفاً ، ثم زادته شيئاً فشيئاً حتى تضاعف وتركب ، ثم أباحت النزول والتبسط فيه عند الضرورة واللزوم لي مطابق ذلك الحكم الظروف والمصلحة في الوقت الذي لا يتخلى فيه الإنسان عن أخلاقه وعاداته إلا بالقدر الضروري الحكيم .

هذه سورة الأعراف نراها تروى قصة الإنسان وكيف حسده إبليس على ما هو فيه من نعيم الجنة من أكل طيب وشراب لذيذ ، ولباس جميل ومسكن حسن ، بعد أن حسده على جماله وحسنه يوم أن أمر له بالسجود فأبى ، فزين له معصية الأكل من الشجرة المنهى عنها في الجنة ، فأكل منها ، فكانت النتيجة جوعاً وعطشاً وعرياً ومسكناً في الشمس لآدم عليه السلام . (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنت لا تظما فيها ولا تضحي) .

ولما كان الله سبحانه وتعالى قد أعطى لبني آدم في الأرض مثل ما أعطى أو بعض ما أعطى لأبيهم آدم عليه السلام في الجنة ، فإن إبليس ظل يحسدهم على تلك النعم التي حسد من أجلها أبيهم آدم عليه السلام . فزين لهم المعصية بغرور فعصوا ربهم ، وها نحن نرى آثار معصيتهم على الأرض جوعاً وعطشاً وعرياً ومسكناً في العراء (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس لينذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) .

ولكن ماذا يكون رأيك لو كانت نفس المعصية التي يزنيها إبليس
لبنى آدم بعد أبيهم هي نفس تعرى الجسد السوءأتين وتحريم الأكل
الطيب والشراب الطيب بزعم أن ذلك قربان إلى الله تعالى وزلفى ؟
أن إبليس وأتباعه من المخرفين وأهل الكهانة والكذب يزعمون
هذا الزعم فيأمررون الناس بالتعري من الثياب لأنه سمو . ويأمرونهم
بالفقر وتحريم الزينة وتحريم الأكل الطيب على أنفسهم بحجة أنه زهد
وعبادة ، ولكن كذبوا وكذب زعمهم ، فهذا التعري من الثياب ليس
سموآ بل دنسآ ، بل فسادآ .

وأى دنس أكبر من كشف العورة ونبذ الثياب الساترة للسوءأتين على
مرأى من بعض الناس ، أليس ذلك فاحشة ؟ وإذا كانت فاحشة فأى
فاحشة بلغت في القبح والسوء ما بلغه كشف السوءأتين اللتين هما موضع
الكرامة والشرف في الإنسان وما أدراك ما الإنسان وهو الذى عظمه
الله تعالى وفضله على العالمين ؟

بل أى فساد أكبر من أن يدع الإنسان عورته مكشوفة مجردة
من الثياب ينظر إليها الغادى والرائح نظرة خبيثة آثمة يبني عليها آمالا
وأطامعاً خبيثة آثمة ويتبعها بما يتأذى منه صاحب العورة ويكرهه
أشد الكره إن كان من العاقلين .

أما هذا الفقر وتحريم الزينة وتحريم الأكل الطيب فليس هو عين الزهد
والتعبد الصحيح وإنما هو عين التخريف والتزوير وأى تخريف وتزوير
أكبر من أن يأتى الإنسان على ما فى يده ثم يمد يده إلى الناس بعد
سائلآ . ثم لا يعطى البدن حقه من الأكل الطيب والشراب الطاهر

فتذهب نضارة البدن وجماله ، ويسقم ويضعف ، ثم ينحل ويتهدم .
 من أجل ذلك نرى الله تعالى يأمر بنى آدم بالرجوع إلى ما كانوا
 عليه من خلق حميد وعادات قويمه وهى ستر العورة وارتداء الثياب
 فى المسجد ، كارتدائها فى غير المسجد والأكل والشرب من الطيبات
 كما كانوا فى الجنة .

أليس الله تعالى له الاسماء الحسنى يحب أن يرى عبده فى كمال وجمال
 وزينة إذ شأن العظيم أن يحب هذه المظاهر الكريمة على كل حال ،
 وهذه الزينة وستر العورة ، وهذا الأكل والشرب من الطيبات ، تعطى
 الإنسان كمالا فى الصحة والعقل وجمالا فى الشكل والجسم ، وزينة فى
 الظاهر والباطن ، فوق أن هذه الزينة الساترة للعورة والجسد وتناول
 الأكل والشرب الطيب ، يعطيان الإنسان وقاية من عوارى الدهر
 والأمراض فكثير من الأمراض تيجىء نتيجة عدم ستر العورة والجسد
 وعدم تناول أكل وشرب طيب .

حتى إذا انتهى الله تعالى من أمر بنى آدم بأخذ الزينة والأكل والشرب
 بلا إسراف ، أخذ يرد على هذه الخرافات التى شاعت قديماً تقول إن
 هذه الزينة محرمة ، وأن الأكل والشرب من الطيبات محرم .

فيقول ومن هو الذى حرم هذه الزينة أو الأكل والشرب من
 الطيبات إلا أنتم أيها الجاهليون ؟ مع أنها لازالت حلالا للمؤمنين لأنهم
 شاكروا ربهم الكريم ، ولمن عداهم من الناس لعلمهم يشكرون . بل
 ليرتفع مستوى النوع الإنسانى عامة بدون تمييز بين المؤمنين وغير المؤمنين ،
 رغم أنف إبليس ذلك الحسود .

إذن قد بينت سورة الأعراف عورة الإنسان حراً أو عبداً رجلاً أو امرأة ، وإنها هي السوأتان في الجنسين بلا تفريق ولا تمييز وهو مدلول قول الله تعالى (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم ولباساً) بصيغة العموم ، غير أنها فضلت ستر الجسم كله حسب العرف وتبعاً للعادة الجارية في كل بلد من البلدان ، لأنه كلما كملت الثياب وزادت على الإنسان ، كلما كمل وزاد كمالاً على كمال ، وهو قول الله تعالى (ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله اعلمهم يذكرون) .

ثم هذه سورة الكهف تبين سياحة ذى القرنين في الأرض لإصلاح ما يراه فيها من فساد بأمر الله تعالى ، وأنه مر على قوم عرابة كيوم ولدتهم أمهاتهم عندما دخل في المنطقة الإستوائية الحارة ، فأمرهم بستر عورتهم وتغطية سوآتهم ، ووقف عندهم فترة من الزمن أصلح فيها ما أصلح ، وألا لما كان لخروج ذى القرنين والمرور على هؤلاء القوم معنى من المعاني الجليلة ، فهذا الخروج والمرور إنما هو للدعوة إلى الخير والاصلاح ، وهذا شأن ذى القرنين أبداً .

وقد أطلعنا هذه القصة على تأخر العالم في عصر ذى القرنين العظيم كما قد عرفتنا أن الحال لا زال كما هو منذ القدم ، وأنه يحتاج إلى ذى القرنين من جديد تلك الشخصية العظيمة المصلحة .

وإذن تكون سورة الكهف لم تزد على سورة الأعراف شيئاً فما فيها هو ما في سورة الأعراف مصغراً في اللفظ وفي العبارة .

ثم هذه سورة الأحزاب تأخذ في العناية بأمر بيت رسول الله ﷺ

أولاً وبالذات وتخصه بتشريعات لتكون تمهيداً يمهّد إلى تعميمها بعد أن تكون قد ألفت .

فتأمر نساء النبي بالاستقرار في بيوتهن ، لكن ليس على طول الخط وليس على امتداد الطريق ، لما أن الخروج إلى الحج والعمرة والخروج إلى الصلاة ، والخروج للأغراض الشريفة والمصالح الضرورية أمر ثابت لا منع فيه ولا حظر عليه .

وهل كل من يخرج من بيوتهن لقضاء حاجة من الحاجات مخالقات لهذا الأمر العظيم ؟

كلا ثم كلا ، إن من النساء من يخرجن وهن بعيديات عن الشر ، بعيديات عن الإثم في حفظ الله تعالى ورعايته اقرأ ما يرشدك إلى هذا المعنى ، اقرأ قوله تعالى : (..... فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله عفو غفور) .

ثم تنهاهن عن ذلك التبرج ، وقد كان ذلك التبرج عادة من عادات الجاهلية الأولى المستهجنة التي كانت تؤول التأويل الإثم من أولئك في قلوبهم ضعف ومرض ، نعم كان من عادة الجاهلية الأولى تبرج النساء وهو كشف زينتهن وإبدائها لأي رجل من غير رجالهن أي كن يختلطن بهم اختلاطاً بدون قيد ولا شرط في ذلك الاختلاط إلا عرف الجاهلية الأولى ، ألا ترى إلى الله تعالى يعود فيقول في نفس سورة الأحزاب (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم

فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلکم کان يؤذی النبی فیستحی منکم واللہ لا یستحی من الحق ، وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلکم أطهر لقلوبکم وقلوبهن . وما کان لکم أن تؤذوا رسول اللہ ، ولا أن تنکحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلکم کان عند اللہ عظیماً (٥٣) إن تبدوا شیئاً أو تخفوه فإن اللہ کان بكل شیء علیما (٥٤) لا جناح علیہ فی آبائهن ولا أبنائهن ولا أخواتهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا مملکت أیمانهن ، واتقین اللہ ، إن اللہ کان علی کل شیء شہیداً (٥٥) .

ولکن بعد أمر نساء رسول اللہ ﷺ بالاستقرار فی البیوت ونہین عن تبرج الجاہلیة الاول خاصۃ فی الحالین ، ما لبثت تلك السورة الکریمة أن انتقلت إلى ذلک الامر العام وهو إدناء بعض الجلابیب علی هذه الدرجات والطبقات الثلاثہ من النساء ، وهن نساء النبی صلی اللہ علیہ وسلم ، وبناته صلی اللہ علیہ وسلم ، ونساء المؤمنین عامۃ .

ولکن هل یشمل نساء المؤمنین . الزوجات غیر المسلمات من الحرائر والاماء ؟

وهل یشمل نساء المؤمنین كذلك ، النساء اللاتی مملکن بالیین من الجوارى ؟

ظاهر اللفظ وأصل موضعه أنه یشمل کل تلك النساء ، وأی شیء فی أن تقول مثلاً رأیت بالیوم أو بالامس نساء فلان ، من زوجاته

المؤمنات الحرائر وغير الحرائر ، ومن إماءه ، ومن بناته ومن غير بناته من بقية أقربائه الأناث اللاتي في حماه وحوزته .

هل تكون قد أخطأت ؟

ليت شعري ما أجهل ! أن نقول إن نساء المؤمنين لفظ عام يشمل الحرائر والإماء ، حتى يكون الأمر بأدناء بعض الجلابيب طابع الجماعة وشعار عموم النساء اللاتي يجرى عليهن حكم الإسلام ، فلا يتعرض أى منافق وخبيث لأى امرأة من نساء المؤمنين حرة أو أمة ، فينحصر الشر والرياسة فى المنافقين رجالاً ونساءً ويتعرض بعضهم لبعض دون المؤمنين والمؤمنات من أى درجة وطبقة .

والواقع أن هذا الرأى هو الصحيح ، لأن هؤلاء المنافقين كانوا يقصدون النساء عامة بلا تفريق بين نساء المؤمنين ونساء غير المؤمنين ، معتذرين بأنهم إنما يقصدون الإماء دون الحرائر من النساء .

وإذن كيف جاز لنا أن نقول أن نساء المؤمنين هن حرائر النساء المؤمنات دون أماء المؤمنين ، ونحن جميعاً جسد واحد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر . هل افتقدت الغيرة على إماء المؤمنين ، حتى نزعهم بخروجهن من اللفظ ونقول بتركهن مكشوفات يتعرض لهن من شاء من المنافقين والخبثاء .

وفى الواقع أن هذا القول والتفسير ، إنما هو اجتهاد من عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه فقد ورد أن عمر بن الخطاب مر بجارية متقنعة فعلاها بالدرة ، وقال لها أنتشبهين بالحرائر بالكاع ، ألقى القناع ، وهؤلاء الأئمة إنما يتبعون رأى عمر ولكن من يدرى فربما تكون

هذه الجارية على صواب دون عمر رضى الله تعالى عنه فتصبح هى المرأة الثانية التى تصيب ويخطئ عمر معها فى رأى والفقه ، وهذا هو ما تراه واقعاً بالفعل ، فإن الدين والخلق والعقل يؤيد ما تراه هذه الجارية ، لأنه ينبغى أن تكون الحصانة على العموم لا على الخصوص ، إذ التمييز فى التشريعات الخاصة بالحصانة والخلق بين حرة وأمة ليس مقبولا وغير مستساغ .

ولكن ربما يقال أن نساء المؤمنين هن زوجات الرجال المؤمنين الحرائر من المؤمنات فحسب دون الائمة المملوكات بملك اليمين قياساً على قوله تعالى (يانساء النبي لست كأحد من النساء) إذ المفهوم من السياق أن نساء النبي هن زوجاته الحرائر المؤمنات .

ولكن إذا دلت القرائن على صحة هذا المعنى فى حق نساء النبي ، فليس هنا من القرائن القوية التى تدل على مثل هذه الدلالة الخاصة . لا سيما وأن فى هذا القول فى تفسير نساء المؤمنين الذى وضعه عمر رضى الله تعالى عنه وأخذه عنه الأئمة المجتهدون ، فساد وضرر لاحق بنفوس الائمة وهن مؤمنات ، علاوة على أن نساء النبي يتميزن على الائمة ، بل على نساء هذه الامة ، بل على نساء العالمين ، فإذا أطلق الله تعالى عليهن لفظاً خاصاً ، وناداهن بلفظ خاص ، فهذا ما يقتضيه مقامهن الشريف العالى .

وإذن كيف يقاس غيرهن بهن ؟ وفى أى لفظ تدخل أمة النبي وما أكثرهن إذا لم تدخل فى لفظ (نساء المؤمنين) . هل يسقطن من الحكم ، وتسقط أمة المؤمنين والمؤمنات معهن ، ونرضى لهن بتعرض المناققين والسفهاء

لهن ، وربما تكون في الأماء من هي أظهر روحاً وأعز نفساً وأشرف عرضاً من كثير من الحرائر ؟

هل سقوطهن وعدم حمايتهن بالتشريع والقوانين الاجتماعية ، من العزة والكرامة والشرف في شيء .

وهل يرضى بيت محمد بن عبد الله أن يضم أو يأوى أمة أو خادمة وضيعة ليس عندها تقوى ولا صلاح ، وفي نفس الوقت تلتطخ بالوحل والرجس من أولئك المشاغبيين الفاسدين .

وهل يرضى بيت أبي بكر رضى الله تعالى عنه أو عمر رضى الله تعالى عنه بجارية أو جوارى من هذا الصنف ، وهو مسؤول عن هذه الجارية أو الجوارى ؟

على أنه مهما يكن من هذا الأمر ، وهو أمر تلك الدرجات والطبقات الثلاثة من النساء ، بأدناء قطع الجلابيب على وجوههن ، سواء قلنا أنه أمر خاص لا يشمل الأماء ، أو قلنا أنه عام يشمل كل النساء اللاتي في حماية وكنف الرجال المؤمنين ، فإنه أمر غير مستديم ، يجب إذا وجدت علته وسببه ، ويقف إذا لم توجد له علة أو سبب ، ألا ترى أن الله تعالى يقول (ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) فما دام الأذى قد زال من الطريق ، طريق أولئك النساء الفاضلات ، فلا ضرورة إلى أدناء قطع الجلابيب ، فهو أمر لعلة من العلل ، والسبب من الأسباب ، ومتى زالت العلة والسبب فلا يتحتم تنفيذ ذلك الأمر الكريم بحال ، وهذا ما جعل نساء هذه الأمة تختلف في الزي ، فبعضهن يرتدين قطع الجلابيب على رؤوسهن ويسدلنها على وجوههن ، وبعضهن لا يرتدين

هذه القطع ولا يسدنها على وجوههن تبعاً لاختلاف أحوالهن وظروفهن ،
وهذه رحمة وتخفيف من الله أحكم الحاكمين ، وهى شأنه أبداً .

إذن تكون سورة الأحزاب ، قد خطت فى كمال النساء المؤمنات
ورفعة شأنهن خطوات كريمة ، إذ أمرت بصيانتهن الصون اللائق
بجماعة رفيعة فى الدين « أرسنقراطية المذهب » .

وهل هناك أكبر فى الدلالة على تسامى وترفع نساء النبي محمد على نساء
العالمين ، من استقرارهن فى البيوت واحتجابهن عن الرجال الذين ليسوا
من رجالهن ، فلا يراهن أحد غير رجالهن ، ولا يتبرجن أمام أحد غير
الذين أذن الله تعالى أن يتبرجن فى حضورهم فيرونهن ويرينهم .

وهل هذه الأوامر الخاصة التى ميزت نساء النبي وميزت بناته
وميزت نساء المؤمنين إلا موضع العجب الذى يأخذ بلب الإنسان .
حيث يجد فيها الناظر ترفع نساء الإسلام وتعالين على اختلاف درجاتهن
وطبقاتهن عن بقية نساء الجماعات الأخرى وعن عادات الجاهلية الأولى
بهذه الجلايبب الذى تلبس فى الرؤوس وتسدل على الوجوه ،
« أرسنقراطية » وشعاراً لجماعة نساء المؤمنين عامة ، وبنات النبي
وأزواجه خاصة ، أنه رقى ما بعده رقى ونظام وجمال وكمال ، فهل نرى
هذا المجتمع يصبح على مثل هذه الحال فى القريب .

والآن أقدم سورة النور ، أقدم ما حوت من معانى القول الجسام ،
أقدم ما اشتملت عليه من حكمة ورشاد فى ستر عورة الإنسان وفتنته
التي يحسبها الناس عقدة العقد التى لن تحل حلاً يرضى جميع الناس على
وجه الإجماع ولو بالموافقة من أئمة البيان والفكر فى هذه الأمة العزيز
لأنه يستحيل أن تهتدى إليه كل هؤلاء الناس اهتداء مباشراً وعن كذب ،

ماظهر منها وليضر بن بخمرهن (على جيوبهن) أى لا يظهرن من زينتهن الكاملة بعد التحجب بالقميص والجلباب والخمار إلا الزينة الظاهرة وهى زينة الوجه من الكحل فى العين ، وزينة اليدين وهى الخاتم فى الاصبع ، وتخصيهما بالحناء ، وزينة القدمين وهى صبغهما بالحناء أو تختمهما بالخاتم فى بعض الاصابع ، مع مراعاة ألا يضر بن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن إعجاباً بأنفسهن ونزوعاً إلى الفاحشة والزنا كما يفعل أكثر المتحجبات اليوم المتلففات بالمروط والملاءات . ومع تصفية قلوبهن وطهارتها بالتوبة رجاء الفلاح فى الدنيا والآخرة ، لتؤدى هذه الأمور مجتمعة ومعتكفة الغرض وتؤتى ثمارها طيبة ، وإلا فإن الفائدة من فعل بعضها ضعيفة أو مفقودة .

نعم لا حرج عليهن فى إبداء زينتهن التى سترتها عن الناس وهى ما تسمى بالزينة الخفية أو الباطنة ، لبعولتهن ، أو آبائهن ، أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن ، أو أخوانهن ، أو بنى أخواتهن أو بنى أخواتهن ، أو نساءهن ، أو ما ملكت أيمانتهن ، أو التابعين غير أولى الأربعة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء لأننا لو فرزنا المجتمع أو أجرينا عليه التجارب تكون النتيجة أن هؤلاء هم الذين تأمن النساء الشر والبغى عليهن من جانبهم بحكم الطبيعة والفطرة والتربية والتدين . لهذا جعل لهم حكم خاص مراعى فيه التخفيف والامان بنسبة أكثر من عامه الناس .

على أننا إذا قمنا بهذه الأوامر رجالاً ونساء على اختلاف درجاتهم

ودرجاتهم من غرض البصر وحفظ الفرج ، وعدم إبداء المؤمنين حرائر وإماء زينتهن إلا ما ظهر منها وضرب الخمر على صدورهن وترك ضرب أرجلهم ليعلم ما يخفين من زينتهن ، ثم قمنا بالتوبة عما سلف منا في الجاهلية وقبل التعلم والتفقه الصحيح رجالا ونساء إلى الله تعالى ، واستغفرناه بصدق وإخلاص ، انزلت علينا الرحمة والبركة ، وصار الفلاح بين أيدينا حاضر أو مستقبلا ، ولكن لازلنا في نرق وطيش ورعونة ارتسكبنا بموجبها الرذائل والحقايات من النظر إلى العورات وإنتهاك حرمة الفروج وإبداء الفتنة من النساء لكل ناظر بار أو فاجر ، ومال النساء إلى البغاء والفاحشة ، ونسينا المتاب إلى الله تعالى ليغفر لنا ، نخسرنا السعادة وراحة البال ، وهكذا جزاء المخالفين لربهم الذين تظهر فيهم الفاحشة ولا يبالون .

ولنر سيرا مع نصوص تلك السورة الكريمة الخاصة بالعورة والزينة لتنتم ما تنطوي عليه السورة من أحكام وتشريعات جليلة في شأن العورة والسواآت .

فقد ذكرت السورة بعد تلك الأحكام والتشريعات السابقة حكما آخر خاصا بالعورة للرجال والنساء على حد سواء . ألا وهو المحافظة على ستر العورة حين نضع الثياب من الظهيرة وحين نضعها للنوم ليلا من بعد صلاة العشاء إلى الفجر ، فلا يصح دخول أحد في هذين الحينين ، لا قبل الإستهذان ولا بعد الإستهذان . محافظة على حرمة الإنسان أن تنتهك في هذين الوقتين ، نعم يصح إذا كان هناك إذنا وبعد أخذ

التياب في هتين الفترتين عند قيام ضرورة من الضرورات .
 لكن ما معنى وضع الثياب عند الظهيرة وعند النوم ؟ أنه طرحها
 ونزعها ، كان الثياب سهل ثقيل نضعه عن كاهلنا .

ولكن ليس القصد أن نتجرد من جميع الثياب بحيث نكون عرايا
 من كل الثياب ، فإن تجرد الإنسان ولو في بيته من ساتر العورة عمل
 مكروه وبعيد عن الأدب لذات الأدب ومع الأخلاق العالية بالنسبة
 إلى الله تعالى وهو المطلع الرقيب .

ولما القصد هو وضع تلك الثياب الثقيلة التي يشق حملها ولا داعي
 للبسها ما دام المرء بعيداً عن أنظار الناس ، دون تلك اشياى الخفيفة
 المناسبة للبيت ، مثل الحلة الخاصة بالبيت ، التي يطلق عليها بعض الناس
 « منامة » ومثل قميص النوم ، أو قميص الاستراحة ، ومثل جلباب
 النوم كما نسمع بذلك في بعض البيئات .

ترى ماذا تذكر السورة بعد من أحكام وقضايا خاصة بستر النساء
 أي دور في خلدك شيء تحتاج إليه النساء ؟ ألا يخطر ببالك أن ضرورة
 الحياة تدعو إلى تخفيف هذه الأحكام والقضايا عن بعض النساء
 وتدعو إلى سماحة التشريع الحكيم ؟

تذكر السورة حكم القواعد من النساء كفصل ختامى في كلامها عن
 ستر النساء وسترى فيه ما كان يدور في خلدك ويخطر ببالك واضحاً
 كل الوضوح ، متحققاً كل التحقق ، بل ستشاهد فيه أنه متجاوب مع
 ما كان في نفسك من تفكير ورأى سليم ، وما رأيت من حكمة ومصلحة

ورحمة ويسر ، لأن هذا الدين دين الفطرة ولا يمكن إلا أن يتجاوبا ،
وهل الفطرة إلا العقول ؟ وما دام الدين والفطرة والعقول واحداً ،
فكل شيء يمشى في هذه الحياة على أحسن ما يكون من الوجوه .
ولكن ما هن القواعد من النساء وقد وصفهن الله تعالى باللاتي
لا يرجون نكاحاً ؟ وما هو هذا الحكم الخاص بهن الذي يستجد فيه
الخير بل الحكمة والرشاد ، وقد قيده الله تعالى بكونهن غير متبرجات
بزينة ، وفضل عليه الاستعفاف ؟

بل ما معنى القواعد من النساء ؟
وما معنى اللاتي لا يرجون نكاحاً ؟

وما هو الحكم الخاص بهن دون نساء المؤمنين ، وهو حكم في
الحقيقة مزدوج من حكمين ، ثم ما التبرج وما الزينة . ثم
ما الاستعفاف وكيف فضله الله تعالى على وضع الشيا ب هذه الشروط
المعينة الخاصة ؟

إن تفسير تلك المفردات أمر ضروري لأنه التفسير الأساسى الذى
سيعبنى عليه التفسير الكلى والإجمالى ، أى أن معنى هذه الألفاظ هو
الأصل الذى سيتفرع عليه المعنى العام ، أى أنها الدليل والبرهان على
ذلك التفسير والمعنى العام الذى نضعه أمام الآية الكريمة ، وكلام لا يعتمد
على دليل ولا يقوم على برهان ، ان يقبل ومردود على صاحبه أيا كان .
وإذن فلنجب عن هذه الاستفسارات . ثم نبين الغاية من هذه
الآية الكريمة على ضوء هذه الإجابة السديدة .

القواعد من النساء يفسرهن الأئمة السابقون والفقهاء بأنهن النساء

اللاتى قعدن عن الحيض والولد ، أى بلغن سن اليأس من الحيض والحمل وهو فى حدود أربعين سنة .

ثم قالوا فى تفسير اللاتى لا يرجون نكاحاً . هن اللاتى لا يطمعن فى الوطء لموت شهوتهن عن الرجال .

وإذن يصير معنى « القواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحاً » العجائز لا مطلق النساء اللاتى قعدن عن الحيض والولد . لأن من كان منهن فى سن متوسطة يرغب فى النكاح ولاشك ، ولا يرغب عنه حينئذ بحال ، ويستند هؤلاء الأئمة السابقون والفقهاء فيما يفسرون إلى متن اللغة العربية استناداً فيه من الضعف ما فيه .

ونحن نفسرهن بأنهن المتبتلات إلى العمل الصالح والخدمة العامة متزوجات أو أيا مى .

بأنهن المنقطعات إلى الخدمة العامة أو الخاصة فى فترة من الفترات ، والخدمة العامة والخاصة واحد ، لأن العامة ستعود على الأفراد ، والخاصة ستعود على المجموع .

بأنهن المتفرغات للأعمال الصالحة منزلية أو غير منزلية من بنت أو زوج أو أخت أو أم أو جدة وهلم جراً .

بأنهن العساكفات على طلب العلم والمعرفة والبحث والتفتيش والتدريس والتربية . ونشر الدعاية على أى لون كان ، أى أنهن طالبات العلم والمعرفة والمجاهدات فى سبيل نشر الثقافة والدين ، من المؤمنات القانتات العابדות السائحات ، وما أكثرهن فى هذا الزمان . فمن تلميذات إلى طالبات إلى مدرسات إلى أستاذات إلى زعيمات إلى عضوات فى الجمعيات إلى ناسكات من ربات الصوفيات وخادمات للصوفيات إلى

غير هؤلاء من النساء اللاتي قعدن وجلسن للدرس والتفقه والجهاد في سبيل الحياة العالية ، فإن القعود يكون عن إرادة واختيار ، كما يكون بالقسر والإكراه . ويأتي لأغراض عدة ، لغرض التعليم ، ولغرض النكاح ، ولغرض الجهاد في سبيل الله تعالى ، ألم تر إلى القرآن الكريم يقول (واقعدوا لهم كل واخذ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وأتوا الزكاة تخلصوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) ويقول (وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فإن يستمع الآن يجده شهاباً رصداً) وألم تر إلى الشاعر يقول :

أطوف ما أطوف ثم آوى إلى بيت قعيدته لكاع

ويجوز أن تكون تلك القعيدة أمه أو أخته أو زوجته أو بنته . وهلم جراً ، كما يجوز أن تكون فتاة شابة أو كهلة أو طاعنة في السن وهي قاعدة بالإرادة والرضا . ويجوز أن يكون ذلك البيت ، بيت المأوى على الحقيقة والعرف ، أو بيت العمل والصناعة والمهنة على غير الحقيقة والعرف .

بل ألم تر إلى بعض الناس يقول ، أن هذا الأمر وهو الزواج لم يقعد فلاناً عن العمل الذي كان يعمل من قبل .

ويقول ، هؤلاء نساء قواعد من أجل شغلة خاصة . وهذه امرأة قاعدة تنتظر وتتربص في المحكة من أجل شغلها .

وهذه أخرى قاعدة في المستشفى من أجل عملية لها .

وهذه أخرى قاعدة تطلب العيش والرزق والعمل .

وهذه طبيبة قاعدة من أجل المهنة والحرفة .

وهذه مدرسة قاعدة من أجل مواعيد الوظيفة .

وهذه عاملة قاعدة فى المصنع بحكم قوانين العمل والصناعة .
إن العرف الجارى يقول ، هذه النساء قاعدة هنا من أجل العمل
الموكول إليهن ، ويقول فلان قاعد لشيء ما ؟ وقاعد لخدمة خاصة .
وأنا قاعد لكذا ، أى متخصص له متفرغ .
وهذا أستاذ قاعد للبحث أى متخصص ومتفرغ . ويقول فلانة
قاعدة تتلقى السمع فى مصلحة التليفونات والتلغرافات ، وفلانة قاعدة
للارسل والاشارات ، وفلانة قاعدة للاستقبال .
وإذن يكون هذا التفسير الذى فسرنا به (القواعد من النساء)
هو التفسير الصحيح السليم المراد من هذا اللفظ الجامع لهذه المعانى
السليمة اعتماداً على متن اللغة العربية كما اعتمد عليه الأئمة السابقون .
إذ اللفظ مشترك صالح لتفسير هؤلاء الأئمة . وللتفسير الذى فسرنا به
ذلك أن القعود تارة يكون بالفسر والجبر ، وتارة بالاختيار والرضا .
لكن يتعين القعود على التفسير الذى رأيناه واخترناه أولاً بالذات
وعلى التفسير الذى قال به الأئمة ثانياً وبالعرض لما أن القعود
للأعمال الصالحة فى هذه الحياة هو الأصل الذى يقاس عليه ويتفرع
عنه كثير من الأحكام لأنه لا يستغنى أحد عن العمل الصالح ، فكل
إنسان مضطر إليه إلى حد الضرورة القصوى .

وإذن يكون القعود من أجل ضرورة العمل فى هذه الحياة هو
السبب الأصيل فى تشريع التخفيف فى الثياب عن النساء ويأتى بعده
القعود للشيوخوخة والفناء .

أما معنى « اللاتى لا يرجون نكاحاً » فهو وصف ونعت موضح

لما قبله ، ولكن ينظر في أن الرجاء من الأمل ومن الإرادة ، وفي أن النكاح يطلق على عقد الاتفاق على الزواج ، وعلى الوطأ الحلال ، وعلى الزنا ، وعلى أى معنى من تلك المعاني نبنى المعنى الذى يفسر به هذا الوصف والنعمة .

ولكنه بالرغم من تعدد المعنى لكل كلمة من هتين الكلمتين فالمعنى المراد من هذا الوصف والنعمة ، أنهم النساء اللاتي على هذه الحال ، وهى الحال التى لا يأخذن فيها بأسباب النكاح مطلقاً لا سعيّاً له ، ولا سعيّاً فى إرادة الوطأ لدى الزوج أو إرادته لدى زان . أى لا يتهيأن للنكاح على أى لون . ولا يرجونه طوعاً كان عدم الرجاء أو كرهاً وعجزاً وفناء .

أى أنهم النساء اللاتي لا يردن نكاحاً بإرادتهن أو بغير إرادتهن وذلك إذا كن كبيرات لا يشتهين النكاح ، أو كن غير كبيرات ولكن فى وقت العمل ، وفى وقت العمل تتهيأ تلك النساء للعمل وحده بارتداء ثياب الشغل وثياب المعمل أو المصنع أو ثياب الخروج للمحل أو المدرسة وهلم جرأ ، وتتركن الزينة كما نراه فى نساء الريف ، والتلميذات وأكثر الطالبات والمدرسات والاستاذات والطبيبات والصوفيات ربّات الطرق الصوفية العابدات المجاهدات ، ولكن بعد انتهاء العمل والرجوع إلى المسكن يتبدل ذلك الحال وتأخذ تلك النساء تتهيأن للنكاح وترجونه وتأخذن فى أسبابه والأغراء عليه فتتبرجن بزينة فى بيوتهن ولا حرج عليهن إذن طلباً للنكاح ، أما على سبيل طلب العقد أو طلب الوطأ الحلال ، أو على سبيل حب الزينة والظهور بمظهر الكمال فى وقت الراحة والفراغ .

أى أن كل الاحتمالات والوجوه الصحيحة فى معنى قوله (واللاتى لا يرجون نكاحاً) صحيحة يتردد بينها اللفظ والمعنى ، وكما مرادة حسبما توحى به الظروف والأحوال ، وليس هناك وجه لإبطال احتمال منها ودفعه ، وذلك لأنها تتقلب وتدور فى المناسبات والمقامات كالشمس تدور وتتنقل فى أبراجها واحداً بعد واحد إلى أن تتم الدورة التشريعية كما تتم الدورة الفلكية وليس هناك إجماع على معنى مقطوع به وحده ، وليس هناك نص جازم يحول بين المجتهدين وإعادة النظر فى أحكام الشريعة الغراء ، أو يحول بينهم وبين فهم جديد صحيح ترتاح إليه العقول وتطمئن إليه الأفتدة . والواقع أن هذه الألفاظ والكلم مثلثة المعنى أى متعددة المفهوم ، دون أن يكون هناك مانع يمنع من هذا التعدد الذى فيه سعة وجمال . ولعل فى القراءات ما يعضد هذا التعدد ، إذ أنه أشبه بهذه القراءات المشروعة ، وقد ذكر القرآن الكريم هذه القراءات وتنوعها فى قوله (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) .

يشمل ذلك القراءات السبع ، وهى تفخيم للقرآن الكريم أى تفخيم .

ويشمل القراءات العشر ، وهو احتمال فيه تعظيم لهذا القرآن العظيم ومعنى هذا أنه لو كان القرآن العظيم نزل بقراءة واحدة لكان ذلك تصغيراً أى تصغير من شأنه ، وكذلك يكون الحال لو كان لهذه الألفاظ والكلم معنى واحد غير متعدد على الشرح الذى بسطناه .

أما الحكم الخاص بهؤلاء القواعد ، فهو نفى الجناح والإثم عنهن

إذا وضعن ثيابهن غير المناسبة للشغل والعمل ، وهى تختلف باختلافه ، كما يحددها العرف السليم . وقد جرى العرف على أن النساء فى بعض العمل يلبسن قميصاً قصيراً بأكمام قصيرة أو بدون أكمام . كما قد جرى على أن النساء يلبسن ثياباً فى البحر أو فى الحمام لستر العورة والسواآتین . وقد جرى العرف على أن النساء فى الأعمال الرياضية يلبسن ثياباً خاصة بكل نوع من أنواع الرياضة .

وهكذا الحكم الخاص بهؤلاء القواعد ، على شرط أن يكون وضع تلك الثياب التى يضعنها من فوقهن ، فى حال أدناها ستر العورة والسواآتین ، وهى حال التبرج فحسب مجرداً عن مظاهر الزينة التى تزيد فى جمالهن إلى حد الفتك بذوى الحساسية والشعور الرقيق . وليس للتبرج معنى إلا أن تضع القواعد من النساء ثيابهن عنهن أى التعرى من بعض الثياب الحاجبة للجسم والزينة الكبرى الداخلية عن الظهور . وليس لهذه الزينة من تفسير إلا ما تتجمل به النساء من ثياب زاهية أو مطرزة أو ذات رسوم وصور وثنية ، ومن مواد للتلوين ، لتغيير لون البشرة ، ومن معادن وجواهر تتحلى بهن النساء ، تزيد من قدرهن عند الناس .

ثم ماذا؟ لقد عطف الله سبحانه وتعالى على هذا الحكم الخاص بالقواعد من النساء حكماً آخر ، وهو استعفافهن عن وضع ثيابهن ولو فى حال وجود الأعذار والشروط وتحقق القيود ، أى استعفافهن عن ذلك التبرج والتعرى من غير زينة وذلك بإارتداء الزى كاملاً ، شأن الكمالات من النساء .

على أنه يجوز أن يكون المراد من استعفافهن المطلوب الاستعفاف
عن التلبس بالزينة المحرمة في حالة التبرج ، أى الاستعفاف عن الحرام
والإثم من تلك الزينة وإظهارها للناس ، فإنه ليس المراد من وضع الثياب
إظهارها ، إنما هو للنشاط .

أى أن المراد من الاستعفاف عن المخالفة لمنطوق هذا الحكم
ومفهومه إنما هو الابتعاد عن تبرج الجاهلية الأولى . وهو التبرج
بزينة ، وقد كانت النساء في الجاهلية الأولى يتبرجن ويسرفن في التبرج
بلا ضرورة ، ويتزين في حال ذلك التبرج التزين التام ، فيمشين عاريات
كاسيات في أبهى زينة وأخف ما عندهن من متاع وعرض ، ويخالطن
الناس على هذه الحال بلا تقوى ولا ورع ولا استحياء ، إذ كن لا وعى
عندهن ولا نضج .

أما الآن وقد اكتمل الوعى ، وأوشك النضج أن يتم فإننا نرى
المجتمعات النسائية الراقية الممثلة أخذت تسير في الطريق التى رسمها هذا
الدين وشرعها لهُؤلاء القواعد من النساء من حيث لا تدري . فهذه
جماعة السيدات المسلمات ، وهذه جمعية الأخوات المسلمات ، يستعففن
ويلبسن الزى الكامل التام ، فلا يظهرن زينتهن إلا ما ظهر منها محصنات
بالتحصين العظيم فلا يرى أحد شيئاً من أجسامهن إلا ما حكمت الطبيعة
والفطرة أن يرى وهو الوجه والكفان ، محافظة على شعار نساء الإسلام
وكألهن ووقارهن .

وهذه البقية الباقية من النساء المثقفات يتبرجن ولكن لا أستطيع أن
أقول يتبرجن بزينة على العموم إذ بعضهن يتبرجن بزينة وبعضهن يتبرجن

تبرجاً مجرداً عن الزينة فيمشين خفافاً ويقعدن خفافاً .
وهذه بقية نساء الأمة من غير المثقفات بين بنين ، ولكن هذا الفساد البادى
فى بعض نساء الأمة لم يكن نتيجة هذا التبرج المباح ، إنما كان نتيجة
الجهالة وسوء التربية ونسيان هذا الدين العظيم ، تلك الامور التى نحاربها
اليوم عاملين على محوها . نعوذ بالله المستعان .

وإن شاء الله عند ما ننتصر ويفهم العالم ذلك الرأى الصحيح سوف
يظهر أن تشريع القرآن الكريم هو التشريع الحق الذى لا يبلى ، ولن
يبلى مدى الدهر ، لأنه آخر تشريع لآخر نبي وآخر رسول ، وهو من
لدى حكيم خبير .

هذا وظاهر من ذلك أن الاستعفاف ، وهو ذلك الامتناع والإباء
والإحجام مفضل على أول الإحتمالين أى على ذلك التبرج الذى
لا يعرف الزينة ولا تدخل عليه ولا يدخل عليها فى شىء إذ مادام ذلك
التبرج لمصلحة العمل ومصلحة الإنسان فإنه سيظل هو غريباً عن الزينة
وهى غريبة عنه ، فلا يتلاقيان إلا فى المنزل والمأوى وقت الخلوة بمن
تحل الخلوة معهم والاجتماع بهم . وذلك منعاً لما عسى أن يكون
ويحدث من بعض السفهاء الذين فى قلوبهم مرض .

ومفضل على ثانى الاحتمالين أى على التبرج المصحوب بجميع أنواع
تلك الزينة التى لا يحل إبرازها لغير البطانة والحاشية حتى لا تعود
النساء إلى تبرج الجاهلية الأولى . وهو التبرج بدون عفة عن ذلك
الزين الخارج بهذه الزينة البارزة التى لا معنى لها بعد كشف بعض
أجسام النساء وتبرجهن ، إذ ذلك الكشف والتبرج من النساء المجاهدات

في الحياة يقوم مقام تلك الزينة الممنوعة والمحظورة في هذه الحال أحسن قيام ، أو قياماً مساوياً .

وأيا ما كان فإن احتجاب أولئك القواعد من النساء وإرتدائهن الزى الكامل هو الأصل والفرض والعزيمة لتجميلهن وتكميلهن حيث كان خطاب التشريع فيه بصيغة الأمر والنهي .

وتبرجهن وارتداؤهن الزى الناقص هو الفرع والرخصة والإجازة عند قيام عذر وضرورة حيث جعل الخطاب فيه بصيغة التثنية والتخفيف وهي نفى الخناح والإثم .

ولكن ماذا يقول الأئمة السابقون في ذلك المعنى المزدوج لهذا الحكم العظيم والتشريع الثابت الذي لا يبلى على الدهر أبداً مهما بليت تشريعات وتشريعات ؟

ماذا يقولون بعد أن قالوا في معنى القواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً إنهن العجائز الفانيات ؟ .

إنهم يقولون إن الثياب التي ليس على العجائز الفانيات من النساء في وضعها ونزعها عنهن من حرج هي ثلاثة .

(١) الجلباب وهي ما نسميه بالعباءة أو الملاءة .

(٢) القناع وهو ما يلبس فوق الخمار لستر الرأس .

(٣) الرداء وهو ما يوضع على المنسكبين كالصديرية ، .

وأن يسعفف هؤلاء العجائز الفانيات ويمتنعن عن خلعهن وطرحها عنهن خير لهن من ذلك الخلع والطرح ، لأن من شأن ذلك الاستعفاف الكمال والوقار والهيبة والتعالى عن الرخص وهي أدنى مراتب الأحكام .

وإن سألهم أى شئ حملكم على أن تخصصوا الثياب التى أجاز الله تعالى للنساء أن يلقينها على أجسامهن بالثياب الظاهرة التى تلبس فوق الاستار الخاصة بالرأس والرقبة وسائر أجزاء البدن ؟ ليقولن إنها الآيات السابقة على هذه الآية وهى آيات النهى عن إبداء الزينة التى فى شئ أجزاء الجسم (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) .

وأما الأحاديث النبوية فقد جاء : « أنه صلى الله عليه وسلم قال لا أسماء بنت أبى بكر ، يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا ، وأشار إلى وجهه وكفيه » « وأنه أتى رسول صلى الله عليه وسلم بقباطى فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم دحية الكلبي قبطية . وقال له ، أصدعها نصفين ، فاقطع أحدهما قميصاً وأعط الآخر إمرأتك تختمر به ولنجعل تحته ثوباً لا يصفها . » .

وأنه صلى الله عليه وسلم قال ، المرأة عورة وأنها إذا خرجت من بيتها استشرقها الشيطان نحو ما فى نسخة .
ولكن تقدم أن هذه المعانى صحيحة حقاً ، وأنها خاصة بغير القواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحاً ، وهن النساء اللاتى يرجون النكاح ويتهين له بلبس الزينة الفاتنة ، ولفرق عظيم بين هؤلاء النساء وهؤلاء النساء ، ومن العدل أن يعين بينهما فى الحكم للصالح ما دام قصد أولئك غير قصد الأخريات . وإن كان قصدهن جميعاً قصداً شريفاً .

سيعقولون أنه تعالى قد قال (ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن) .

وحيث حرم إبداء زينة النساء لغير بطانتهن وحاشيتهن ولغير أصحابهن وأهليهن ، حرم إبداء مواضع تلك الزينة من باب أولى .
ولكننا نقول لهم ، إن هذا القياس تحريف وتخريف ، لأنه ينافي قاعدة يسر الدين الناطقة بها النصوص العديدة ، والتنطع في الدين أمر يكرهه الله تعالى . والتشدد في الشريعة الغراء أمر لا ينسجم مع روحها السمحة ، وقد قال رسول الله ﷺ (هلك المتنطعون) .

ولو سألتهم ، إنكم قد خصصتم القواعد من النساء بالعجائز الفانيات ، وخصصتم ثيابهن التي يجوز لهن وضعها عن أجسامهن في كل حال لا سيما في حال العمل أو انتظاره أو الذهاب والإياب من أجله بالشباب الظاهرة العليا ، فهل خصصتموهن أيضاً بالنساء الحرائر دون الإمام ؟
لا ريب أنك تجدهم يختلفون في الجواب ، فبعضهم يقول إن هذا التشريع خاص بالنساء الحرائر دون الإمام . وبعضهم يقول بتعميم هذا التشريع وتطبيقه على الحرائر والإماء بلا إختلاف معللاً قوله بكثرة الفساد وانتشاره بعد إنتهاء عهد رسول الله ﷺ .

والواقع أن هؤلاء الأئمة أصبحت لا ترضينا إجاباتهم وإختلافاتهم بل أصبحت لا ترضينا أقوال المعجبين بهم والوارثين لفقهم وفهمهم .
لقد كتب أولئك الأئمة السابقون كتابة تتفق مع عقليات عصورهم ونظرها إلى الأمور ، وجدير بنا أن نكتب ونبرز المعاني التي تتفق مع هذا العصر الواسع الثقافة الواصل إلى أعماق القلوب والشعور والحس والغريزة والمتوغل في داخل الحياة ، وباطن الواقع .

إن هذه الإمام مثل الحرائر في حب الخير وحب الدين ، والرغبة

العمل الصالح . فمن هو ذلك الذى فرق بينهن وبين الحرائر وهن شقيقات
فى الجنس والدين ؟ .

لقد ترك هؤلاء الأئمة ، الإماماء المؤمنات على تشريع الجاهلية
الاولى ، وقالوا لانهن لا يدخلن فى تشريع الإسلام الذى وضع للنساء
فى القرآن وأقوال محمد صلوات الله عليه وسلم ، ياسبحان الله إنكم لتقولون إفكا وزوراً ،
وتستنبطون خطأ وتؤولون التأويل الباطل ، فهذه الآيات الخاصة بالنساء ،
وهذه هى الالتقاط التى تكونت منها تلك الآيات ، كهدالة على العموم ،
ليس فيها ما يدل أو يشير إلى الخصوص المتكاف البغيض ؟ .

وهل يخدمكم أن هؤلاء الاماء فى كل مجتمع موضع تبرج وعدم
إلزام وتكليف بالحجاب والغطاء السابغ ؟ ، أستم ترون هذه الرخصة
التي أمامكم لهن ولغيرهن من القواعد من النساء اللاتي لا يرجون
نكاحاً ، وهى التبرج والخط من الثياب العائقة لهن عن النشاط عند
قبضاء الحاجات والقيام بالأعمال الواجبة ؟ .

بل لماذا لم تبيحوا لبعض النساء الحرائر التعاملات أن يجرى عليهن
ما يجرى على الاماء من القوانين الخاصة بإباحة كشف بعض أجزاء
الجسد ، مادام لا يمكن تطبيق قوانين ستر تلك الأجزاء الستر التام ؟ .
أليس يوجد بعض النساء الحرائر يحتجن إلى العمل أكثر من
بعض الاماء ، إذأنهن يشتغلن متعبات فى الحقل أو المصنع أو المحلات أضعاف
الاماء ؟ أليس العدل هو المساواة بين الصنفين ؟

وكيف تضيقون رحمة الله تعالى الواسعة وتقولون أن هذا التبرج
وتخفيف اللباس الذى أذن الله تعالى به عند الضرورة والظروف القاهرة

ولإنما هو للعجائز ووجههن دون سائر النساء ، وهن في حاجة إلى التوسعة وإلى هذه الرخصة مثل العجائز ، بل أكثر لأن العجائز لا يؤدين أعمالاً مثل غير العجائز .

على أننا إذا نظرنا إلى أن علة الترخيص للعجائز في التبرج هي الضعف والضعف الجنسي ، فهذه العلة تتمحقق في غير العجائز . ففهن من الضعف ما فهن ، وقهر الغريزة الجنسية في حكم الضعف الجنسي وهو أمر ميسور إذا صالحت عقولهن وقلوبهن .

وماذا يقول هؤلاء الناس في نساء مريضات لا حول لهن ولا قوة ؟ هل يفرضون عليهن الحجاب في كل عضو من الأعضاء ويقولون إنهن غير عجائز ، أو يعطونهن حكم العجائز وينقصون حكمهم وفهمهم بأيديهم . من الخير والمصلحة العامة ، ألا نستشير أحداً بهذه الفتاوى القديمة التي ليس لها الحظ الاوفر من الصحة فلم تعد صالحة للعمل بها في هذا العصر المتقدم .

وعلينا إذن أن نقول للناس ترفقوا بالنساء عامة فإنه لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ..

وأن نقول لهم مروهن أن يلتزم من البساطة في الزينة إلى آخر حد إذا كن في مجتمع عام ، وأن يضعن أثقال الزينة وأوزارها فلا يحملنها في الخروج ولا يظهرن بها أمام غير أهلهن وذويهن وحاشيتهن وبطانتهم .

وعلموهن الدين ، ليحفظن حدود الله ويحافظن على الشرف والعرض في وقار وأدب واحتشام .

وآخر ما نقول في هذا المقام ، أن آخر شرح وآخر بيان لعورة النساء وزينة النساء وزى النساء هو ما ورد في سورة النور ، ولهذا أوصى رسول الله بتعليمها للنساء عامة حيث قال (. . . .) وعلموهن الغزل وسورة النور) وفي الشرح وتكرير البيان ، تقرير للمعنى وتأكيده وتقوية .

وهكذا جاءت هذه الأحكام الإسلامية بالنسبة إلى زينة النساء وزى النساء بعد التصفية ، وبعد أن أخذت دوراً تخلصت فيه من أولئك السفهاء المغازلين والمشاكين للنساء والفتيات « لئن لم ينته المنافقون والمرجفون في المدينة لتغرينك بهم ، ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ، سئنه الله في الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . »

أى بعد أن استقرت الاخلاق الإسلامية العامة واستقام الناس طوعاً وكرهاً رجعت أحكام التبرج والاستعفاف عن التبرج وعن الزينة إلى حالتها الطبيعية . مراعى فيها الحال والمقام والتردد بين الحد الأعلى والحد الأدنى في السهولة والمصلحة للنساء والبنات على حد السهولة والمصلحة للرجال والابناء . ألا ترى أن عورة الرجال هى عورة النساء وعورة آدم كانت عورة حواء ، غير أنه لما حرم الله تعالى على الرجال هذه الزينة من حرير وذهب . كما أخبر رسول الله إذ أنه أخذ قطعة من حرير وقطعة من ذهب وقال (هذان حلالان للنساء أمي حرامان على ذكورها) وصار هكذا العرف والعادة ، فالبنات تنشأ في الحليمة تنشئة زائدة على الابن ، اقتضى الأمر زيادة ستر النساء وتحجبهن الحجاب الزائد ، حتى

لا يجتمع مؤثران النساء والزينة الفاتنة على إنسان واحد ، إذا ما اقتضى الأمر ، النظر إلى تلك النساء لحاجة من الحاجات أو النظر إليهن نظراً عابراً مفاجئاً حيث لا حاجة .

على أى حال فالثياب الطويلة الملبوسة أكمل للإنسان ذلك أنها تجعل له كرامة أعظم ، إذ لا يستوى إنسان مستور الستر الكامل وإنسان مستور الستر الناقص مهما كانت العلة والسبب ، ومن هو الذى يستطيع أن يسوى بين هذه الحال وهذه الحال الأخرى بالنسبة إلى النساء أو بالنسبة إلى الرجال ؟

ألا ترى أن الله تعالى حين وضع الحكم فى هذا المعنى أول ما وضع يقول (قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوا أنفسكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير) أى خير بالنسبة إلى النساء والرجال على حد سواء .

وألا ترى إليه حين يقرر الحكم الطبيعى للنساء يقول (فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم) يريد التوسعة على النساء والتفريج عنهن والتيسير عليهن . إذ من الحكمة التردد بالنساء والتنقل بهن بين هذين الأمرين التبرج بغير زينة ، والحجاب المشدد مراعاة للظروف والأحوال .

أى أن شريعة الله تعالى تنظر إلى باطن الأمر أكثر مما تنظر إلى ظاهره . ولهذا اختلف التشريع فى أول عهده بمكة ، عنه فى أول عهده بالمدينة ، عنه عند ما استقر عليه فى الختام .

انظر إلى أول تشريع عام بمكة (خذوا زينتكم عند كل مسجد) . وانظروا إلى أول تشريع عام بالمدينة (... يدنين عليهن من جلابيقهن)

وانظروا إلى آخر تشريع عام بالمدينة (. فليس عليهن جناح أن
أن يرضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة)
وذلك بعد أن طهرت المدينة من أخلاق السوء وطابت وتقدمت
وانتشر فيها السلام بين المجتمع . ورجعت الأمور فيها إلى مجراها
الطبعي ، كل يسير في طريقه مستقيماً لا يلتفت ولا ينظر إلى النساء .
لأن الجميع أخوة ، يتبادلون المحبة والاحترام والسلام ، وليس في قلب
واحد منهم سوء لأخيه أو أخته .

أى أن أحكام شريعة الله تعالى ابتدأت سهلة ، ثم اشتدت لعارض ،
ثم لفت ورجعت كما كانت سهلة مع الترغيب في التشدد في التستر والتحجب
التام ليكمل للنساء دينهن وليحفظ لهن كرامتهن ووقارهن ، ومع الترهيب
من ذلك الزيف والانحراف عما سن من قوانين وأحكام . اذ جزاء النساء
المتبرجات تبرج الجاهلية الأولى أن يحبسن في البيوت ولا يخرجن ،
وأن تسحب منهن تلك الرخصة وهى الخروج والاختلاط بالناس
للتعامل بالحسنى .

ألا ترى إلى الله تعالى يقول (وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية
الأولى) . فقد أمرهن الله تعالى بالاستقرار في البيوت ليغرس في نفوسهن
ذلك المبدأ الجليل ، وهو أن يكون للبيوت نصيباً من وقت النساء
حسب الظروف ، لاسيما وأنه سبحانه وتعالى كان لا يزال يمهّد لوضع
تشريع متين ثابت وهو الذى جاء بسورة النور ، لأن ما نزل من ذلك
في سورة الأحزاب كان بصفه مبدئية . وما كان بهذه الصفة فيه شيء من
الضعف ، ولو أنه ضعف اقتضاه قانون التدرج والارتقاء والتربية

والتنشئة الاخلاقية الحكيمة أما غيرهن رضى الله تعالى عنهن فاستقر ارهن
فى البيوت لهذه التربية الكريمة وجزاءهن حيث قصرن فى ستر أنفسهن
بالثياب فكانت جدران البيوت هى الستر حتما مقضيا .

وها هى عائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها ترى هذا الرأى وهو
سحب تلك الرخصة من النساء عند فسادهن ومخالفتن تلك التعاليم والتشريعات
المقدسة . فقد جاء عن عائشة أنها قالت (لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث
النساء لمنعهن المساجد كما منعت نساء بنى اسرائيل) فإن النساء مادم
بن يمتن الجامعة الشاملة لا يراعين الاخلاق والوقار فهن عورة يذبحى
سترهن بالجدران مادم لا يستترن بالثياب التى أمر بها الله تعالى .

وفى الواقع لقد نجح القرآن العظيم فى تثبيت قواعد الاخلاق فى
جزيرة العرب وبين المسلمين بهذه السياسة الحكيمة وذلك التشريع
الرشيد الا وهو فرض الساتر التام على النساء عامة فلا يرفع منه أى جزء
إلا لعذر ومعنى وغرض صحيح ، ولا يتنزل من الأعلى وهو
تمام الساتر إلى الأدنى وهو الساتر الناقص إلا لأسباب قهرية .
إذ ليس الأمر متروكا للاختيار والمشية ، بل إلى الضرورة والقهر ،
وحتى فى حال الضرورة والقهر ، فعمل النساء على إرتداء زين التام
عمل عظيم يؤجرن عليه ويشكرن ، لأنه استعفاف ، والاستعفاف جهاد
إلى العلا والمكارم الفاضلة .

وبهذا يظهر أن المعركة الجدلية التى أثرت من أزمان مضت إلى
اليوم ولا سيما حول زى الفتيات فى المدارس والجامعات كان نتيجة عدم
الفهم وسوء التفاهم من الخصوم
ولو أنه كان قد إنكشف هذا المعنى وهذا الفهم من تلك النصوص

الإسلامية للناس من يوم أن إبتدأت تلك المعركة الجدلية لعاد الناس إلى الصفاء والحب ، وأصبحوا إخواناً بنعمة الله تعالى .

ولكن الفرصة لم تفت فهمى لازالت موجودة أمام الناس . فعليهم إذن أن يلتفتوا بأنظارهم وعقولهم وقلوبهم إلى تلك الأحكام الكائنة والمستقرة في كتاب الله تعالى وسنة رسول الله الكريم ، ليعرفوا سماحة الإسلام ويسره وحكمة تشريعه العالمة ، وأنه الدين الذى ليس فيه أغلال ولا قيود ولا أقال تعوق البشر عن التقدم والرقى ومنعهم من الانطلاق في سبيل المدنية والحضارة في أى زمان ومكان .

على أنه ليس فى إمكان إنسان ما أن ينكر أن لهذه المدنية والحضارة المدنية نصيباً فى ظهور هذه المعانى والتشريعات الإسلامية العظيمة الخاصة بالنساء من تحجب وتبرج وتحديد تلك العورة الغليظة .

لقد كانت هذه المدنية والحضارة عاملا من العوامل التى نهتما إلى ذلك الفهم الراقى ، وإلى أن هذا الدين الحنيف قد سبق هذه المدنية والحضارة بقرون عديدة فى أمر الزى والشكل ، بل فى أمر الآداب والأخلاق الخاصة والعامة فهذا التحديد الخاص بعورة الإنسان ، وهذا التبرج وهذا التحجب كل فى موضعه وفى مقامه ، أمور من الدين وكل أمر منها جزء من التشريعات الإسلامية الخالدة ينبغى تعاطيه والأخذ به متى وجدت الدواعى إليه . فما كان هذا الإسلام عائقاً للإنسان عن المصلحة وعن التقدم والسبق فى هذه الحياة فى شتى الميادين مادام ذلك الإنسان مستمسكاً بحكمة هذا الدين القويم وبهذه الأخلاق العظيمة التى تحفظه من كل سوء وما دام يأخذ بالتى هى أحسن .

والواقع أن الله سبحانه وتعالى قد أودع كتابه العظيم من الأسرار الحكيمة ما لا يتفتق عنه الذهن إلا بعد دورات وجولات وقراءة ونظر عميق ، ولكن لا يظهر تلك الأسرار التشريعية العظيمة إلا حيث يوجد الفهم الراقى . ورفعة العقل البشرى ووقوفه على مدى الخير والشر . وإذن يكون من الظلم الفادح أن نكلف النساء بهذا التكليف الشاق ، في حين نترك الرجل حراً ولا نحتم عليه إلا ستر السواتين أو ستر ما بين السرة والركبة ، دون باقى الجسم ، في حين أنه ليس هناك من داع إلى هذا التشدد السخيف وهذا الحرج المرذول لأن النصوص الشريفة صالحة لهذه المساواة ، ما لم تحمل وما لم تزر النساء هذه الزينات غير المستساغة ، والخارجة عن العادة والعرف الصحيح والذوق السليم . أن من الخطر على شريعة ما ، أن تكون متشددة دائماً لا تراعى الظروف والملايسات ، والشريعة الإسلامية شريعة خالدة تراعى ذلك كل المراعاة ، فنجدها تنقل من حال إلى حال مراعية المصلحة والغرض الحكيم ونجدها ليست جامدة وليست ضيقة على حال واحدة وليست متشددة لا تلين ولا تتسع .

أنها ترسم الطريق المستقيم وتوحد الهدف والغاية وتعرض عليك الحكم الذى يدور مع الزمن والمصلحة ، ومن أجل هذا كانت خالدة فى الآفاق وفى النفوس لن تنبذاً أبداً إذا فهمت على أصولها الصحيحة الحق . وهل ينبذ إلا الباطل ؟ وهل ينبذ إلا سوء الشرائع ؟ وهل ينبذ إلا الأصر والإغلال التى ترهق الناس إرهاقاً ؟ ومعاذ الله تعالى أن تكون تلك الشريعة أضراً وأغلالاً كذلك ، فإنها وإن اشتملت على

قيود فهدى القيود تخفف عند الحاجة الى قيود سهلة مقبولة ، أى أن تلك القيود قد تحل عند اللزوم ويطلق سراح الإنسان الى ما فيه الخير .
وارجع البصر والفكر الى ذلك الحجاب المضروب على نساء هذه الامة الإسلامية بشتى أنواعه .

ثم ارجع البصر والفكر الى ما صنعه هذا الدين من تقدم الفكر وغرس مبادئ الاخلاق في هذه الامة رجالا ونساء ، والى الاذن لطؤ لاء القواعد من النساء بالتبرج والظهور أمام الرجال من غير أهلهن وحاشيتهن ، والاختلاط بهم من غير زينة يمكن الاستغناء عنها ، فإن هذه الزينة في هذه الحال لا تشرف صاحباتها ولا داعى اليها ، وهى ان دلت فإنما تدل على شعور صاحباتها بمركب النقص والضعف وسعيهن فى تكميل ذلك النقص وستر ذلك الضعف بهذه الزينة ، ولا أقول النقص الطبعى أو الضعف الجبلى ، فأن هذه التلميذة أو الطالبة أو الموظفة فى وظيفة من الوظائف أو العاملة فى عمل من الأعمال الشريفة تشعر بتكميل العلم والتربية لها وتشعر بأنها ليست ضعيفة ، لأن قيامها بوظيفة أو عمل ما ، قد جعلها قوية كالرجل تؤدى ما يؤديه وتنجز ما ينجزه ، بصرف النظر عن عامل الانوثة والرجولة .

ارجع البصر والفكر الى هذا وذاك ، الى الحجاب والتبرج والاختلاط المجرد من كل مظهر الاظهار البساطة والستر الجميل النظيف ، تر عظمة ذلك التشريع الذى فيه ما فيه من الرفق ، والرحمة ، والإرشاد الى النافع من توجيه النساء الى العمل الصالح والزامهن بالإكتمال بأعمالهن وكفاحهن فى هذه الحياة ، عن صناعة الزينة التى لا معنى لها ، وعن التجميل الصناعى المستعار ، فإن الأعمال والكفاح

خير زينة يتوج بها النساء رءوسهن ويزين بها أمام الرجال .

وهكذا ينقلب الفهم ويفاجأ الناس والعالم بهذا التشريع الهام الذى ليس فيه تعسف ولا تنكيل ولا ضرر ولا اضرار والذى لم يكن معروفاً فى دين الله تعالى من قبل لدى العامة وأكثر الخاصة ، اللهم فى عصر النبوة والرسالة والذى كان سرّاً من الأسرار الخفية التى لا يعرف أحد من عالم اليوم أنها من صميم الإسلام .

فهل ننتظر بعد إلا قلب مجرى هذه الحياة الإسلامية وتطورها إلى يرى أكرم بل إلى عادات أعظم ترتفع فوق مستوى الشبهات والشك والظن وعيوب المجتمع وتلك سنة الله ولن تجد لسنة تبديلاً . بل هكذا سوف يعيد التاريخ نفسه ويعود لهذه الأمة شبابها وقوتها من جديد فنرى أننا قد غيرنا آراءنا وموقفنا القديم من زى النساء ومعاملتهن ذلك التغيير السليم المعقول .

ومهما يكن من شيء فلن نفسى أن نقول ، إنه من الجائز أن يكون معنى قوله تعالى (. . . غير متبرجات بزينة) هو غير متبرجات لغرض إظهار زينةهن لانه غرض غير شريف ، أى غير متبرجات لغاية إطلاع الناس على زينة من زينةهن ، بناء على أن الباء فى قوله تعالى (بزينة) للسببية والتعليل ، لأنه يتعين ويتحتم على تلك النساء القاعدات أن يقصدن بوضع ثيابهن التخفيف عنهن للضرورة الملحة طاعة لله تعالى أى يقصدن إتباع حكم الله تعالى وهو تلك الرخصة الى رخص بها لهن امتثالاً له تعالى لا تقليداً لباريس مثلاً أو لأحد من نساء هذا القرن لأن الواجب أن يتميز نساء المؤمنين على نساء العالمين ولو بمميز باطنى وهو النية

والقصد الشريف (بانساء النبي لستن كأحد من النساء) ، ونحن نقول
بانساء المؤمنين لستن كأحد من النساء .

وإذن لا حرج على القواعد من النساء — وكل النساء قواعد بهذا
المعنى الجديد — أن يبدن في زينتهن أمام جميع الرجال ، مادمن قد
أخلصن لله تعالى لأنه تعالى لا يمنح رخصه وتسميلاته للعصاة حتى
لا يساعدهن على عصيانه .

وماذا مت قد صلحت قلوبهن . لأن صلاح القلوب وقاية لهن
وعصمة من الوقوع في الشر والتهلكة ، (فإن في الجسد مضغة إذا
صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله ، ألا وهي
القلب) .

وهذا المعنى هو في الواقع معنى وصف المحصنات بالغافلات في قوله
تعالى (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات . . .) وهن الغافلات عن
الشر ، الخاليات الذهن عنه ، اللاتي ليس في رموسهن إلا ما يرضى الله
سبحانه وتعالى وكفى ، إذ سلامة القلب وحسن النية ، لا بد من توفره
ووجوده في تبرج النساء الذي أحله الله تعالى للحاجة والضرورة ليكون
الوقاية الحافظة للنساء من الفساد وإرادة البوء ، ونعمت تلك الوقاية
وهي وقاية الإيمان والأخلاق والعزم على التقوى والاستقامة في هذه
الحال التي ربما تحمل النساء على الإعجاب بأنفسهم وإرادة الباطل والحرام

على أن ذلك المعنى وهو التبرج المصحوب بالزينة لحاجة العمل
ومقتضيات الحياة لا لذات التبرج وأنه آخر ما تخرجه المحلات الخاصة
بالحياسة في باريس أو غير باريس ولا لذات الزينة على إنها تقدم

ورق ، إن هو في الحقيقة إلا آخر المعاني وأدناها حيث أنه فيه بعض بعض الشبه بتبرج من لاخلاق لمن النساء ولو أنه شبه في الظاهر لا في الباطن . فهذه النساء العافلات المؤمنات لا يعرفن من المومسات الخبيثات في حال التبرج بزينة اللهم إلا من بعض حركات وسكنات قلبها يفتن إليها أحد من الناس .

على أنه لا يخفى على أحد أن معاني هذه الآية الكريمة متقاربة ، أو يجمعها إرادة الصلاح والخير لهؤلاء القواعد من النساء معززة هذه الإرادة بالتخلي عن الزينة التي لا دخل لها في ستر العورة ، أو غير معززة إلا بالاخلاق وحسن النية مع مراعاة اللياقة والذوق السليم ، واللياقة والذوق السليم في حقيقة الأمر في البساطة والتخفيف في هذه الزينة التي تحملها النساء عادة للتنافس في الجمال وللمغالاة والمبالغة في الحسن . ولكن على كل هذه المعاني الجليلة التي استخرجت من تلك الآية الكريمة ، لا يزال رأى عمر بن الخطاب في الحجاب كما هو لم يمس ، ولكن لا على أنه يلزم في كل حال من الحالات كما كان يفهم السادة السابقون من هؤلاء الأئمة الفضلاء ، بل على أنه قد يلزم وقد لا يلزم تبعاً للظروف والأحوال .

ومعنى هذا أن القرآن العظيم لم يوافق عمر رضي الله تعالى في صرب الحجاب على النساء على طول الخط ، وإنما وافقه إلى حد ما ، أي عند حد معين ، إذ نزل ذلك القرآن العظيم موافقاً له في حالات دون حالات عصمة ثم من بعدها سعة بنساء هذه الأمة العظيمة .

ولعل عمر رضي الله تعالى عنه كان يريد ما أراده القرآن من ضرب

الحجاب في حالات ورفعه في حالات من باب موافقة الخاطر والمصادفات وإن كان لم يتحدث عن هذا الرجاء أحد من قبل .
وإذن يكون لا خلاف بين رأى عمر وما نزل من القرآن الكريم في ذلك الحجاب .

على أنى أحب أن نعلم أنه فرق بين كلمة المرأة عورة ، وكلمة عورة المرأة ، فعورة المرأة كعورة الرجل ، والمرأة عورة مكشوفة أو مستورة بثيابها التامة ، فلنتذكر ذلك إذا مرت علمينا إحدى الكلمتين مراعين ما تقدم .

* * *

ولنتكلم بصفة خاصة في زى النساء وشكله وهيمته والجمال التى يخرجن فيها في زينتهن أمام المجتمع العام ، وهل أخذنا ذلك عن أحد من الأمم الغربية ؟
هذا الزى الحق انه الزى العام فى كل نساء للعالمين ، فى القرون الماضية والقرون الحاضرة .

وإذن تكون المدنية والحضارة الحديثة لم تفعل شيئاً جديداً فى هذا الزى ، ولم تخترع فيه وتبتدع إلا فى الإتيقان والجودة وحسن الذوق ، وجمال التفصيل ورقى الخياطة ، بعد ظهور تلك الآلات العاملة فى شتى الاعمال ، وهى على الإطلاق أعمال من هذا الدين الذى جعل الجمال مثلاً أعلى .

يحدثنا التاريخ أن زى نساء مصر ، فى عصر قدماء المصريين ، هو الإزار ، والقميص القصير ، والخمار .

ثم ها هو التاريخ يحدثنا أن النساء فى جزيرة العرب كن يلبسن قبل الإسلام درعاً وخماراً ، ومنهن من يلبسن الإزار والرداء فحسب أو علاوة على الدرع والخمار والوشاح ، ومنهن من كان يشد وسطه بالنطاق .
وهكذا نرى النساء فى هذا العصر الحاضر لا يتحدث عن هذا الزى

الذى يوافق طبيعتهم أكثر من أى زى من الأزياء الأخرى .
وقد زاد الإسلام فيه الجلباب . وإن كان قد عاد وأباح الاقتصار
على هذا الزى القديم بشروط معلومة ، وهى عدم استعمال تلك الزينة
المسرفة وعدم الظهور أمام مجتمع عام بهذا المظهر المريب البساعث على
سوء الظن ، وعدم اتقاء الفتنة وحدوث ما يمكن حدوثه من جهة السفهاء
وأراذل الناس ومن جهة الله سبحانه وتعالى الغيور على الحرمات والإخلاق

الرقص

(٦) أما نقلنا عنهم ذلك الرقص الخاص وموافقتنا إياهم فى الانطلاق
فيه إلى أبعد الحدود الممكنة فى الوقت الذى نحتفظ فيه برقصاتنا الخاصة ،
وهو سادس شئ - فلنعلم أن الرقص فى ذاته معناه الطفر والحجلان
والقفز والوثب والنزو ، كما يفعل الطائر إذا نزا فى مشيته وخطر .
وكما يفعل البعير العقير على ثلاث قوائم والغلام على رجل واحدة
أو على رجلين .

وكما تفعل الخيل إذا رقصت .

وهو أمر جبلى وفطرى فى الإنسان ينبعث عن السرور والفرح
والطرب والنشوة والعجب والاختيال مهنذاً مطهراً من الخلاعة المثيرة
للشهوة أو لسيخط أحرار الخلق ، غير أنه بمرور الزمن وتطاؤل العمد
قد دخل فيه من البدع والردائل ما دخل .

وإن أردت الحقيقة فهمى أن لكل طائفة رقصها ، فهنا رقص
أشراف الناس ، وهو يمثل الشرف والنبيل والطهر والقدس والعفاف ،

وقد رقص على وجعفر وزيد هذا الرقص الجميل الرفيع ، لأنه هو
المناسب لمقام هؤلاء الأكار من صحابة محمد بن عبد الله

وهذا رقص أوساط الناس ، مثل رقصة الحبشة في مسجد رسول
الله عند زيارتهم لمدينة هذا الرسول الطيبة ، وهو يمثل عزيمتهم وابتهاجمهم
برسول الله وفرحهم بلقائه الذى هو من أكبر أمانيتهم وآمالهم ، كما
أنه يمثل طيبتهم وشجاعتهم ومدى تأثيرهم بالإسلام .

وهذا رقص أوباش الناس ، وهو يمثل السفالة والجهل بالقيم
الاخلاقية والادبية والاستغراق فى الشر إلى أبعد الحدود الممكنة .

ولما كان الإسلام دين الفطرة الذى لم يجعل فى الرقص من حرج على
الرجال ما دام فى حدود العزة والكرامة والسمو ، فهو كذلك دين
الفطرة الذى لم يجعل فى الرقص من حرج على النساء فى تلك الحدود ،
لأن النساء والرجال صنوان يشتركان فى الجملة والفطرة والدين والحقوق ،
ومادام الامر كذلك فيسرى الحكم إلى الجميع إذن .

أى أن الرقص أمر جبلى وفطرى ودين وحق مشروع فى حدود
الكمال للرجال والنساء على سواء .

هذا هو الله تعالى يقول « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى
فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس
لا يعلمون ، ومعنى ذلك القول الكريم . إنه مادامت الفطرة الخالصة
والطبع السليم يريان استحسان الرقص لآثره الطيب فى المجتمع ، فإنه
يكون من الدين إلا إذا خرج عن الوقار وانسلخ عن مبادئ
الإنسانية ، ذلك أنه لا عداوة بين هذه الفطرة الصافية والطبع البرى من

جهة وهذا الدين الحنيف من جملة أخرى ، ومن أين تأتي تلك العداوة وقد جعلهما الله تعالى على وفاق ووئام .

وهذا هو تاريخ هذا الدين العظيم يبين للناس ، إن هذا الدين لم يمس الرقص بسوء ، بل عمل على نهضته ورفع مستواه إلى أقصى الحدود الخلقية والادبية بله الدينية .

كانت العرب رجالا ونساء يؤدون مراسيم الرقص وطقوسه لله تعالى وللآلهة التي كانت حول الكعبة تعبد مع الله زوراً وباطلاً على أنه نوع من أنواع العبادة التي شرعت وسنت للناس

وكانت أولئك العرب من الجنسين يؤدون هذا الرقص بل هذه العبادة التي لم تكن خالصة لله تعالى حينئذ لأنهم ما زالوا مشركين في ذلك الوقت قبل فتح مكة المكرمة ، أحياناً وهم يطوفون عرايا ، وأحياناً وهم يصلون ويناجون ربهم وآلهتهم التي أشركوها مع الله تعالى كذباً وبهتاناً ، وأحياناً يجعلون ذلك الرقص هو نفس الصلاة أي الصلة والوسيلة والزاني والقربى التي هي الطريق إلى رضا الله تعالى واستدراار عطفه وبره بجوار رضا آلهتهم وعطفها وبرها كما هي عقيدة الشرك بالله تعالى ، فإن هذا الرقص نوع من أنواع التعظيم والجلال الذي يعبر ويدل عما يمكنه المحتفلون لأصحاب الذكر والذكرى من إخلاص وولاء . وأنه إذا كنا نفعل هذا الرقص ونأتي به أمام من نحبه من الناس فمن باب أولى نفعله ونقوم به أمام الله تعالى الذي نحبه الحب الأكبر ، في تلك الذكريات الكبرى السعيدة الخاصة بالله سبحانه وتعالى مراعين غاية الأدب والوفار والإجادة والإتقان ونحن على أحسن ما يكون

من الطهر والقدس أمام هذا الإله الواحد الاحد .

هذا ما كان عليه أمر العرب من الرقص في عصر الجاهلية الاولى ، ولكن لما جاء هذا الإسلام الكريم نعى عليهم هذا الرقص في جميع حالاته ، لانه كان موجهاً للشركاء مع الله تعالى علاوة على أنه كان يصحبه العرى (بضم العين وإسكان الراء) في بعض الحالات وهي حالة الطواف بالبيت ، من الرجال والنساء على حد سواء فقد روى أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون ، هذا وغالباً ما يصحب هذه الحال الرقص لأن ذلك الصفيق وذلك التصفيق لا يحدثان غالباً إلا في حالات الطرب ، وحالات الطرب يلابسها في الاغلب أنواع الرقص ، وأنواع الرقص ، لكل نوع منها مقام خاص وموضع وظرف خاص به ، ليس من الحكمة والصواب استعماله في غيره ولكن أين موضع النص من القرآن الدال على هذا النعي ؟ . إن هذا النعي هو المعنى ، والمراد من الآية الكريمة في سورة الاعراف (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) أى المسجد الحرام في الطواف والصلوات ، وفي كل المساجد في جميع أنواع الصلوات .

وهو المعنى ، والمراد من الآية الكريمة في سورة الانفال (وما كانوا أولياءه ، إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ...) . فلقد كان في عبادة العرب هذا المكاء وهذه التصدية مع ما يصاحبهما عادة من أنواع الفن الجميل الذي كان موجوداً في أيام تلك الجاهلية الاولى ، وقد اقتضت ذلك ديانتهم وحكمتهم زيادة في سموهم أمام الله ، بل في روعة هذه الذكري ، أى الذكر الأعظم الخاص بالله

تعالى ، بل زيادة في هذا التعظيم الذي لله تعالى ولهذه الاوتان والطواغيت .
ولكن هل هذا اللهو واللعب كان في الملة الحنيفية التي ورثها العرب
عن ابراهيم عليه السلام ؟

من الجائز أن يكون الامر كذلك ، فإن هذا اللهو وهذا اللعب
لا يخرج عن أنه من أنواع المسرات الواجبة ، والبهجة التي لا ترى فيها
الملة الحنيفية أى حرج ما ، مادامت الاخلاق مرعية عند قيامها في مكان ما ،
في المسجد أو في غير المسجد .

وهذا هو الحكم الذي أميل إليه ميلاً شديداً ، بل هذا هو الحكم
الصحيح ، ودليل تلك الصحة أن هذا النبي محمد العظيم عندما ترك مكة
وانتقل إلى المدينة بعد الهجره وجاءه وفد من الحبشة مؤمناً بهذا الإسلام
الحنيف أذن لهذا الوفد أن يرقص في مسجده الشريف ويباشر هذه
المراسيم والطقوس أمامه وأمام شهود من المؤمنين .

وهذا معناه أن حكم الرقص في مكة - حكم الرقص في المدينة ، وحكم
الرقص في المسجد الحرام مثل حكم الرقص في مسجد المدينة في الحل
والحرمة ، وحكم الرقص في ذاته من المشركين حكمه من المؤمنين ،
لا تفريق ولا تمييز إلا في أمور عارضة خارجة عن ذات الرقص
الطبيعية وفطرته المتفقة وجلال الإنسانية وشرفها على ما عداها من
سائر المخلوقات .

وهذا معناه أن الإسلام قد وافق ملة ابراهيم الحنيفة في مشروعية
الرقص في الهيكل والمعبد بل في المسجد أمام الله تعالى قربة وزلفى مادام
يؤدى على الوجه المرضي البعيد عن الاباطيل والاضاليل ، وليس

بعجيب على الإسلام أن يوافق ملة إبراهيم الحنيفة ، لأنه ابنها وربها وتابع لها ، فقد قال تعالى : ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ، وهذا القول الذى يؤيده الواقع التاريخى يدل على أن مشروعية الرقص فى الإسلام مثل مشروعية الرقص فى ملة إبراهيم عليه السلام . ولا يختلف الحكم فيهما على حل هذا الرقص الطاهر الشريف .

وإذن يكون الرقص فى ذاته متى سار فى طريق الدين والأخلاق العالية عملاً مشروعاً ومفروضاً فى أيام الفرح والسرور وفى ساعات التجلى الأعظم على أولئك المتبتلين إلى الله تعالى وفى ساعات الخلوة بالله تعالى عن الناس عند مناجاته الكبرى . فهذا هو الإسلام قد أقره فى عهد ما قبل الهجرة وعهد ما بعد الهجرة .

أقره فى مكة فى مسجدها الحرام ولم يثر على أهل مكة إلا من أجل هذه البدع والخروج عن الوقار وإلا من أجل الوثنية والشرك . وأقره فى المدينة فى مسجدها الحرام من الأحباش . وأقره من على وجعفر وزيد فى المدينة كماهى سماحة هذا الإسلام المعهودة .

ذلك أن محمداً العظيم لم يجرىء ليشقظ الناموس الذى نزل على الأنبياء قبله ، وإنما جاء ليتمم مكارم الأخلاق ، وهذا الرقص الخالص لله تعالى الموافق للفطرة السليمة من تعاليم الله تعالى ، بل من مكارم الأخلاق ، بل من أشرف العادات وأنبى الخصال ، وأعلى الأمور ، وهل ذلك الرقص الجميل إلا مكمل لسعادة البشر ، وهل يكره الله تعالى أن يسعد البشر فى حدود الفضيلة والحق ؟ كلا ثم كلا ، لأنه لا يكره أن يسعد البشر إلا أعدوهم اللدود ، وهو ذلك الشيطان وحزبه من

الجنة والناس . ومن أجل هذه الكراهة يزينون لهم ضروب الرقص
الوضيعة وأنواعه المستنكرة .

ولكن مهما حاول ذلك الشيطان وحزبه تزيين هذا الرقص الشر والسوء
للسذج والبسطاء من الرجال والنساء ، فسوف تذهب محاولاته هباءاً
منثوراً بعد رقى الفكر والوعى والشعور العام الذى أخذ النوع الإنسانى
بأسبابه فى هذا القرن الحديث .

على أنه لما كان ذلك الرقص الذى شرعه الله تعالى فى الإسلام قد
دخل فيه من البدع والردائل ما دخل بفعل تأثير هذا الشيطان وحزبه
من الجنة والناس ، وقوة تزيينه لهذا الرقص الباطل ، منحصر آن ذلك
فى ضروب الرقص الوضيعة ، التى يباشرها سافلة الناس وأنزلهم خلقاً
وديناً راضين مسرورين ، والتى تمثل الذلة والخنوع أمام أولى الأربعة
من الرجال الأمر الذى فيه الخروج عن قواعد الرقص المثالية التى فيها
العزة والعفاف والتبذل والشرف الأمور التى ترفع الإنسان على العالمين ،
فقد وجب أن نرجع ذلك الرقص الشرعى العظيم إلى براءته من تلك
البدع والردائل التى دخلته والناس فى غفلة أى غفلة ، وأن نخلصه مما علق
به من مظاهر خارجة عن طبيعته الأولى ، وذلك ببيان قواعده وأصوله
التى ينبغى أن يراعيها كل راقص وراقصة يريد سلوك الطريق السوى
إلى تلك الحياة الطيبة التى هى أمل كل إنسان له قلب وعقل سليم ، وذلك
على اعتبار ومراعاة أن تلك المساجد الشريفة التى هى كعبة وقبلة للناس
هى الأصل الذى يأخذ عنه أولئك المهتدون إلى الإسلام تشريعهم فى
الرقص ، وأن ماعدا تلك المساجد هو الفرع الذى يخضع لها ويحاكيها

في هذا التشريع الجليل ، وإذن فما هي تلك القواعد والأصول ؟

أنها قاعدتان اثنتان وأصلان اثنتان :

القاعدة والأصل الأول : هي إرتداء الثياب اللازمة طويلة وقصيرة حسبما يقتضيه نوع الرقص ويستدعيه . فإذا ارتدت الثياب الطويلة كان عليها أن تراعى أن تكون تلك الثياب لا يصاحبها شيء من فضلات الزينة ، وإذا صاحبها شيء من هذه الزينة كان عليها أن تستره وتخفيه ، ولكن للأسف يقع ما ينافي هذا الأصل فقد تكون الثياب طويلة والحال أن الراقصة تتبرج وتلع في الزينة الكائنة في تلك الثياب المطرزة ، وذات الرسوم الجميلة ، والكائنة في الأذنين والصدر والذراعين وفوق رأسها أو من على جبينها وكأها في حضرة أهلها أو حاشيتها تنكشف عليهم بلا حرج ولا حساب بل إنها تستحي أن تفعل أماهم هذا الذي لا لزوم له . أما إذا إرتدت الثياب القصيرة وكذا الثياب الشفافة الرقيقة لأنها في الواقع في حكم الثياب القصيرة مادامت السواآت مستورتين بالثياب الثقيلة الغليظة ، عند ضرورة العمل . كان عليها أن تمتنع في هذه الحالة عن التزين بزينة ما ، فلا تتبرج فوق التبرج ، أي لا تضع مافيه بهرجاً فوق بطنها أو فوق سرتها ولا فوق أي موضع آخر ، بل تباشر عملها وهي تاركة لأنواع الزينة ، ويكفيها زينة جمال فنها الرفيع .

ولكن في هذه الحال يجب أن تذكر أنه يجوز للقواعد من النساء وهن النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً العاملات أن يتبرجن لقصد شريف وغرض صحيح يوافق عليه الدين ولو صاحب ذلك التبرج الزينة المناسبة وغير المنتقدة ، ولكن ذلك أدنى رخصة في شريعة هذا الدين في هذا المقام .

والقاعدة والاصل الثانى هو أن تكون حركات الراقصة معبرة
عن أسى المعانى منزهة عن الاثم والمعصية ، فينبغى ألا تحتوى على
رقاعة وخلاعة تمثل السفالة والجهل والانحطاط والمجون ، لأنها من
الأمور المحرمة قبل الرقص ، وما كان محرماً قبل الرقص فهو محرم
فى الرقص .

أما ترقيص الاليتين وترقيص الخصرين أو البطن وترقيص الثديين
مع التمايل إلى الخلف أو إلى اليمين أو إلى اليسار ذلك الترقيص المتكلف
المفتعل الزائد والبعيد عن الرقص الطبيعى الخفيف الذى يعادل خفة
النسيم والهواء العليل .

أما خلع هذه الاعضاء الخاصة وترقيصها على أفراد بهذه الصورة
الخارجة المخزية وبهذا الشكل القوى ، الذى يعتمد على التمايل والتكسر
الخارج عن الحدود والمستنكر من هؤلاء الرقصات المخدوعات اللاتى
فسين انهن بشر مفضل مكرم ، والذى يحز فى نفوس الاحرار حزاً
محزناً أليماً ، و الذى يثير أشجان أصحاب العقول وتتوجع منه القلوب
الكبيرة أشد الوجع حسرة على ما أصاب النوع الإنسانى من تدهور
وإنحدار ، فينبغى ألا يكون بحال لأنه انحطاط للمسرح من سمائه العالية
ووا أسفاه .

بل ما للمسرح وهذا الرقص الجنسى وهو لا موضع له إلا البيوت
والمساكن ، لأنه من الأمور الخاصة بالزوج أو السيد فى حال وجود
ما يملكه المرء من الاماء ، فتقديمه على المعرض العام للرقص إذن خبل
وسفه وخسة وضعة لا سيما أن أكثر البيوت ترفع عنه ، لما ترى فيه

من الاخلال بالكرامة والنزول بالشرف ، ولما تجد فيه من إسقاط
الهيبة والوقار ، وهو من أجل ذلك لا يكاد يوجد إلا في البيئات المريضة
المتحطة التي ليس لها من يعالجها العلاج الشافي ومن يأخذ بيدها ويرفعها
إلى الدرجات العلا .

ولكن نسأل من أين جاءت هذه القاعدة والأصل الأول ؟
ونجيب بأنها جاءت من الآية الكريمة : والقواعد من النساء اللاتي
لا يرجون نكاحاً ، ، فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات
بزينة ، وأن يستعفن خير لهن والله سميع عليم .

أما هذه القاعدة والأصل الثاني فقد جاء من هذا النص الكريم
وكنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر .
وهذا الرقص الرفيع من عمل المعروف بل من الأعمال الصالحات
وليس كذلك الرقص الخليع الرقيق والرقص الجنسي الذي امتزج
بالضعة . والخسة ، لاسيما إذا صاحبه أو أعقبه عبث وفجور زائدين من
الراقصة إذ يدخل في دائرة المنكر ولا ريب لأنه من عمل الجاهلية الأولى .
على أن عدم تمييز الراقصة بين زوجها وسيدها إن كان لها زوج
أو سيد وباقي الناس قد أحدث فوضى اجتماعية خطيرة .

فهذه فوضى اظهار النساء لزيتهن الكبرى التي حرم الله تعالى ظهورها
إلا بالحق والضرورة الداعية إلى هذا الظهور أي بحساب وحكمة .
وهذه فوضى الرقص الباعث على الفتنة والفوضى
الاجتماعية الكبرى .

والواقع إننا شعب يؤمن بالفروق بين البيت والمجتمع العام كما

يؤمن بالفروق بين تشريعات البيت وذلك المجتمع العام ، فالحياة مبنية وقائمة منذ الأزل والقدم على تلك الفروق ليس بين البيت والمجتمع العام فحسب بل بين كل شيء وشيء .

وشعب على مثل هذا الايمان لا بد أنه من الشعوب صاحبات الفلسفة والآراء والنظريات الكبيرة التي يجاهد في سبيلها وسبيل تلك الاخلاق العالية عاملا على ألا يكون بينه أحد من أولئك الخارجين عن قانون هذه الاخلاق ، وألا يعيش فيه همج ما باسم الفن الجميل زوراً وبهتاناً .

والمعنى من هذا الكلام إنه يجب أن نأمر الراقصة مادام الرقص في مجتمع عام بالتزام هتين القاعدتين ودينك الاصلين اللذين وضعناهما للرقص في رقصاتهما في عزة وشم وثقة وإعتداد وخشوع وخضوع للرأى الاعلى بل لكلمة الله تعالى ، إذ الآراء درجات والرأى الاعلى إنما هو للحق وحده ، والكلمات درجات وكلمة الله تعالى هي العليا .

وهل أفسد ذلك الرقص الذى نعالجه اليوم إلا عدم التزام هتين القاعدتين وهذين الاصلين ومزج هذا الرقص بهذه الرقاعة وتلك الخلاعة بجميع أنواعها وألوانها ، وكلها أنواع وألوان لا تدخل البهجة والسرور إلا على نفوس الاشقياء من الناس .

وكلها أنواع وألوان لا معنى لها إذ لاقيمة لها في عالم الجمال ولا نفع فيها ولاخير وأثمها أكبر من كل نفع فيها أو خير . بمعنى أن جانب الضرر والخسارة فيها أعظم من جانب النفع والربح . وما كان كذلك يجب الاعراض عنه الاعراض التام كما تأمر بذلك قواعد الخير

والاخلاق وموازين الحكمة والرشاد .

والحق أن هذا الرقص الذى امتزج بالرقاعة والخلاعة إنما هو تمثيل لرقصة المومس وكسرة المومس وثنية المومس ، وجدير به أن يشتق أو يطلق عليه اسم من هذه الاسماء ، ويعلن عنه بأى اسم فيه هذا المعنى إن كان ولا بد من وجوده على المسرح وإن كان ولا بد من الارشاد عنه كالارشاد عن المجرمين ، ليفهمه الشعب تمام الفهم ويعرفه حق المعرفة ويأخذ فكرة سليمة عنه ويميز بينه وبين أنواع الرقص التى لا غبار عليها التى تمثل اللهو والمرح البريء الشريف وتمثل ذلك الفن الجميل الذى يرفع روح الانسان عالية ويرىها كيف وهب الله تعالى الانسان من الجمال العظيم .

والواقع أن هذا الرقص بما فيه من الخلاعة والرقاعة مؤسف ومحزن ، لأن هذه للرقاعة والخلاعة قد اقترنت به من البغاء وعمل المومسات وربما إلى أكبر من ذلك وهو عمل الخنثين إن كان القائم به من الرجال .

ومؤسف ومحزن لخلوه من الجمال الحقيقي عند أولئك الذين على علم بمقاييس الجمال ، بصرف النظر وغضه عن أولئك العامة من الناس الذين يعجبون به إعجابا إلى درجة الحب لإثارته لهم إثارة جنسية ، وهم لا يفهمون فى الرقص أكثر من هذا المعنى الدون ، الذى ينبغى أن يهجر وينسى إلى الأبد ، والذى يشاركهم فيه أولئك الراقصات الغيبات الوضيعات اللاتى يقمن بهذا التلفيق والخلط بين الرقص الصحيح والبدع النكراء الامر الذى نزل بمستوى ذلك الفن الجميل إلى أسفل سافلين وهى الدرجة التى لا تتفق وإلا واحط الناس .

على أننا إذا قمنا في الواقع قومة للتفتيش والاستقصاء في ميدان الرقص وجدنا أنه يوجد من النساء الراقصات من شرفن ذلك الرقص الشرقي تشریفاً عظيماً وذلك بمراعاة أصوله وقواعده الأدبية والخلقية في شدة وصلابة وقوة ونشاط وخفة وطرب ليس فيه للدعارة محل ولا للهمز واللز موضع . مما جعلهن يظهرن أمام الخاص والعام في أكرم مظهر عرفه الرقص باعث على التقدير والاحترام والتوقير من الخاص قبل العام .

وفي الواقع أن هؤلاء الراقصات اللاتي لا يرقصن هذا الرقص الخليع الرقيق الوقح والدون ، ولا يحركن هذه الأعضاء الثلاثة وهي الاليتان والتمديان والخصران إلا حركات خاطفة سريعة ، وحركات تابعة لحركات الرجلين أو القدمين أو الدراعين واليدين ، قد حزن الشرف وحدهن في هذا الميدان ، وذلك أن هذه الأعضاء الثلاثة بالذات رقصاتها بما يستحى منه كل الحياء لأنها رقص قبيح ولا يشير إلا الكراهة والسخط لدى الغيورين على الحرمات ، وإلا النزق والطيش لدى صغار العقول ، ولهذا كان مرور الرقص عليها من الكرام وعبوره منها إلى باقي أعضاء الجسم عبوراً عاجلاً هو عين الحكمة والصواب بل عين الفن والجمال الذي يتوق لرؤيته الحاضرون ، وائذى يجب أن يتنافس فيه أهل الفن .

وفي اعتقادي أنه لو استعملت الراقصات هذه الحكمة والرشاد في ذلك الفن الذي يقمن به ، لسنرن إلى الأمام وإلى الإبداع في ذلك الفن خطوات كبرى ، ولكن ذلك يتوقف على عبقرية مدرس ذلك الفن وعلى مقدار تمسكه بمبادئ الأخلاق الشريفة ، وهذا بالإضافة إلى تثقيفهم ثقافة

إسلامية بحق وتوجيههم التوجيه السديد .

والواقع أننا سوف لا نستطيع أن نزعم أمام العالم أن لدينا رقصاً قومياً من إنتاجنا الخاص الذي نملك زمامه ، إلا إذا راعينا هتين القاعدتين المرسومتين ، بواسطة معلم الرقص بصفة خاصة هو وتلميذاته ، فإننا لو فعلنا ذلك حصلنا على رقص قومي رفيع يقوم على توديع هذا الرجز الذي نسميه بالرقص الشرقي والرقص البلدي ، ولو أنها في الواقع تسمية مجازية لأن في الشرق وفي البلد رقصاً أعلى وأسمى من هذا الرقص الوضع المبتذل ، الذي يقوم على فوضى خلقية منحطة ، والذي يعطى مناظر مؤذية تجرح الكرامة الإنسانية والشرف العام ، والذي حقه أن يسمى بالرقص الجاهلي لأنه لا يعبر إلا عن الجهل بالفن الجميل وعن الخرافة التي يرتكبها أهل الخرافة من الناس ، لأنه مالم يعتمد على قواعد وأصول رفيعة فهو جاهلي لا ينزع إليه إلا الجاهليون .

ولأنه إذا كان يزعم فريق من الناس أن هذا الإسلام قد حرم على النساء أى نوع من أنواع الرقص ، ولو على هذين الأساسين اللذين قد وضعناهما لبنى عليهما رقصاً قومياً مجيداً رفيعاً ، اعتماداً على ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال : صنفان من أهل النار لم أرهما قط ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رموسهن كاسنمة البخت المائلة . لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وأن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا ، ناظرين إلى الشاهد الذي يشهد معهم في هذا الحديث ، وهو الشق الثاني منه دون الشق الأول الذي ينطبق على عهد الظلم والاستبداد

والسخرة والطغيان في العالم في الشرق والغرب في العصور الظلماء ،
فلن ننسى أن نذكر ذلك الرقص والمراقبة الممنوع ، لأنه إن صح هذا الزعم
من أولئك القائلين بتحريم الرقص من النساء على الإطلاق في الإسلام
فهو واقع على أولئك النساء المراقصات اللاتي يرقصن ذلك الرقص
الماجن الخبيث ويتميلن إلى الخلف مع هز الثديين هزاً خليعاً متمسكات
بهذه الرقصات الدنيا الوضيعة .

واقع على أولئك النساء المراقصات اللاتي يراقصن الرجال وهن في
أحضانهم وبين أيديهم وأرجلهم تارة ، وعن أيمنهم وعن شمائله تارة
أخرى ، ولكن لا يقوم بهذه المراقبة إلا النساء والبنات الهواة أو
المحترفات في جو من الحرية الحمقاء وانسلاخ من التقاليد والدين ،
ولكن تلك المراقبة إن هي إلا سحاق وتخلي عن أشرف الأخلاق
وأطهر العادات وعن الحكمة والوقار ، إلى شريعة الجاهلية الأولى
ونظرياتها الباعثة على قيام نكاح الشغار وما هو شبيهه بنكاح الشغار ،
وهو مراقبة الشغار ، وما أدراك ما مراقبة هذا الشغار ؟ إنها تبادل
النساء في حلبة الرقص ، بعد حضورهن إلى نادى من النوادي بأنفسهن
من أنفسهن ، أو بعد دعوتهن واستجابتهن لهذه الدعوة المقبولة .

ولكن هل السعادة أن يذهبن مع بقية الأسرة إلى هذه المراقص
للمراقبة ؟ إنها في حقيقة الأمر ليست السعادة الحقيقية التي يبحث عنها
كل إنسان ، لأنها سعادة خاطفة أو عابرة تبقى إلى أجل مسمى ولا تلبث
أن تزول وتترك وراءها ما تترك من شر وشقاء .

والامر الذي لا يحتمل الخطأ والنقيض ، إن هذه المراقص التي

خصصت للمراقبة ما هي إلا سواقاً لهؤلاء الضعفاء في الاخلاق الذين صرّعهم الباطل ، وما الباطل إلا الغرور ، ومثل هذه السوق سوق للبعاء ، بل سوق للرقيق ، وأعنى به رقيق الجهل الأكبر ، وهو الجهل بالدين . وهل يوجد جهل يصح أن يسمى بالجهل الأكبر غير الجهل بدين الحق والرشاد ؟ والمرء لا يذوق طعم الهداية إلى الحق ولا يرشد إلا بهذا الدين . فإلم يقف على حقائق هذا الدين فهو مبطل ضال وهو سفيه أحق مهما أوتى من الدنيا .

نعم ليس في النصوص الإسلامية ما ينهى على منع هذه المراقبة من الزوجين الشرعيين في هذه المراقص ما دام أساسها هو الزواج الشرعى ، ولكن إذا كانت في عزلة أو في مجتمع خاص من طبقة واحدة ، فيكون ذلك أفضل وأحسن ، إذ الاستتار والحجاب عن الناس في مثل هذه الحال أولى وأصوب محافظة على الكرامة والوقار ، ومنعاً للظنون والتأويلات .

ولكن أى شيء شرع وأباح للناس هذه التقاليد والعادات الهدامة ، وهى أن يستمتع غير الزوجين بعضهم ببعض بهذه المراقبة المماثلة المستهترّة ، يدورون ويحجلون في المسكان ، يوج بعضهم في بعض على أنغام الموسيقى ، في نشوة ولذة لا تعادها نشوة ولذة غير عابئين بالدين الذى يأبى هذه الحال النكراء ؟

هذا هو الرأى على أنه يجوز أن يكون زعم أولئك القائلين بتحريم الرقص من النساء عامة واقعاً على أولئك النساء اللاتي يكشفن عن أجسامهن دون حاجة ويتمايلن في مشيهن . ويتجرن بعرضهن ، لأن هذه الاوصاف

التي في الشق الثاني من هذا الحديث تنطبق عليهم كما تنطبق على غيرهن من الفاسدات كعلامة يعرف بها ويتميزن بها من بين النساء كلهن .
على أن هذا الحديث إنما هو خاص بزمان آت بعيد عن زمنه صلى الله عليه وسلم بدليل إنه قال « لم أرهما قط » فهل لم يكن في زمنه صلى الله عليه وسلم أو في جزيرة العرب على وجه الخصوص راقصات بهذا الوصف حتى لا يدخلن في هذا الحكم الذي في هذا الحديث ؟

لعل أولئك المعارضون يتدبرون في هذا الحديث الذي يزعمون أنه يدل على تحريم الرقص على عموم النساء أيا كان ذلك الرقص .
فإنهم لو تدبروه لوجدوا أنه يدل بمفهومه على أن النساء إذا رقصن برقصات ليست متفقة مع هذه الأوصاف المذكورة فيه ، من ذلك التبرج بدون داع الخارج عن حدود الله تعالى وهو معنى « كاسيات عاريات »

ومن التثني والتكسر ونحريك البطن ولئى الخصرين تلك الأمور التي تقع في القلب موقعاً مؤلماً غير كريم ، ومن ضم الرجال لهن وضمهن للرجال هذا الأمر المنكر الذي يفعل في النوادي على مرأى من الناس وعلى قرب من الموسيقى التي يسايرون أنغامها ودقاتها ، وهو معنى « مائلات مميلات » .

ومن تزيين الرأس بما يشبه أسنمة البخت المائلة أو وضعها ذلك الوضع الذي هو صفة النساء المتغطرات .

سوف يدخلن الجنة ويحذن ريحها على مسافة كذا وكذا .
وإذن يكون الإسلام قد فرق في الحكم بين هذا الرقص الدخيل

الماجن وذلك الرقص الادبى والاخلاقى .

أما الرقص الماجن الرخيص فقد احتقره وحرمه وحاربته كما يحدث اليوم وكما كان يحدث بالامس لخلوه من الفائدة ولتحقق الضرر فيه ، بل لخلوه عن ذلك الكمال المطلوب فى الرقص وما كان لهذا الدين أن يشرع لهذه الامة التى هى خير أمة أخرجت للناس بالرغم مما أصابها ويصيدها إلا ما يبلغ بها إلى درجات الكمال .

وأما ذلك الرقص الادبى والاخلاقى فقد عظمه هذا الدين وأحله للناس لأنه من الطيبات ، بل لأنه معبر عن السرور الذى ينبغى إظهاره شكر الله وحمداً ، وأن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده بجميع الاشكال الجميلة ، وذلك بالانفاق فى سبيله ، وعمل الولاثم التى يدعو إليها من له صلة به ، ومن ذلك إقامة رقص مشروع مذهب ليس فيه ما يغضب الله تعالى ، ولا ما يغضب الاحرار من الناس تطرب لرؤيته تلك النفوس التى تفرح بنعمة الله تعالى ينعم بها على من يشاء ، وتمرح وتنطلق فى المرح إلى آخر الحدود المرسومة فى شريعة الله رب العالمين من غير إفراط ولا تفريط .

أحكام أخرى

أما وأننا قد انتهينا من عرض هذه الاشياء التى نلصق فيها ذلك التغير فى فئتنا ومسرحنا اليوم ذلك العرض الكبير على الله تعالى ورسوله وعلى هذا الدين الحنيف مستفتين وطالبين معرفة الحكم ، فلنعرض إذن الآن أمر السماع إلى هذا الفن والمسرح ، ولنعرض كذلك أمر النظر إلى هذا

الفن والمسرح ، لنعلم هل هذا السماع أمر أحله الله تعالى ؟ وهل ذلك
النظار أمر لا غبار عليه ، كي يعمل كل انسان بعد على سلامة دينه ،
بل لكي يستمسك بالحق لينال المسكنة العالية ويظل سعيداً ما عاش
وما حي .

السماع

هذا هو السماع جعله الله سبحانه وتعالى من أعمال الأذن . تلك
الحاسة التي يميز بها المرء بين الخير والشر ، والصوت الجميل والمعنى
الجميل والصوت المستقيم والمعنى المستهجن .

أن هذا السماع نعمة من نعم الله تعالى على الإنسان وموهبة من
مواهب الله تعالى على عبده ، وأن هذه النعم والمواهب لا تأتي عفواً
أو جزافاً ، ولكن بالترقية والتقرين والتريض والتحاويل على السماع
مرة فمرة ، حتى يصبح في مقدور ذلك الحيوان الناطق أن يسمع ويميز
ما يسمع ، ويتذوق معنى الكلام وجمال الكلام .

وحتى يستطيع أن يفهم معنى الكلم ويدرك واقعه من نفسه ، فيتأثر
وينقبض وينبسط ويفرح ويحزن وتظهر آثار ذلك عليه .

فمن لا يملك هذه النعمة الجليلة بأن كان يملكها ولكنه لم ينمها
بالتقرين والمصاربة والمجاهدة فسوف يصبح فقيراً معدماً في عالم السماع
علاوة على أنه سيفقد السيطرة على سمعه ، فبالرغم من أنه في صورة
السميع فإنه لا يظاوعه سمعه إذا ما حاول أن يسمع ، إذ لا يجد أى أثر

في نفسه لما يسمع ، وهكذا يتعطل السمع لدى من لم يتعهد سميحه بالسمع من أول نشأته .

يزعم جماعة من الباحثين أن السماع إلى الغناء وعذب الألحان حرام في دين الله تعالى ، بل يزعمون أن السماع لصوت النساء أيا كان حرام ، محتجين بهذا القول (ولا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض ، وقلن قولا معروفاً) وبهذا القول (ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم) .

ولكن الحق أن هذه الجماعة في ذفلة أى غفلة فإن قول الله تعالى (ولا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض ، وقلن قولا معروفاً) لم ينه إلا عن الخضوع في القول ، معاللاً إياه بأن ذلك الخضوع من أسباب طمع الجاهل الذي في قلبه مرض في نساء النبي . وهذا النهي معناه حرمة الخضوع في القول ، وحرمة الخضوع في القول تكون سبباً في حرمة سماع هذا القول الخاضع للذين الذي فيه ذلة وعطف ورحمة بالمتخاطب معهن .

على أنه في نفس الوقت قد أمرهن بأن يقدن قولا معروفاً لا يتنزلن فيه ذلك التزل البليغ الداعى لطمع الجاهلين .

ولو كان صوت النساء عورة لنهاهن عن الكلام مطلقاً ، ولم يأمرهن بالقول المعروف والمعتمد في خطابهن مع الرجال أيا كان الرجال .

وهل غناء النساء الملحن المنسق الجميل إلا من ذلك القول المعروف الذي أمر الله تعالى أمهات المؤمنين عليهن رضوان الله به ؟ .

أما قول الله تعالى « ولا مستأنسين لحديث » ، فإن المنهين عن

هذا الاستئناس وهو الاستماع ، كانوا يدخلون بيوت هذا النبي قبل الظرف والساعة المحددة لدخولهم المأذون به ثم يجلسون يتحدثون فيما بينهم ، أو يستمعون من رسول الله ﷺ أو من أهل بيته رضى الله تعالى عنهم ، ولم يكن هناك في هذه الحال استعداد لدخولهم هذه البيوت وجلسهم فيها على هذه الوجوه التكرار التي ضايق هذا النبي العظيم وأحرجته وهو رب تلك البيوت ، وضايقت نساءه وأحرجتهن إذ كن لا يزان بسبيل إعداد الطعام المنتظر ، وكانت تلك البيوت من الضيق بمكان بحيث لا تسمح بالانتظار فيها في حال إعداد ذلك الطعام الذي سيقدم إليهم بعد نضجه .

على أنه من الأدب الانتظار خارج حجرة إعداد الطعام ، إذ ليس من اللياقة في شيء أن يجلس إنسان ما مع من يقوم بعملية الطبخ يعطله ويشغله عما هو فيه من شأن ومن عمل دقيق حقه أن يتفرغ إليه حتى يجيده ويتقنه ويقدمه للحاضرين طعاماً هنيئاً سائغاً .

وليس من الإسلام التدخل فيما لا يعنى أو الاختلاط في وقت غير صالح للاختلاط إذا صح الاختلاط .

وأى ذوق يستسيغ ذلك الدخول وذلك الجلوس وذلك الاستئناس ؟ إذن لم يكن السماع إلى أحاديث أهل بيت النبي منهيّاً عنه أو حراماً في حدود ذاته . ولكن ذلك لعدم الاستعداد ولظروفهن المنزلية الخاصة ومن أجل ذلك يأمر الله تعالى أن يخاطبوهن من وراء حجاب فيقول (وإذا سألتوهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب) إذن ليس سماع الغناء بحرام ، متى كان في أمور شرعية طيبة ممدوحة نافعة للناس .

على أننا إذا نظرنا في نصوص أخرى من الكتاب العزيز رأينا أن هذا السماع واجب ، فيجب أن يستمع النساء لأحاديث الرجال ، والرجال إلى أحاديث النساء يتبادلان السماع ، فحق على كل إنسان أن يستمع له أخوه متى كان من حقه الكلام .

انظر إلى المقول فيهم ذلك القول ، ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها . ولهم آذان لا يسمعون بها ، فإنهم قوم خرج السمع عن إرادتهم فأصبح لاسلطان لهم عليه . أى أن سمعهم مريض أو خراب لا يجدون لما يسمعون أثراً في قلوبهم . وهكذا الصم الذين لا يعقلون .

بل انظر إلى قول الله تعالى (والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً ، فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ، وأن يستضعفن خير هن ، والله سميع عليم ، فإنه تعالى ما لبث أن انتهى في هذه الآية الكريمة من تشريعه التبرج لهؤلاء النساء للحاجة الداعية إليه بعد أن شرع هن الحجاب فيما قبل هذه الآيات من آيات خاصة ، ومن تنبهن إلى أن الاستعفاف عن ذلك التبرج خير من فعل ذلك التبرج المقرب هن من النساء الجاهلات اللاتي لازن في جاهلية عمياء ، حتى ذيل هذه الآية بهذا التذييل الجميل ، والله سميع عليم ، أى سميع لما يصدر من هؤلاء النساء وغيرهن من الحكم ، عليم بأفعالهن على وجه العموم .

أى أن هذا التذييل يدل على تشريع خاص فوق ما جاء في صلب الآية الكريمة من تشريع ، فإنه لما شرع الله تعالى لهؤلاء النساء القواعد

هذا التبرج وهذا الحجاب الشرعى ، شرع معه لمن الاختلاط على أى الحالين من أجل تفاهمهم مع الرجال بالمعروف ، وتفاهم الرجال معهم بالتى هى أحسن ، إذا كان فى الأمر ما يدعو إلى التفاهم .
وليس معنى ذلك التشريع إلا أن السماع حلال .

النظر

أما للنظر وهو ذلك التطلع والروية والإدراك بالبصر أما هذا النظر وهو أن تحس بعينيك أو بإحدى عينيك بنى الإنسان أو جماعة من بنى الإنسان أو أحداً من بنى الإنسان ، فبرى هؤلاء البحاثون والمستنبطون من أصحاب تلك المذاهب المعروفة انه محرم إلا فى حالات الاستثناء والضرورة اعتماداً على فهمهم فى قوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) لكن فأت هؤلاء البحاثون أن الحرام من النظر هو النظر إلى سوات الناس وعورات الخلو التى فى كشفها والتطلع إليها مضرّة أى مضرّة ، وعليه يصح أن يحمل قول جرير بن عبد الله البجلي رضى الله تعالى عنه ، سألت رسول الله عن نظر الفجأة فأمرنى أن أصرف بصرى . أما النظر إلى غير السوات والعورات فلا يحرم فيه إلا النظر المعاد والمكرر أى الثانى فصاعداً ، وعليه يحمل قول رسول الله لعلى كرم الله تعالى وجهه « يا على لا تتبع النظرة النظرة فإن الأولى لك والثانية عليك » ، ولكن هل يقع نظر الفجأة هنا موقع النظرة الأولى ؟ ذلك سؤال عظيم جدير بالاهتمام .
على أن النظر إلى السوات والعورات هو الذى فيه الضرر كامن ، ومن

أجل ذلك منعه الله تعالى منعاً بليغاً ، حيث قال « قل للمؤمنين يغضوا (من أبصارهم) فلا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا الرجل إلى عورة المرأة (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) فلا تنظر المرأة إلى عورة المرأة ، ولا المرأة إلى عورة الرجل .

وهذا كله خوفاً من انتشار الفاحشة وخوفاً من ضياع مكارم الاخلاق ، ووقوع الناس في الشر والفساد .

أما النظر إلى غير السوات وإلى غير العورات ففيه الضرر حقاً ، ولكنه خفى أو بعيد ، من أجل ذلك كان من حق كل إنسان أن ينظر هذا النظر للنظلم والعلم والتحقيق والتأكد .

وهذا هو الله سبحانه وتعالى يقول (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها .) أى أن أعينهم مغلقة لا تنظر ماذا في السموات والارض .

وهذا رسول الله ﷺ يرى زينب بنت جحش فيعجب بها وتقع في قلبه موقع حب ولكنه يجاهد نفسه ويعف ويكتم ، ومن أحب فعف فكتم فمات مات شهيداً .

وهذه عائشة الصديقة ترى الرجال يرقصون في أطهر مسرح وأشرف دار الاستعراض الرياضى والفنى وهو مسجد المدينة العظمى . بجوار رسول الله ﷺ .

واذكر أن رسول الله قال في هذا المعنى « إذا نظر أحدكم إلى امرأة فأعجبته فليأت أهله وليواقعها ، أى ومن لم يكن له أهل فليصرف بصره ويصبره الصبر الجميل .

إذن كيف حرمت النظرة الأولى كالثانية إلى النساء في المسرح وفي غير المسرح ؟

بل كيف حرمت النظر إلى النساء إطلاقاً إلا ما استثنيت في كتبكم المقدسة كما تزعمون كأنها هي القرآن الكريم في حين أنها تبتعد عنه ابتعاداً كبيراً ؟

الحقيقة أن غض البصر عن الناس يجعل للمرء قيمة كبيرة وكرامة عظيمة كما هو قول الله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم .. ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون) فإن زكاة أولئك المؤمنين ترفع من قيمتهم وتعلو من كرامتهم ، وهذه الزكاة هي وليدة غض البصر .

بل كما هو قول الله تعالى (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) فإن التوبة إلى الله تعالى بغض البصر وما يليه سبب موصل إلى الفلاح والفلاح هو الأصل الذي يجعل للمرء قيمة كبيرة وكرامة عظيمة .

ولكن ليس معنى ذلك أن النظرة الأولى إلى النساء الأجنبيةات كالنظرة الثانية كلاهما إثم ، وكلاهما حرام ، فإن النظرة الآثمة والحرام هي ماعدا النظرة الأولى التي قد جعلها الله تعالى من النظرة الحلال ، فإن هذه النظرة يتحقق فيها سلامة القلب فلا ضرر منها ألبتة ، بخلاف ما يتبع هذه النظرة من نظرات يسترسل فيها الناظر استرسالاً يستقط من كرامته ويذهب بقيمته ويقربه من الشر والفساد .

ولكن ليس يخفى على أحد إن مشاهدة قصة واحدة ورواية من أولها إلى منتهاها تعتبر كلها نظرة أولى ، فإن احتاج الأمر إلى إعادة

المشاهدة فهذه الإعادة تتمتع تابعة للنظرة الأولى ، أو نظرة جديدة في حال ضرورة جديدة .

وإذن يكون الأمر واضح لا إشكال فيه ، ولكن لا زال أولئك الفقهاء في إشكال فإنهم يهولون في نظر الرجل إلى المرأة والمرأة إلى الرجل ، حتى ولو كان ذلك النظر هو النظر الشرعى والنظر الحلال ، ولو أنهم نظروا في أنفسهم وفي الآفاق لوجدوا أنه لا يضر في اختلاط الجنسین إلا عدم التربية وعدم التثقيف وعدم حمل الناشئة على المجاهدة في الحق ، على معنى أنه لو وجدت سلطة لحمل الناس وإكراههم على اتباع سنن العلم في حياتهم حتى يمتزج العلم بأرواحهم ويصير العمل عادة عريضة لا يتخلون عنها كأنها جزء منهم لما وجد زيغ وانحراف ما . ذلك أنه متى رسخت مكارم الأخلاق في المرء ، وانغرس في نفسه تلك المبادئ الخلقية العالية كان من المستحيل أن يحجره النظر إلى الفاحشة أو يقوده الشيطان إلى الهاوية . ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد . وليس معنى الفقيه إلا ذلك الذى صار الفهم سجية له وخلقا متأصلا ينمو ويزيد بالعمل الصالح ، فأن من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم .

أما العابد ، فهو الذى يعبد ربه ارتجالا على غير فهم وعلم ومعرفة ، أنه ينظر من هو متقدم عليه ، فيقلده ويحاكيه مع يسير من الهداية . وهيات أن يستوى متفقه ومتعبد رجلا أو امرأة .

وبجمل ما تقدم أن صرف النظر وغض البصر مأمور به كل من الذكر والانثى ، فقد قال تعالى في حق الذكور (وقل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) وقال في حق الاناث (وقل للمؤمنات يغضضن من

أبصارهن .) ، وإذا كان رسول الله قد حول وصرف وجه الفضل بن عباس عن تلك المرأة التي جاءت من جثعم تستفتيه حين نظر إليها الفضل ونظرت إليه ، فانه قد أمر أم سلمة وميمونة بغض البصر عن ابن أم مكتوم وكان أعمى ، وكل هذه النصوص قائمة على تلك القاعدة لا تتمع النظرة النظرة فان لك الأولى وعليك الثانية . وعلى أن النظرة الثانية حرام سواء للعورة أو لغير العورة وهل كان ابن أم مكتوم عورة حتى يأمر رسول الله أم سلمة وميمونة بغض البصر وتحويل الوجه عنه حتى يأمر بهذا الاحتجاب القائم على أن المرأة عورة محجبة أو غير محجبة وأن بعدها عن الذكور مطلوب في كل حال حياءاً وترفعاً وأدباً مع رجالها الذي حقه السيادة والتقدم وإن كان حقها أن تستشار بالكيفية المناسبة في الأمر المناسب .

تذييل

والآن وقد ظهر الإسلام على حقيقته ، وأنه الدين الذي وسع المدنية والحضارة وسبق كل حدث وحركة تشريعية تعمل على ترقية الشؤون الاجتماعية في أي بلد من البلدان مهما قالوا عنه أنه بلد عظيم ، وجب علينا ثم وجب أن نربط بهذا الإسلام ذلك الفن والمسرح ربطاً محكماً بحيث يتبعان هذا الإسلام في كل صغيرة وكبيرة فنية أو مسرحية ، مستغنيين بهذا الإسلام عن تقليد الفن والمسرح الغربي ، ونابذين من أجله الفن الجاهل والمسرح الجاهل الذي ورثناه عن الجليل الماضي الذي قد أصابه ما أصابه من تدهور وضآلة .

ألا نعلم أن أي ثقافة خاصة أو عامة متأخرة بالنسبة إلى ثقافة الإسلام ومتى ظهرت على حقيقتها كان لها التقدم على أي ثقافة أخرى

إقرأ (وإنه في أم الكتاب لدينا لعليٍّ حكيمٌ) .

وَألا نعلم أن هذا الدين فيه سعة في التشريع ما ليس في دين سواه ،
والشيء الواحد فيه قد يكون له عدة حالات . وفي كل حال يكون له
حكم خاص في هذا الدين مناسب للحال والمقام . اقرأ قول الله تعالى
« وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في
الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم » .

ثم ألا نعلم أنه ان تتحقق لما فُسِّكة المسرح القومي بالمعنى الصحيح
ولن نتجه إلى الصعود بالفن الصعود الخاص المستقل في روعة وجلال ،
إلا على أساس هذا الدين الحنيف ، فإن الدين أساس القوميات الخالدة
في كل زمان ومكان كما هو الآية الكريمة « إن الذين آمنوا وهاجروا
وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذين آووا ونصرؤا أولئك
بعضهم أولياء بعض » .

وكما هو هذه الآية الأخرى « المؤمنون والمؤمنات بعضهم
أولياء بعض » .

وفي الواقع أننا نعلم بكل هذه الأمور واحداً واحداً الآن فحسب ،
وعلمنا بها سوف يجعلنا نتجه بوجوهنا إلى الإسلام ونسلم بكل جوارحنا
لتشريعاته الخالدة ، وكيف لا تكون خالدة وكل شيء في هذا العالم قد
تطور وتغير ، وانقلب رأساً على عقب . بل من ضد إلى ضد . ومن
نقيض إلى نقيضه . وهذه التشريعات الإسلامية تسع كل شيء من زى
إلى عادات إلى أخلاق ، واتساعها هذا هو سر خلودها وصلاحها
لكل زمان ومكان .

وفي الحق أن هذا الإسلام لا خوف عليه أبداً ، لأنه لا يعرف غير
التصريف الصحيح ، أى لا يعرف الجود الذى من أجله تنفذ الأديان
نبذا وراء الظهور .

دعائم النهضة بالفن والمسرح

هذا الفن قد عانى بما عانى ، من ذلك الخاط السوء بين الخير والشر ، ومن الركائكة والرككة ، والإهانة والآذى من قوم لا علم عندهم ولا أدب ولا خلق لديهم . لأن الله تعالى قد ابتلاء ابتلاء بقوم يوهيميين وابقوريين يفهمون خطأ إن الفن إنما خلق للدعارة والدنس واللذة والمتعة الحرام فراحوا يسعون في الأرض فساداً ويبدلون من دينهم وسمعتهم أئمن شيء في هذه الحياة ابتغاء عرض الحياة الحياة الدنيا . وصاروا يخرجون عن الأخلاق والوقار والحكمة ماشاءوا أن يخرجوا ولم يستطع أحد أن يقنعهم ويردهم إلى الطريق السوى بأى طريق من الطرق وهذا المسرح قد تعثر في طريقه كثيراً يمشى مكباً على وجهه حيناً وحيناً يمشى سوياً وما زال حائراً مضطرباً غير مستقر لا يعرف قاعدة يرسو عليها ويقف . ولا ركناً من الأركان يأوى إليه ويتجه ، بل ما زال يتخبط خبط عشواء لا يبصر إماماً يتبعه ويهتدى به ويلزم طريقته إلى آخر رمق في حياته المديدة العائرة بالخدمة الجليلة والإنتاج الطيب ، فهل تطوع أحد ممن يعول عليهم ويؤخذ بكلامهم للأخذ بيده وإرشاده بحكمة وحق ؟ . فما أحوج هذا الفن وهذا المسرح إلى من يأخذ بيدهما ، وإلى من يرشدهما ويوجههما التوجيه الصحيح ، ما أحوجهما كثيراً إلى المعين والمرشد وإلى ذلك الموجه الواسع الاطلاع والراسخ القدم كالطود .

البحير بأمور هذه الدنيا وهذا الدين كما هي وعلى ما هي عليه .

(١) ولئن كنت قد جاوت وجاهدت من أجل القيام بهذا الغرض اللازم في بناء هذه الأمة العزيزة من جديد وتشديد صرح الفن والمسرح على أسس صالحة خالدة باقية ما بقى الدهر .

لئن كنت قد سعيت لتحقيق هذا الأمر الضروري لاستقامة الفن وصلاح المسرح لبيكونا عنواناً على مدنية وحضارة هذا الشعب العظيم ، وليساهما المساهمة القوية العظيمة في معرض المدنية والحضارة العالمية الدائم .

فإني أظن الظن الحسن ، إنني قد أتيت بشيء يذكر وبشيء معقول ، إن لم أكن قد أتيت بكل شيء في هذه الناحية وفي عند الباب ، الأمر الذي يسقط عذر أي أحد من أهل الفن وأرباب المسرح بعد ، في النأي عن التمسك بالدين وعن السير على منهجه القويم وشرعته الحق .

والأمر الذي يخلق في القارئين بشؤون الفن والمسرح عقيدة الطهارة والشرف بحق وعلم ، تلك العقيدة التي سيكون لها أثرها في تقدم الفن والمسرح التقدم العظيم ، كما كان للعقيدة الإسلامية بصفة عامة أثرها الكبير في حصول المسلمين على النصر الخارق للعادة أيام فتوحاتهم التاريخية الخالدة ، وليس في هذا أو ذاك شك ، فإنه لا يخلق الشخصية العظيمة التي تبـدع وتخلق وتجدد إلا الدين العظيم ولو لا هذا الدين العظيم ما كان المسلمون أمة عظيمة و (خير أمة

أخرجت للناس) حقاً من مبدأ العالم إلى هذا اليوم إلى آخر يوم من الأيام العالم .

والقول الشارح لكل ذلك ، أنه أتى على الفن والمسرح لدينا حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ، إذ بات خليطاً من الحق والباطل ، جامعاً لأجزائه الجاهلية والإسلامية ، حاوياً لألوانه المحرمة وغير المحرمة . وكذا أتى على هذا الدين حين من الدهر . كان خليطاً من النصوص الصحيحة والفقه والفتاوى الخاطئة .

وكان بين أرباب الفن والمسرح ، وأرباب الدين عداً وخلاف وعدم اتفاق .

أما وقد تبين الرشد من الغي والخيطة الأبيض من الخيط الأسود فتمايز الفن والمسرح الإسلامى عن الجاهلى . وانسلخت النصوص الصحيحة من ذلك الفقه والفتاوى الخاطئة .

فالواجب أن يرتبط الفن والمسرح فى عهده الجديد بدين البلاد والدولة فى عهده الجديد . عهد الخلاص من الجهل فى أبشع صورته بعد وضع هذه السياسة الفنية المسرحية وبعد هذا التوجيه الجديد فى الدين فقد أصبح الفن والمسرح الشريف وهذا الدين الصحيح بعد تنقية الاثنين من الجهل والضلال والبدع ، على محبة واتفاق يأخذ كل منهما بيد أخيه فى سبيل الله تعالى ومجده العظيم ولا يتخلى أحدهما عن الآخر فى يوم من الأيام .

ولنا لنفسر هذا بهذا ؟ وهو أن الواجب على أهل الفن عدم أخذ شئ عن مواقع إلا ما كان فيه نفع عظيم وخير كبير للمجتمع ويتفق

مع سنن مكارم الاخلاق مملوءاً بالطرف والملمع واللطائف والنوادر، فإن كان فيه عيب كان من حق أهل الفن نقد ذلك العيب الواقع نقداً كريماً وتفنيداً وبيان عاقبته، لأن أهل الفن أداة إرشاد وهداية، بل مرشدون وهداة للشعب يعملون على تقدم أمر العامة والخاصة الزائفين في الحدود التي رسمها الله تعالى لهم في القصص الدينية في كتابه الكريم فإنه تعالى لم يقدم لنا قصة من ذلك القصص إلا إذا كانت مملوءة بالنفع والخير مطابقة لقانون مكارم الاخلاق مشتملة على العجائب والغرائب والدروس التي تتحلى بها القصة الكريمة، وسواء كانت القصة التي تقدم لإنسان متمرّد أو غير متمرّد فإننا نرى فيها ناحية الشر أو الخير بارزة واضحة ثم نرى الحكم على صاحبها والجزاء العادل في آخرة الذكر، ليسكون ذلك الحكم والجزاء عبرة وعظة ودرساً لاولى الالباب. ولتكون تلك العبرة والعظة والدرس حاملاً لأهل الفن على أن يكونوا على وفاق مع هذا الدين فلا يأتون مسارحهم إلا بقلب سليم بريئين متجردين من أى ميل إلى مطابقة هذه المسارح الجاهلية أو الأجنبية.

ولكن هل يسير أهل الفن ذلك السير الحسن الكامل المتفق مع ذلك الواجب والمنطق وهم وهؤلاء بعضهم يأتون من المنكر ما تقشعر له الأبدان ويشير الإشمئزاز وتخجل منه النفوس؟

هذا فن رخيص يجرح الدين والقلب، ويتصل اتصالاً شائناً بما حرم الله من المجون، يعقبه انعقاد مجلس على منضدة من مناضد المسرح يكون مقدمة للبغياء.

وهذا فن ساقط لا معنى له تنقلب الفنانة بعده إلى رقيق يعرض للبيع
الحرام في سوق الرقيق ، قاعة المسرح العامة .
فمن المسؤولون عن هذا اللغو واللعب الباطلين إلا أصحاب المسرح
ومديرو المسرح ؟

انهم هم المسؤولون قبل أهل الفن من غير شك ، ألم تنظر إلى هذه
الآية التي في نص هذا الأمر عينه (ولا تكرر هو فتياكم على البغاء
إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، ومن يكرهن فإن الله من
إكرههن عفور رحيم) .

كان أولياء أمور تلك الفتيات يدفعونهن إلى البغاء ابتغاء الثروة المحرمة
وهي عرض خبيث من أعراض الحياة الدنيا ، كما يحدث من المعاملة أو
المعلم ، فدافع الله تعالى عنهن دفاعاً مجيداً وأفهم أولياء أمورهن أنهن
حرائر في المحافظة على شرفهن وطهارتهن وعرضهن ليس لهن عليهن من
سبيل في شيء من الشرف والطهارة والعرض ، كما هن حرائر في الدين
ليس لأحد عليهن من سبيل في الدين إذ حرية الدين مكفولة للجميع ،
وفي الحقيقة أن العفة والتحصن واجب على الأمة كالحرة سواء بسواء
ولهذا قال تعالى في آية أخرى (فإذا أحضن فإن أنين بفاحشة مبينة
فعلين نصف ما على المحصنات من العذاب) على أن لفظ « إن » ، في قوله
تعالى « إن أردن تحصناً » ، بمعنى إذا أي للتحقيق ، لأنه متحقق انهن
يردن تحصناً ، لأنهن مؤمنات ، والمؤمنات لا يردن إلا التحصن خوفاً
من عذاب الله تعالى ، فإن لم يردن تحصناً فيقع عليهن العذاب لا محالة
وهو مراد الله تعالى من ذلك من التقييد والشرط .

والواقع أن هذا الدين قد رفع من مستوى هذه الفتيات إلى مستوى عال من الأخلاق إلى حد العزة والكرامة ، فـيـكـن يـخـالـفـن أولياء أمورهن ولا يطعنهن في معصية الخالق في هذه الخسة والضعفة والفساد المرذول . بما منحهن الله تعالى من هذه الأخلاق والعزة والكرامة ، بل بما منحهن من حق الحرية في الدين .

أى أن هذا ما كان ينبغي أن يلتفت إليه أولياء أمورهن، ولكن غفلوا عنه. أيما غفلة وأمر وهن بهذا البغاء وأكرهوهن على تنفيذه ، فمنهم الله تعالى عن هذا الأمر ، وعن هذا الإكراه والظلم المبين ووعدهم بالتوبة والغفران لمن تاب منهم من هذا الذنب العظيم .

وبقينا أننا في أشد الحاجة إلى تطبيق هذه الحال على من صار بائساً وشقيماً من أهل الفن والمسرح من أولئك الأحياء منهم الذين نشأوا في العهد الماضي ، هذا إلى جانب تطبيق هذا المبدأ العظيم (وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم) . إنه مبدأ العدالة والمساواة والإنسانية والرحمة هؤلاء الناس في مجتمع راق مؤمن كريم .

هذه هي الدعامة الأولى من دعائم النهضة بالفن والمسرح ، وهي دعامة أخلاقية عظيمة لا يمكن للفن والمسرح أن ينهض النهضة الصحيحة إلا إذا اعتمد عليها الاعتماد الأكبر ، يقول شوقي العظيم ونقول جميعاً معه .

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ، فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا
ولكن لا يخفى أنه يريد بالأخلاق تلك الأخلاق العظيمة لا الساقطة، وهل

يوجد في السكون أخلاق أسمى من أخلاق محمد ، بل دين محمد العظيم ؟
(أفمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم . والله لا يهدي القوم الفاسقين) .

لا تعجب من الأسس ما هو دعامة ، ونحن لا نريد إلا أن يكون أساس
الفن والمسرح في عهده الجديد صالحاً قوياً متيناً ميمماً وجهه نحو المثل العليا
في الإسلام ، وما أكثر المثل العليا التي يجب أن تحتذى في هذا الدين العظيم .

* * *

(٢) أما الدعامة الثانية من دعائم النهضة بالفن والمسرح فهي أن يكون
باللغة العربية الفصحى .

نعم لأنه قد يكون أساس القومية الدين وقد يكون أساسها هو اللغة
ولكل بلد في العالم دينه الرسمي ولغته الرسمية . لهذا وجب أن
يراعى اللغة في الأعمال على اختلاف أنواعها ، كما يراعى الدين في نواحيه
العديدة .

وعار كل العار على أى بلد أن يهجر لغته الرسمية إلى لغة محرفة مكسرة
ليس لها قواعد ولا أصول إلا الامية التي ترادف الجهل .

إن اللغة الفصحى هي الجديرة بأن تكون لغة الجمال التي تخدم الجمال
السكان في ذلك الفن والمسرح ، ولغة الثقافة الفنية والأدب المسرحي
لأنك العامية التي تنافي كل ذلك وتحط من قدره إدن .

إن في اللغة الفصحى جمال الصوت وعذوبته ، وجمال اللفظ والنطق
لأنها هي الفن الجميل ، أليس الشعر الفصيح فناً جميلاً أليس النثر الجميل
فناً جميلاً ، وهل في العامية إلا القبح والانحطاط في اللفظ والكلام
والخطاب ، بهذه الالتفاظ الرميثة ؟ .

إن العربية الفصحى ذات جمال في كل شيء فحين يسمعها الانجمي الذي لا يفقه لها معنى يطرب لسماعها ، للصوت الموزون واللفظ النظيف الفخم القوي المبني والمعنى مما ليس في لغة أخرى ، فعلام نرتكس إلى العامية على ما بها من فساد وشين ؟ علام نعود إليها وهي لغة مبتذلة غير مستساغة إلا من أصحاب الذوق غير السليم من الأدباء ، لأنهم قريبون من العامة ، ومن العامة ، لأنها لغتهم المنسوبة إليهم ، وليس لهم لسان يتكلمون به إلا هذا اللسان الرخيص الذي لا يكلف درهما ولا ديناراً ؟

في الحق أن الرأي الذي ينادى بأن تكون تلك اللغة العامية لغة الفن والمسرح ، هو الرأي الخطأ ، لأنه لو صح هذا الرأي لوجب أن تكون الخطابة في المسجد ، والخطابة في غير المسجد ، في المجتمعات العامة ، وأن تكون الاذاعة اللاسلكية ، وأن تكون الصحف كلها ، بالعامية بالاجماع لأن الشعب هو الذي يستمع وهو الذي يقرأ ، ويجب أن نزل إلى مستوى الشعب في وجهة هذا الرأي الخطير الذي يحارب الفصحى محاربة خافية على أكثر الناس ويسىء إليها من حيث لا يعلم هو أو لا يعلم أحد ، حيث يجعلها محصورة في عدد قليل ممن تعلموها في دور التعليم ، وقليلون هم الذين يتقنونها وأصبحوا أقوياء فيها .

أى ظلم هذا ذلك الذي يعزل العربية الفصحى حتى طغت عليها اللغات الأجنبية في بعض الميادين ، وطغت عليها هذه اللغة العامية هي الأخرى ؟

أننا لو استعملنا الفصحى استعمالاً حكيماً في المحادثات والمحادثات الفنية المسرحية ، مراعين السهولة والبساطة على قدر عقليات أولئك العامة من الشعب ، أى مراعين ما يقتضيه الحال والمقام ، لنجحت تلك الفصحى في ميدان الفن والمسرح النجاح العظيم ، وارتقى مستوى الفن

والمرح اللغوى علاوة على الاخلاقى ، وارتقى مستوى الشعب اللغوى من بعد ، رويداً رويداً ، إذ فى تكرار هذه الروايات الفنية والمسرحية تكرار لما حوت من لغة فصحي فى درجة عامة الشعب ، وفى هذا التكرار غرس لها ورسوخ فى رموس هؤلاء العامة ، فتصبح بعدئذ جزءاً من أنفسهم ، يتكلمون بها وينطقون بدون عناء ولا مشقة ، ويجعلونها وسيلة فى التفاهم وهم مسرورون .

وهل يغرب عن بالنا أن الأسوة والقدوة كما تكون فى العمل الصالح تكون فى اللغة والنطق بالفصحى ؟ ومن يكون أسوة وقدوة العامة الشعب فى اللغة والنطق بالفصحى إلا أهل الفن الجميل والمسرح ؟ ألا نذكر ذلك فنجعل الفصحى دعامة أصلية من دعائم النهضة بالفن والمسرح حتى يساهم منبر الفن والمسرح فى نشر الثقافة اللغوية بجانب الثقافات العديدة الأخرى التى ينشرها ، وحتى يتعلم هؤلاء العامة بين يديه أكبر عدد ممكن من الكلم الجميل من هذه الفصحى التى نفتديها بالمهيج والأرواح كما نفتدى الدين سواء بسواء .

وهل يليق أن نظل فى هذا المستوى الواطئ وهو مستوى العامة ولا نرتقى ولا نحاول الارتقاء إلى مستوى أعظم وهو مستوى الفصحى القريب ، فإذا وصلنا إليه زدنا فى الارتقاء إلى مستوى أعظم فى الفصحى ، لأن الفصحى ليست فى مستوى واحد ، وهكذا حتى نبلغ فى نهضتنا اللغوية ما بلغه العرب فى عصرهم الذهبى وهو عصر صدر الإسلام ، أو يزيد عليهم فى بعض الأمور إن شاء الله وهو على كل شيء قدير .

وهل يليق أن نظل متأخرين فى اللغة مثلما نحن متأخرون فى الدين ،

والتأخر في هذين الأمرين بالذات ، فهما من الخطورة والقضاء على
كيان الشعب شيء عظيم .

✱ ✱ ✱

(٣) ناهيك بهذه الدعامة الثالثة من دعائم النهضة بالفن والمسرح
وهي الجودة والاتقان .

إن الجودة والاتقان أمر ضروري في كل عمل من الأعمال ، لقبوله
واستساغته ، وإلا عد عمل فاشل لا أثر له يتعدى إلى الناس ، ولا ثمرة
منه يلتفع بها الآخرون . ينبذه الناس ، ويرفضه المجتمع . لتعريه من
الابداع والفن . وحرمانه من الجمال والوجاهة ، لأنه متى تعرى عن
الابداع والفن وحرم من الجمال والوجاهة ، فقد صار مكروهاً
طبيعياً ، ومتى صار على هذه المكروهية ينبذ ويرفض .

هذه حقائق ينبغي أن يضعها أهل الفن والمسرح نصب أعينهم
ويتخيلوها عند ما يقدمون على عمل من أعمالهم الفنية والمسرحية ، لأنها
ذكرى كريمة والذكرى تنفع المؤمنين .

إن الفن والمسرح في حاجة إلى هذه الجودة والاتقان في كل ناحية
من نواحي القصة المعروضة ، ولا نقصد غير ناحية الاخلاق واللغة
لأنها هي الناحية التشريعية ولا يصح لنا أن نخرج عن هذه الناحية
التشريعية الخاصة ، فليحاذر أولئك القائمون به أن تفقد منهم أو يفقد
منها أى شيء لأن في هذا الفقد الضرر العظيم ، إذ سيخسر المنتجون أموالهم
ووقتهم لا قدر الله وسيخسر المشاهدون وطلاب الفن أموالهم التي دفعوها

أجور المعرض ووقفهم الذى قضوه فى المشاهدة غير المجدية ، وستضيع مصالح من هؤلاء ومن هؤلاء ، ويلعن هذا الفريق هذا الفريق .

على أننا إذ نراعى جانب الله تعالى وهو سيدنا ومولانا العظيم ، نراه يكره المسىء فى عمله ويحب المحسن فى عمله . فلكى نكون محبوبين لديه تعالى ، ولكى يكوّن عملنا مرضياً عنده ، ينبغى أن نجتهد فى تحسين أعمالنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً .

* * *

(٤) وهذه هى الدعاية الرابعة من دعائم النهضة بالفن ومسرح الفن ، وهى أننا متى آنسنا فى أنفسنا أن أعمالنا الفنية والمسرحية قد أصبحت من الاخلاق ومن الفصحى ومن الجودة والاتقان فى حال طيب كريم فلا بأس ولا ضير أن نتقدم خطوة إلى الامام ونقلد عصر النبوة والرسالة فنجعل من المسجد مسرحاً مقدساً وننتقل إليه فى القريب العاجل عند ما يستعد البلد لهذا المشروع الوجيه ويتهيأ ويعزم وينوى . والحقيقة أننا فى حاجة كبرى لأن نجعل من المسجد مسرحاً مقدساً لأن الفن الجميل الذى يمثل على أرض ذلك المسرح المقدس ، إن هو إلا تربية عاطفية ونفسية واجتماعية نظيفة خالية طاهرة شريفة نافعة وذات افادة كريمة . ومن أجل ذلك أقره رسول الله ﷺ وشجع عليه . وحضر مجلسه بالفعل وبذاته الجليلة .

ومن أجل ذلك يقول (أدبى ربى فأحسن تأديبى) ذلك أنه يدخل فى هذا التأديب ، رؤية هذا الفن واقراره ، بل الدخول فيه فى بعض الظروف كما تطفه ﷺ بالمزاح مع بعض الصحابة .

ومن أجل ذلك يشهد لأخلاقه القرآن الكريم حين يقول : وإنك لعلى خلق عظيم ، كان وهو صغير يتربى على كريم العادات والأخلاق من رياضية وسياسية وهلم جرا ، وكان وهو نبي يربى شعبه تلك التربية الرياضية والروحية والأخلاقية على هذا الأسلوب العظيم .

وهل المسجد إلا مكان عام ومخفل جامع جعل لتؤدي فيه الأعمال الصالحات التي فيها صلاح الناس في نظر الإسلام دنيوية تلك الصالحات أو أخروية لا في نظر أولئك الذين لا يعلمون ، إذ ما دامت تلك الأعمال الصالحات تفعل بأمر الله تعالى وإذنه الكريم ، فلا فرق فيها بين دنيوية وأخروية ؟ فهل إذا قمنا فيه بتمثيل أى غرض سلبى أو إيجابى من أغراض هذا الدين التي نقوم بها ابتغاء وجهه تعالى ، كأن نحب ونظهر الود لله تعالى ، أو نكره ونظهر البغضاء من أجل الله تعالى ، وكأن نلهو ونلعب ابتهاجاً وشكراً لله تعالى بأنواع اللهو واللعب المعبرة عن هذا الابتهاج والشكر ، ونحن فى أحسن زينة وأبهى حلية مما لا يخالف الشريعة السمحة ، هل إذا قمنا بذلك نمنع المنع التام ؟

حَقّاً أننا فى حاجة كبرى إلى إحياء هذه العادة وإحياء تلك السنة التي كان عليها رسول الله ﷺ والتي أمانها الجهل والغباء والغفلة والظلم ، ليظل مستوانا الروحى والمعنوى عالياً ، بل لنسمع ونرى ما يعود علينا بالخير والنفع فى شتى شؤون هذه الحياة .

على أن بجانب هذه الحقيقة حقيقة أخرى ، وهو أن ذلك اللهو واللعب والمرح فى المسجد فى الإسلام ، نوع من أنواع التحيات التي نوجهها لله سبحانه وتعالى ، فلا زال العرف والعادة يحى العظماء والكبراء بهذه

الموسيقى والطبل وإقامة حفلات الطرب والتمثيل وإنشاد الشعر والغناء
وهذا رسول الله قد استقبل يوم أن هاجر إلى يثرب بشيء من هذا أو شبيهه .
وكل هذه الأمور من أنواع الفن والجمال ، وهل يناسب إله الفن والجمال إلا
هذه التحية التي جمعت الفن والجمال . ومن إله الفن والجمال إلا الله سبحانه
وتعالى ؟ أنه خالق الفن وخالق الجمال ، بديع السموات والأرض ، وإذا أراد
قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، ومن يعرف صفات الله تعالى وأسمائه
الحسنى يجد من بينها هذا الوصف وهذا النعت ، وهذا الاسم ، ويجد
أنه أول من يستحق هذه التحية في الكون والوجود ، سبحانه وتعالى
عما يشركون .

وكل هذه النظرات تبين مدى حاجتنا الكبرى لأن نجعل من المسجد
مسرحاً مقدساً ، لاداء هذا النوع من التحية فيه لله رب العالمين ، لأننا
لسنا في غنى عن التقرب إلى الله رب العالمين بهذه التحية الجميلة التي لا تزال
حية وخالدة ويكرم ويذكر بها غير الله تعالى وهو أولى بها وأحق كلها
تذكرنا أنه الحبيب والجميل ، وهبت علينا ريح الود والشوق إليه سبحانه
وتعالى ، وأنسنا به وبمحضرته في بيته المكرم .

ومن يتدبر في قول الله تعالى (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء
وتصدية) فإنه يهتدى إلى أن هذا اللهو واللعب والمرح في هذا المسجد
المحرم كان من الدين منذ القدم ، بقرينة قوله تعالى (ثم أوحينا إليك
أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً) فإن هؤلاء العرب الأميين كانوا
في جاهليتهم الأولى على ملة إبراهيم تلك الملة الحنيفية السمحة ، ولم ينح
عليهم القرآن إلا شركهم فقط دون فهم ، كما ذكرنا ذلك في الفصول
السابقة صراحة وإشارة .

أى أن فكرة جعل المسجد مسرحاً مقدساً فكرة سماوية عليا ،
وتشريع ربانى لا مهرب منه ولا محيد عنه ، للقيام بواجب إظهار
حبه وتعظيمه على هذا الوجه المؤثر البليغ ، ولاسترضاء إله الفن
والجمال والخلق والتصوير والإبداع والحسن ، بتقديس وتعظيم
الفن والجمال ، ومشاهدة الفن والجمال ، لنسبح بحمدخالقهما الاكبر
ونهل له مكبرين عند مشاهدة هذه الآية الكبرى على فنه وجماله ،
وسبحانه من فنان جميل علم الإنسان ما لم يعلم من الفن والجمال ودله
وأرشده إلى مافيه الكمال والخير .

ولإذن لم يكن من بأس وضير بل لم يكن بد ومناص من أن نجعل
المسجد مسرحاً مقدساً . لأنه حق الشعب . بل حق الله سبحانه وتعالى
الذى يؤدى الناس حقه فيه من أنواع التبجيل والتعظيم وهم فى سرور
وجبور ، بل مرح ونشاط .

ولكن ماذا نفعل ، والفن لايزال عندنا فى مبتدأ الطريق ، ولا
زلنا منحرفين عن أصوله ومقاييسه الصحيحة ، ولم نصل فيه بعد إلى
درجة الجودة والاتقان ، بل إلى حد الجمال الحقيقى ، بل إلى مستوى عال
منه ، اللهم إلا فى قلة لا تذكر ؟

لنقصر الفن الآن فى المسجد أى فى هذا المسرح المقدس ، على هذه
الروايات الإسلامية وفى مقدمة تلك الروايات الإسلامية روايات
القرآن الكريم ، إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وحسب المسجد الآن ذلك النوع من التمثيل ، لأنه لا يستطيع أن
يقوم بأكثر منه مادام لايزال هو الآخر على مقربة من أول الطريق .
على أن المسجد لو قام بهذا الأمر الضرورى والواجب لعاد إليه

نشاطه وحركته كمرکز إسلامي عزم ودار من دور المسلمين العامة .
وكان لهذا أثره العظيم في تعميره التعمير الدال على نهضة هذا الشعب
ويقظته الكبرى وزيادة عرفانه بربه العظيم ، وتعلقه به التعلق اللائق
به سبحانه وتعالى ولكننا قد جهلنا بتقاليدنا الخالدة المشرفة فأصبحنا
لا نتميز عن الآخرين .

* * *

ولكن مهما يكن من شيء فإنه إذا ذكر المسجد وهو المسرح الإلهي
المتقدس ودار الأوبرا الملكية ولا ملك هنا إلا الله سبحانه وتعالى ،
فإن الصوفية أوقن بعض الصوفية يذكرون معه بالفضل والسبق ، في
الفهم على كثير من الفقهاء وكثير من الناس . وفي العمل بسنة محمد على
أصولها ، إذ طريقة هؤلاء القوم الجمع بين العلم والعمل ، متمثلين حياة
محمد وصحابة محمد تمثلاً تاماً ، لأن لهذا الجمع وهذا التمثيل أثره الفعال
والبعيد في قطع الطريق والوصول إليه سبحانه وتعالى .

ولكن على الرغم من هذه الحقيقة لا يزال يجهل على القوم كثير من
الناس متعلمين وغير متعلمين ، متهمين بإيهاهم باتيان البدع المنكرة التي
حرمها الله تعالى وبالشعوذة باسم الكرامات والخوارق للعبادة التي
يؤيد الله تعالى بها أوليائه المقربين . يحسبون أن الرقص والغناء
في المسجد بدعاً منكراً حرمها الله تعالى ، ويحسبون أن اللعب
بالسلاح واللعب بالحراب أو بالحربة التي يسميها بعض الناس سيخاً
أوسيحاً شعوذة تفعل على أنها كرامة لهؤلاء الصوفية أولياء الله وأهل
الله وأحباب الله تعالى .

ولكن الحقيقة أن هذا الرقص وهذا الغناء في المسجد ليس بدعاء منكرة ، لأنه هو ما حدث على عهد رسول الله ﷺ وهؤلاء تابعون ومقتفون أثر هذا العهد المبارك والجليل لا يفوتهم منه شيء حتى قدر مفحص قطاه أو مثقال ذرة .

وكذلك هذا اللعب بالسلاح في المسجد وغرضه في أى جزء من أجزاء البدن ، ليس شعوذة باطلة ، بل ليس يدعى لإنسان أنه كرامة خارقة للعادة أيد الله تعالى بها هؤلاء الصوفية أصحاب الطريق العظيم إلى الله تعالى ، إذ يقوم بها أولئك الصوفية أعنى العاشقين والمجاهدين في حب الله ورسوله ، على أنها ألعاب ومباراة حربية عسكرية على الطرق الخربية والعسكرية القديمة رمزاً للبطولة والتضحية وإشارة إلى أنهم جند الله تعالى وبرهنة على أنهم لا يبالون بالطعنات في سبيل مولاهم ودينهم فإنهم أهل حرب وفناء في سبيل المبدأ والعقيدة ، وإعلاناً على أن هذه الجراحات لا تؤلمهم لأن حب الله تعالى يغلب عليهم وهم سكارى بحبه تأنهون في ملكه وملكوته ، غافلين عن الدنيا ذاكرين الله وحده وإن كان الناس على عكسهم غافلين عن الله تعالى ذاكرين الدنيا وحدها ، يمثل أولئك الصوفية بهذه الحال حال المؤمن الصحيح ، الذى باع نفسه لله تعالى ، المستعد للمتوئب كالأسد للجهاد ، الذى يستعذب الموت في سبيل الله ويفرح بلقاء العدو ويعتز بربه ودينه ويحتقر الدنيا وهذه الحياة مادام العيش في الآخرة هو العيش الصحيح .

فهل إذا قام الصوفية بهذا اللعب في المسجد وبهذا اللهو بالحق عن اللعب واللهو بالباطل الذى يغمر الناس ، يتخلل هذا وذاك ذكر الله

سبحانه وتعالى ذلك الذكر العالى الشريف بهذه الاسماء الحسنى وبهذه
الاغاني والانشيد الخالصة لله تعالى حتى لا يكون هناك شبهة ما أو ظن
فى أنهم يتشبهون بأهل الدنيا الفاسقين ، وحتى لا يؤدى بهم هذا اللعب
وهذا اللهو إلى نسيان الله تعالى الصارف عن الله تعالى ، هل إذا قاموا بهذا
وذاك يهتمون هذه الاتهامات الحقيرة ؟

إن الصوفية قوم يفقهون كثيراً ، لأنهم أصحاب أذواق ووجد
عال . وهم يقرأون قول الله تعالى (فاذكرونى أذكركم واشكرونى
ولا تكفروا) وهم لا يريدون بل لا يرضون أن يحرموا فضل ذكر
الله تعالى وشكره ويقرأون قوله تعالى (نسوا الله فأنساهم أنفسهم)
(نسوا الله فأنساهم) . وهم يخافون أن يحرموا من اتصالهم بالله تعالى
وأن يعاقبهم بهذا الإساءة وبهذا النسيان اللذين فيهما الحرمان كل الحرمان
من الخير والسعادة .

بل لأنهم حين يقومون بهذا اللعب واللهو مع التغنى بأناشيد الحسن
والجمال . وحين يتخذون المسجد داراً للوهم ولعبيهم ومرحهم مثل
ما يتخذونه داراً لصلاتهم وإرشادهم ، لا يخرجون عن العمل بالحكمة
الواردة فى الآية الكريمة (أذع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة
الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله
وهو أعلم بالمهتدين) بل لا يخرجون عن العمل بهذه الآية الجميلة ، إذ
لا شك أن الفن الجميل بجميع أنواعه من غناء وآلات وألعاب وخطابة
وقصة وحوار ، من الحكمة ومن علوم الحكمة قديماً وحديثاً ، وهذا
هو تاريخ اليونان وغير اليونان القديم يدل على هذا المعنى ويشهد به .

وهذا تاريخ الإسلام يشهد لك أن نبي الإسلام قد سمح لاتباعه بالغناء واتخاذ آلات السماع واللعب والرقص حتى في أشرف الأماكن في الإسلام وأرفعها قدراً وهو المسجد بيت الله المعظم بناءً على أن تلك الأمور من الحكمة وعلوم الحكمة التي لها أثرها العظيم في أسراع الناس إلى دعوته ونجاحها النجاح التي هي جديره به ، وهو لا يفوت شيئاً من الحكمة في هداية الناس وجذبهم واستمالتهم إلى الدين ، بل إلى الخير والرشاد ، لأنه قد أمر بالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة وعلوم الحكمة .

وهذا هو تاريخ الأمم الحديثة ذات المدنية والحضارة ينهك إلى أنها تسير على نهج السابقين في عد هذه الأمور من العلوم والحكمة والفلسفة وفي تناولها وتعاطيها ، مادامت هي الوسيلة الكبرى في ترقية الأفراد رجالاً ونساء ورفعهم من الجهل إلى نور العلم ، وثقافتهم وتبصيرهم بمعاني الخير والشر وبالناس .

إذن لم يكن الصوفية على خطأ حين يقومون بهذه الطقوس والمراسم على أنها عبادة تؤدي في المسجد لله تعالى .

وفي غد إن شاء الله تعالى يرتقي الشعب والأزهر الرقي المنشود ويقر الجميع بفضل الصوفية الفضلاء . وأنهم السابقون على الناس .

فهذا فهمهم البديع ، وهذه معانيهم الدقيقة . وهذا إنتاج قرائحهم الصافية الراقية . يفيض الله عليهم سبحانه وتعالى بهذا الفيض الخالص . ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون . ويلهمهم الحق والصواب .

وهذه هي أخلاقهم وطريقتهم المثلى تتجلى في ذهابهم إلى الله تعالى في المسجد الذهاب الدائم الرتيب ، يأنسون به ويحتفلون احتفالا خالصاً مهيباً موقراً مؤدباً ليرضى عنهم مولاهم العظيم (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني) إنهم قوم يحبون مولاهم - ولكن جعل الله تعالى أتباع محمد ﷺ أمراً لا بد منه ، لأنه دليل ذلك الحب الأعظم ، ولكن لا إتباع لمحمد إلا بتعظيم الفن ورعاية الفن والابتداع في الفن إقتداء بمحمد ﷺ الذي بارك الفن المعاصر له ﷺ ونهض به بهذه التشريعات الأخلاقية والاجتماعية الخالدة ، جزى الله الصوفية خير الجزاء .

على أن ما يعاب على الصوفية هو ما يعاب على كل طائفة هو ما يعاب على الأمة ، إذ كل طائفة لا تخلو من عيب . وما من أمة إلا وبها عيب كامن ، ولكن ربما يكون نصيب الصوفية منه أقل من بقية الناس .

ولست أريد الاسترسال في الحديث عن الصوفية فلهم على حق كبير ، ولكن ليس هذا الوقت وقت دفع ذلك الحق ، إذ لكل مقام مقال ، ولكن لا بد من أن أعرفهم الآن ، أنه يجب عليهم أن يرقوا قنهم و هوهم ولعبيهم رقياً متفقاً مع الرقى انعام في هذه الأمم الحديثة ، فيتبعون النظم العسكرية أو يقلدون نظام الكشافة ، فيمرون في الشوارع والميادين في جلال ووقار وهيبه وخشوع وهيئة وسمت حسن سميل ، ويقطعون السبل في نظام وحركات رائعة ذهاباً وإياباً . ويدخلون بيوت الله تعالى ، وهم على أحسن حال نفسياً وخلقياً واجتماعياً يرتلون الأناشيد ترتيلاً بديعاً ، ويغنون غناء جميلاً ويرقصون رقصاً شاكراً لله تعالى معبراً عن الشكر والبهجة والفرح بنعمة الله تعالى ، ولكن كل ذلك في نظام وبقوانين أدبية لا تخل بكرامة المسلمين ولا بحرمة مساجدهم المعظمة

وإن شئت التوضيح ، فأقول لك أنه يجب أن يكون عملهم بالمسجد مرسوماً
له منهج خاص يعلنون عنه كأي حفلة من الحفلات التي تقام الآن ، يرسم لها
منهج خاص ، ثم يعلن عن ذلك المنهج في إعلان ودعوة عامة أو خاصة ،
فيذهب إليها من دعى ويطلب المشاهدة لها كثير من يرغب إن مجاناً وإن بأجر .
ذلك ما يجب على السادة الصوفية في هذا المقام بالذات ، وقد عرضناه
عليهم الآن رجاء التفكير والاختلاف فيه بعد حين قريب أو بعيد وخشية أن
نتهم بالتقصير ، والسكران وعدم البلاغ ، وفي الوقت الذي نعرض أنفسنا
للغضب الشديد .

الدعامة الملحقة أو الكبرى

على أنه إذا كان المسرح يستمد مسرحياته وعناصرها ووقائعها من
هذا المجتمع ، فما لا شك فيه أن المجتمع إذا رقى وهذب وأصلح يكون
هو أكبر دعامة من دعائم النهضة بالفن والمسرح .
من أجل هذا ينبغي أن نعمل أفراداً وطوائف وشعباً وحكومة
متعاونين على النهضة به النهضة الكبرى ، حتى إذا نهض تلك النهضة لم
يقبل للمسرح أي عذر في تخلفه أو تأخره عن النهضة كذلك ، وتحتم عليه
السير في ركاب تلك النهضة ، وذلك بأن يلهو بقصة راقية طريفة تبهر الالباب
والعقول ، ويتحف النفوس بتحفة أدبية أو علمية تترك أثراً حسناً ينفع
لدى الحياة ، ويقدم للجمهور فناً رفيعاً يشعرهم بما حولهم في هذا العالم
من خير وشر .

وهكذا نسير في طريق النهضة جميعاً في اتحاد وتنظيم ، وإلا حكم
علينا بالموت الذؤام .

الفيلم

أطلع إلى وراء وأنظر إلى الخلف عسى أن أعرف أصلاً لهذا الفيلم وشيئاً عنه في التاريخ القديم ، فلا أجد إلا عالم الرؤيا عند النوم ، وعالم الخيال عند اليقظة ، فالنفس الإنسانية ترى وتسمع بحواسها الباطنية عند النوم وتشاهد ما تشاهد من صور ووقائع ، وتسمع ما تسمع من كلام وقول ، وتخطب من تخطب كأنها في عالم المادة .

وكذلك خيال الإنسان يقلب صور الأشياء ويغيرها من حال إلى حال فيجعل القليل كثيراً ، والكثير قليلاً ، والابيض أصفر ، والاخضر أسود وهكذا ، سواء كان المؤثر على الخيال السحر والصناعة الدقيقة (فإذا حباهم وعصيم يخيل إليهم من سحرهم أنها تسعى) أو كان ذلك المؤثر واقع الحياة .

انظر إلى قوله تعالى من سورة الأنفال (إذ يركبهم الله في منامك قليلاً ، ولو أراكم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ، ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور) ترى إنه قد جعل عالم الرؤيا الذى يحس فيه المرء ويدرك ما لا يتأتى له في عالم الرؤية ، العالم الذى يقوم مقام الفيلم . وانظر إلى قوله تعالى فى أثره (وإذ يريكوهم إذ التقيتهم فى أعينكم قليلاً ويقللهم فى أعينهم ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ، وإلى الله ترجع الأمور) ترى أنه قد جعل للخيال والوهم عند التقاء الجمعين أثراً فى نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين كالفيلم ، وربما يكون سبب هذا الخيال عالم الرؤيا والتبثيل فى النوم أو الدعاية المضللة أو زيغ القلوب والعقول

من الخوف والرعب ، أو طغيان القلوب وسلب العقول من الفرح بالبشرى والوعد الكريم ، ولكنه سبب موزع على الفريقين .

وتطور الامر وتقدم الزمن ووجد ما يسمى بصندوق العجائب وفي هذا الصندوق يمر شريط من الصور الشمسية ، وبالأحرى تمر عدة صور شمسية متماسكة أمام جملة عدسات ، يجلس أمام كل عدسة شخص ينظر ويشاهد تلك الصور التي تمر من أمام عينه ، في الوقت الذي يرشدك فيه صاحب الصندوق عن شخصية كل صورة من الصور ، ويعرفك بها تعريفاً .

ثم تطور الامر ووجد الفيلم الصامت الذي هو أشبه بصندوق العجائب أو صندوق الدنيا في كل شيء على وجه التقريب ، في الصور المعروضة ، وفي الارشاد وقت العرض وتقديم أصحاب الصور المعروضة

ثم كان الفيلم الماطق ، ثم كان الفيلم المجسم الناطق ، صورة الاصل من الصور الواقعية . ينقل إليك المناظر والأصوات كأنك تشاهد وتسمع أموراً واقعية ، ويجعلك تنظر وتبصر في الحياة عن كثب كأنك قد طفت العالم وسحت في أطراف الأرض ووقفت على أحوال الأمم والبشر وصار لا ينقصك إلا أن تتكلم مع أصحاب الرواية والقصة وتخاطبهم ، ولكن هذا الامر قد ترك إلى اللاسلكي وجعل أمراً قائماً بذاته .

والغاية من وراء هذا الكلام هي أن نعرفك أن حكم الفيلم حكم المسرح لا يختلف عنه في قليل أو كثير . وما انطبق على المسرح ينطبق على الفيلم حيث أن المسرح هو أصل الفيلم في كل الأحوال إلا الأحوال الطبيعية

فحسب ، ففي هذه الأحوال الطبيعية وحدها يكون الفيلم مثل المسرح
إذ كل منهما تقليد للطبيعة بدون واسطة ما .

وإذن لا داعى لتكرار الكلام وإعادة البحث من جديد ، في وضع
قواعد وشريعة ومنهج للقائمين به ، وفي بيان عيوبه وأسباب النهوض
به ، ومن عرضه في المسجد قياساً على المسرح ، وفي تحديد أغراضه
والغاية منه .

غير إنا نرجو ونأمل أن تكون عين الآداب التي تقوم على الدين
ونظريات الدين ، ساهرة حتى يقطع دابر الفساد ، لكي تنجو هذه الأمة
العزيزة مما أصابها في دينها وأخلاقها من سوء في العهود الغابرة ، الأمر
الذي يعمل عهد ثورة الجيش الآن على أن يكون حقيقة ماثلة أمام العالم
بالفعل ، والله هو المستعان .

خاتمة الكتاب

وبعد : فهذه أفكار عالية ، ونظريات إسلامية ، سمحة ، خالية من التكلف والخرج .

كتبتها لأحارب بها الإلحاد ، والزندقة التي يتخذ أصحابها من جمود جُلِّ رجال الدين ، مغمزاً في الدين وحجة للتحلل منه .

وبسطتها ليبتدى بها أولو الألباب ، فترفع المستوى الفكري والثقافي في العالم ، وتجعل من الناس أمة واحدة على أتم تفاهم .

واستنبطتها واعتمدت في إخراجها على توجيه النصوص الإسلامية التوجيه الصحيح المطابق للحق والواقع والطبائع البشرية ، عن دليل من اللغة العربية وهي لغة هذه النصوص الشريفة ، وعن قواعد وآيات الحكمة والمنطق السليم ، كي تقوم المدنية والحضارة الحالية والمقبلة في العالم على أساس قوى سليم من الإسلام العظيم ، إذا مارأوا أن هذا الإسلام يقوم بدوره الآن في تقديم هذه المدنية والحضارة الوحيدة التي هي خير المدينت والحضارات .

إنني كعالم مسئول ، أجاهد من أجل الناس لما أراه بين الناس من ذلك التأخر الذي هو أخطر أنواع التأخر ، ذلك الذي سيجعل جهادنا من أجلهم مضاعفاً ، وهل يغيب عن علم الرجل الحكيم الشاعر البصير أن أُمامي من الأمور التي سوف أعالجهاتللاً وجبالاً ، بل أموراً صعبة عسيرة فيها ابتلاء عظيم وأى عظمة ، مما يحتاج إلى الجهاد المضاعف ، وهو ذلك الجهاد الأكبر .

إما وإني قد جاهدت من أجل سلامة دين أهل الفن وعملت على أن يكونوا أبراراً في المسرح والفيـلم . فأوصيهم الوصية الغالية أن يتقوا الله تعالى في النصف الثاني من حياتهم المباركة ، لأن الأمر أخطر مما يظنون وأكبر مما يتصورون .

هذا . وإني أحمد الله تعالى على عونه وتوفيقه في هذه الكتابة وهو نعم المعين والموفق وصلى الله وسلم على هذا النبي العظيم محمد وعلى آله الطيبين .

المؤلف

محمد وهبه الشربيني

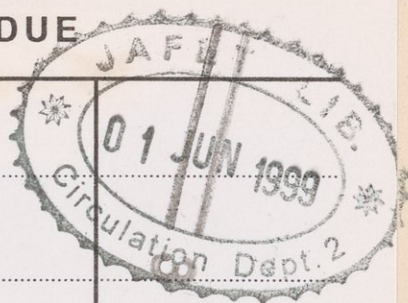
فهرست

٣	صلاة الافتتاح .
٦	الافتتاح .
٨	اهداء الكتاب .
٢٠	إلى قادة الثورة وزعماء التحرير .
٢٥	مقدمة وارشاد .
٧١	من الثورة إلى الفن .
٧٦	الفن شيء غير المسرح .
٧٩	الفن والمسرح الجاهلي عند العرب .
٨٢	الفن والمسرح في الإسلام وقت نزول الوحي .
٩٥	الفن والمسرح في الإسلام بعد انقطاع الوحي .
١٠٨	الفن والمسرح داخل الدور والبيوت .
١١٤	التطور الحديث في الفن والمسرح ويشتمل على أعظم فصول الكتاب
٢٠٧	دعائم النهضة بالفن والمسرح وتشتمل على عدة دعائم هامة .
٢٢٧	الفيلم .
٢٣٠	الخاتمة .

تم بحمد الله تعالى

وقد انتهت هذه الطبعة في منتصف شهر

ربيع الثاني في عام ١٣٧٤ هـ

[illegible]

6792.9:Sh53A:c.1

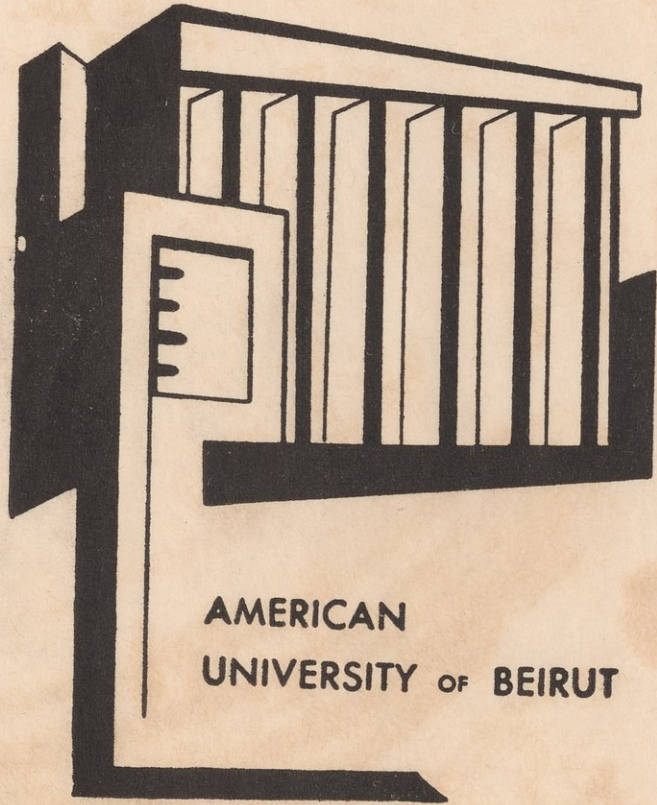
الشرييني، محمد وهبة

سياسة الاسلام تجاه المسرح والقيم

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01029940



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

